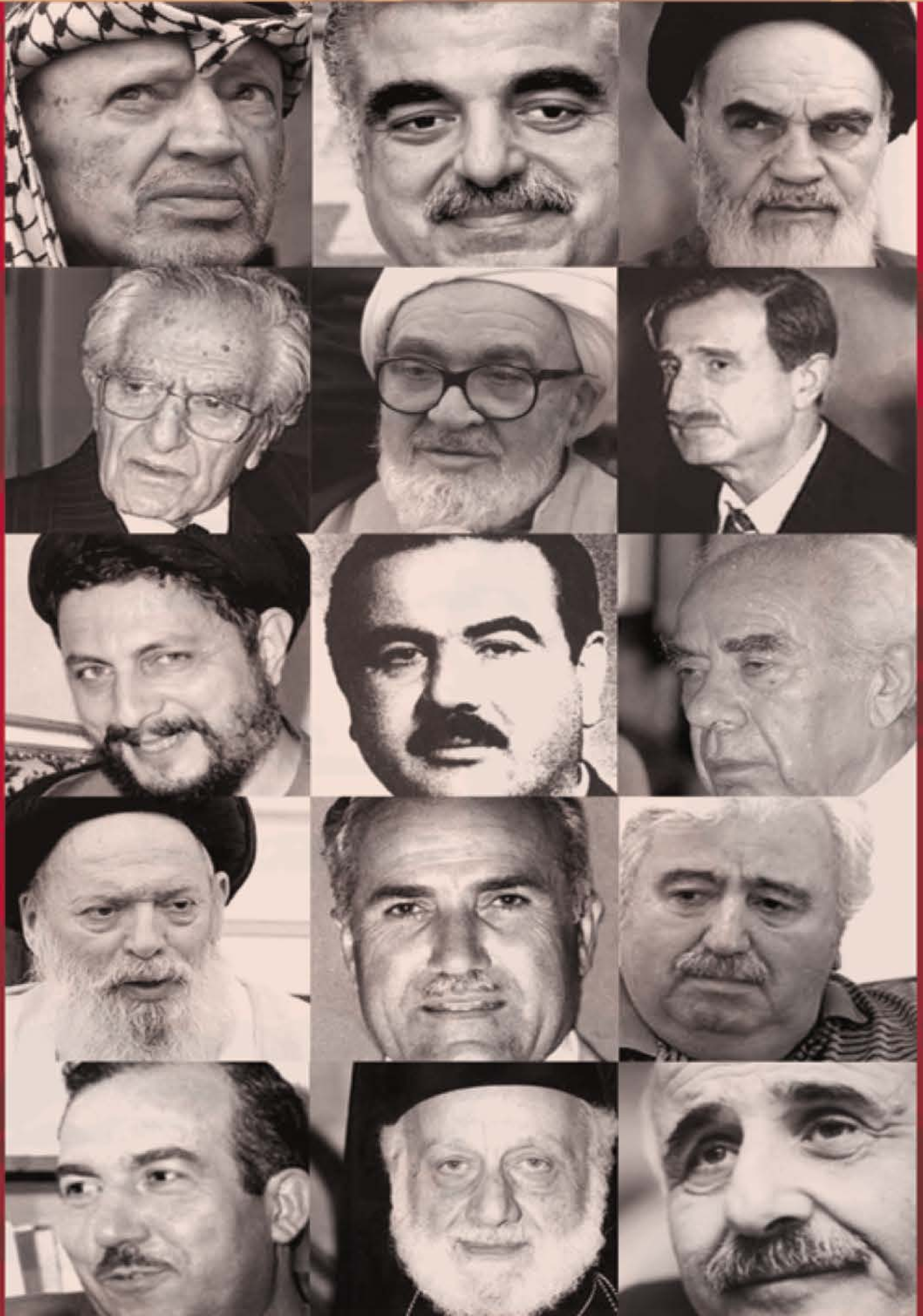
هاني فحص

مقيمون في الذاكرة



مذكرات 

المؤلف: هاني فحص

عنوان الكتاب: مقيمون في الذاكرة

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

تصميم الغلاف: ريم الجندي

دار المدى للثقافة والنشر

سورية: دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٨٣٦٦ ـ تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ ـ ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box.: 8272 or 7366 - Tel: 2322275 - 232226, Fax: 2322289

www.almadahouse.com Email: al-madahouse@net.sy

بيروت ـ الحمراء ـ شارع ليون ـ بناية منصور ـ الطابق الأول ـ تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ ـ ٧٥٢٦١٧

www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

بغداد ـ أبو نواس ـ محلة ١٠٢ ـ زقاق ١٣ ـ بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84306-126-4

هاني فحص

مقيمون في الذاكرة



المقدمة

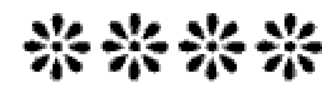
هاني فحص
الذاكرة العذبة وسيرة الناس والأماكن

صقر أبو فخر

السيرة وأدب الرحلة والمذكرات فنون جميلة من فنون السرد والقص، وهي تندرج، الى حد ما، في حقل التاريخ الشفهي. ولا تستقيم الكتابة التاريخية من دونها على الإطلاق، فهي كالنسغ الذي يروي العروق الجافة، أو كالماء الذي يغمر شقوق الأرض فيلينها ويهيؤها للإخضرار، وهي التي تمنح التاريخ عطره، ومن دونها تصبح الرواية التاريخية جافة ومشققة وبلا رونق أو رحيق. وهذا الكتاب للسيد هاني فحص هو، في أحد وجوهه، سِيَرٌ للرجال والأمكنة، وللأحبة الذين غادروا هذه الدنيا، وللذين ما برحوا مجاهدين في دروب الحياة. وأبعد من ذلك، فإن هذه النصوص ليست سِيَرَ الناس فحسب، بل هي مشاهد من سيرة هذا "الولد

العاملي " الذي شبّ ووجهه الى فلسطين، وقلبه الى العراق، وعاش بين أوراق التبغ ورائحة الزعتر وأشواك العاقول، وكانت بين يديه بندقية رمزية ما ارتفعت يوماً في وجه أحد، بل كانت مرصودة دوماً لمواجهة العدوان وإسرائيل.

هذا الكتاب الأليف واللطيف والممتع جولة بين الناس وعن الناس، وفيه لا نقرأ الوقائع أو الحكايات وحدها، بل نقرأ حياة غنية ومتشعبة لبضع عشرة شخصية من الذين غيّروا أفكارنا، أو أثّروا فينا بهذا المقدار أو ذاك، وأثْروا حياتنا ببعض البهاء أمثال شكيب أرسلان وأنطون سعادة وكمال جنبلاط والمطران جورج خضر والسيد محمد حسين فضل الله وحسين مروة وياسر عرفات وخليل الوزير ومحجوب عمر وغسان تويني والإمام موسى الصدر وجورج حاوي وآخرين.



من جبشيت كانت البداية. وجبشيت، مثل برعشيت وحدشيت وعدشيت والنبي شيت، نصبت لواءها واسمها للقداسة، وبالتحديد للنبي شيت. غير أني أعتقد أن شميم ترابها فوّاحُ عطرٍ لمجاورتها فلسطين، وسمو أهلها نابع من انغراسهم في الأرض ودفاعهم عن الأرض معاً. وهذا العاملي الذي ولد في تلك الأرض سنة ١٩٤٦، والذي نشأ وحيداً لوالديه، بات منذوراً للفرادة، وصار سيداً بكل معنى الكلمة ؛ سيد في الحلم، وسيد في الصبر، وسيد في الغضب، وسيد في الكلام، وسيد في الصمت. وهو، بهذا المعنى،

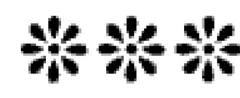
عربي نبيل: ولد في جبل عامل، وحاز شهادته من دمشق، ودرس في النجف، ثم عاد الى جبل عامل لينخرط في النضال الفلسطيني، ويؤسس، في الوقت نفسه، منتدى جبل عامل ليكون موئلاً للباحثين عن طريق منير.

***

لا أذكر، تماماً، متى انعقدت صداقتي ومحبتي الغامرة للسيد هاني فحص وأنا اليساري العلماني المتطرف آنذاك، وهو السيد النجفي المعمم. وأخال أن لقاءنا الأول كان في مركز التخطيط الفلسطيني حيث كان محجوب عمر يسقينا الشاي المرّ ويُسمعنا بعض أغاني أم كلثوم. مهما يكن الأمر، فأنا أعتقد أن مبتدأ هذه الصداقة قد جرى في رحاب الثورة الفلسطينية، وعلى الأرجح، في حركة "فتح" بالتحديد، وهي تجربة نادرة في عقد الأواصر والصداقات الممتدة.

لم أكن على وئام مع رجال الدين... وما زلت. لكن هاني فحص طراز من رجال الدين مختلف حقاً. هل هو رجل دين؟ بالتأكيد هو كذلك، لكن لا يمكن حصره أو التضييق عليه بهذه الصفة وحدها. إنه النافر والمختلف والأليف والحاني والغضوب أحياناً. هو الذي عاش بين شتول التبغ، وفوق التربة السمراء في جبل عامل. هو المناضل والأديب والفقيه والمثقف والمبدع، وهو رجل الدين الذي يتحمل وخزاتنا المدببة بمحبة. وهو الصديق الذي لا يأنف من الاستماع الى النكات ضد رجال الدين. وهو الهاشمي الذي وسمته النجف بميسمها، فلا يتورع، أحياناً، عن إلقاء

الأشعار الشفافة المفتونة ؛ فالجمال لديه هو جوهر الشعر والأدب والفن، خلافاً للكثير من المعمَّمين الذين أدركهم مرض التصحر، وظلّ ديدنهم هو هو، أي اجترار الفتاوى واستحلاب الرأي من مرويات وآراء ولّت وأدبرت. ولعل سبب ذلك أن هاني فحص هو ابن الشام، بلاد الشجر والمطر والخصب والينابيع والشعر والغناء والحب الذي يفيض من العيون، ويفور من تحت الأجفان. لهذا كانت نصوص هاني فحص منسوجة بالنضارة الشامية التي طالما امتدت وانتشرت من شواطئ جبل عامل الى ارض السواد في العراق المثقل بالأحزان، مروراً بغوطة دمشق، مثيلة الجنة في العالم القديم، وملتقى ديانات الأسرار القديمة.



ينطلق لسانه بعذوبة مفعمة بالوجد حين يتكلم على العراق، ويغدو شجنه مثل رطب سامراء ونخيل الأنبار أو البصرة، وهو يحفظ أشعار بدر شاكر السياب "وشناشيل ابنة الجلبي" ويغني قصائد مظفر النواب ونصوص من "الريل وحمد"، وينتعش مع أبيات للجواهري ومصطفى جمال الدين ومعروف الرصافي، ويزهو مع أغنيات ياسر خضر وناظم الغزالي، ويختم بأشعار للمعلم أدونيس بعد أن يحفِّز حواسنا بملتقطات عن حضيري أبو عزيز وحكايات الطنطل وأبو طبر، ثم يستأذننا الى خلوة للصلاة والإنصات مع الشيخ محمد رفعت يتلو بصوته العريض آيات النور من سورة النور، ويعود مترعاً بنهج البلاغة، متأبطاً نسخة من مقابسات

التوحيدي، وقصاصات عليها فقرات من "الريل وحمد" وقصائد محمود درويش.

كان يوقظنا بتلاوته، ويُبكينا في خواتيمه. إنه نبيذنا المعتق مثل الشاي النجفي المعتق في "السماور" الفضي. وقد قيل عن النجف إن "وارداتها جنائز وصادراتها عمائم"، إلا أن هذا العاملي الآتي من النجف جاءنا بحكمة تقول: ليس المطلوب ذم الحياة ونقد الدنيا، بل الانخراط فيها وفي شؤونها وأحوالها وأهوالها... وهذا ما فعلناه تماماً.

****

في كتاباته، ولا سيما في بعض قبسات هذا الكتاب، يلوح قلق المفكر واضطراب البصير، وتبلبل المتأمل. لكن السيد هاني فحص مؤمن بالتأكيد، ويكاد، لفرط إيمانه، يلامس تخوم الشك. والشك، في يقيني، منزلة عليا من منازل التفكر والتأمل، وهو ذروة من ذرى المعرفة والبحث عن معنى لهذا الوجود، أو عن سرّ من أسراره، أو غايته. والإيمان لدى السيد هاني، بحسب ظني، ليس مجرد نصوص تتلى، وطقوس تعاد، وقوائم تقوم، وأجساد تقعد. إنه توق الإنسان الى المعرفة، ومسار في السعي الى القيم النبيلة كالحرية والعدالة والتحرر. لهذا لم يتورع عن الإفصاح في هذا الكتاب بالقول: " إن حلم ماركس لا يفترق، إلا شكلاً، عن حلم أبي ذر".

هذه الكلمات التي كانت تغضب ألوفاً، صارت على

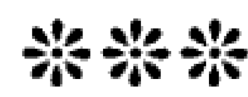
يديه مبادئ. ولا غروَ في ذلك، فهو عشير نعيم درويش وحسن الحايك (شهيدا فلاحي الجنوب)، وفاطمة الخواجة ويوسف العطار (شهيدا عمال مصنع غندور)، وعلي شعيب (شهيد النضال الأممي ضد الامبريالية الأميركية). ومع أن السيد ضد الإرهاب قطعاً، إلا أنه لا يتردد في إعلان انتمائه الى الحرية بأي وسيلة طُلبت: بالعنف الثوري أو بالمقاومة المدنية أو بالاثنين معاً. فالعنف الثوري لديه هو المتسربل بالغايات النبيلة كالتحرر من الاستعمار، وليس المنفلت من عقاله بلا غاية أو هدف. ودائماً كنت أخاله يصلي الى جانب غيفارا وجورج حبش ونلسون مانديلا وهو شي منه وجمال عبد الناصر وأحمد بن بيلا وعمر المختار والكواكبي ومحسن الأمين وعبد الكريم الخطابي وعلي عبد الرازق والنائيني، ويرفض حتى أن يصافح أسامة بن لادن أو أيمن الظواهري أو أبو مصعب الزرقاوي وأمثالهم وأضرابهم.

***

علّمني قاعدة "الإعراب على المجاورة"، فقال: يمكنك أن تعرب كالتالي: "جُحر ضبٍ خَرِبٍ"، لا "خربٌ". وتعملت منه المحبة على المجاورة، وأحببته لمزاياه، وربما لمجاورتنا معاً فلسطين. والحقيقة أن خلافات البصريين والكوفيين أوجعت رأسي في مرحلة ماضية، فأنا أنتمي الى المدرسة الشامية في فقه اللغة، وأئمتي كثيرون على غرار ابراهيم اليازجي الحمصي، وأسعد داغر اللبناني المتمصر، وعبد الله العلايلي المصري الأصل واللبناني

بالمهاجرة. لكن لغة هاني فحص، هنا في هذه النصوص، ترقُّ وتشفُّ لتصبح أكثر حنواً وحناناً حين يتكلم على ياسر عرفات أو على أبو جهاد أو محجوب عمر (محجوب عمر هو الاسم الحركي للمناضل المصري رؤوف نظمي ميخائيل عبد الملك). يقول عن ياسر عرفات إنه "شيخ العشيرة الفلسطينية الديموقراطية التي تتسع للجميع"، ثم يروح يروي حكايات طريفة عن أبو عمار ورفاقه، ويقصّ علينا كيف كان ياسر عرفات سبباً في مراجعة أفكاره ولغته، فيروي أنه زار أبو عمار مرة في عيتا الفخار، وكان ذلك في بدايات الحرب الأهلية اللبنانية. ويبدو أن كلام السيد اتخذ منحى طائفياً، واستخدم مفردات طائفية على غرار لغة السياسة في تلك الحقبة. لكن أبو عمار لم يعلق على الفور، بل طلب إليه البقاء قليلاً، وكان ينتظر وفداً من أهالي المنطقة. وحين جاء أعضاء الوفد استقبلهم بترحاب، وفي أثناء الحديث همس أبو عمار في أذن هاني فحص ليخبره أن هؤلاء مسيحيون، وأن فلسطين هي في ضميرهم، وقد اختبر بنفسه صدقية هذا الأمر في الأيام الصعبة. ففهم السيد من هذه الهمسة البسيطة ما خفي عليه كثيراً. وفي ذلك يقول: "عدت الى منزلي، وعلى طول الطريق كنتُ مشغولاً بنزع أشواك الطائفية من جسدي وقلبي وعقلي". ومن طرائف ياسر عرفات انه قال في إحدى المرات للسيد هاني: ها أنتَ يا سيد هاني صرت تعمل برأي أم حسن أكثر مما تعمل برأيي! فأجابه: ناظم حكمت يقول إن وطني حيث تكون زوجتي، وأنت زوجتك فلسطين، ولن

تستقر إلا معها وفيها. وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فقد سأل شفيق الحوت ياسر عرفات مرة، وهو عائد معه في السيارة من دمشق الى بيروت: لماذا لم تتزوج حتى الآن يا أخ أبو عمار؟ فأجاب: إنتو مش شايفين الهمّ إللي أنا فيه؟ فأجابه شفيق الحوت: ولو يا أبو عمار.. الرسول تزوج مرات عدة. فقال عرفات ضاحكاً: والله يمكن تكون قضيتنا أصعب من نشر الإسلام... ثم إن الرسول كان معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، أما أنا فعندي أبو إياد وأبو الهول وأبو حسن وأبو السعيد.



كان غرامه بياسر عرفات وفلسطين لا يمنعه من نقد بعض وجوه السياسات الفلسطينية في لبنان. وها إن محبتي وتقديري للسيد هاني فحص جعلاني أقرأ هذا الكتاب الشائق دفعة واحدة، وطوال ليلة واحدة. وها أنا أروي بعض ما قرأت في هذا الكتاب المفعم بثراء إنساني غامر.

بيروت في ٢٠١١/١١/١٢

مقدمة المؤلف
إنها أسمائي أيضاً

هذا الكتاب وراء صفحاته وأسطره وكلماته وفواصله كلام آخر ومعنى شديد الخفاء، وقد يزيد من جمالية نصوصه، إن كانت جميلة، أن أبقي المعنى الخفي على خفائه، لعله يغري قارئاً بالتخمين أو التأويل، إذا اكتشف أن ظاهر النصوص ليس تمام مقاصدها.

ولعله من المعروف أن الكاتب الشقي أو الإشكالي يسعده ويستفز فكره أن يكثر خصوم نصه من ناقديه، وأحياناً يحلو له أن يكون مظلوماً، ويسعد بعض الكتاب أو كثير منهم أن يتفق القراء والنقاد على الموقف الإيجابي منهم ومن نصوصهم، ويعتريهم أحياناً شعور لا يخلو من خطورة بأنهم معلمون أو مجتهدون مطلقون أو أنبياء، وأن القراء هم مجموعة من التلامذة أو الأتباع أو المريدين.. أما إذا كان عمل كاتب أو أديب أو شاعر يحدث انقساماً في صفوف قرائه، وحملهم على جدل محتدم في شأنه وما يكتب، فإن سعادة الكاتب حينئذٍ تصبح أعظم من سعادته بما كتب، ومن

سعادته هذه يكتب أكثر، متعمداً أن يثير جدلاً أكثر وأسخن، وأشد جاذبية من القبول والموافقة والتسديد.

هذه الحال تغريني بالسكوت عن خلفيات كتابي هذا، وإبقاء السؤال: لماذا كتبت وماذا أردت؟ سؤالاً معلقاً، خصوصاً وأني أعرف كثيراً من الأصدقاء وغيرهم، ممن يقبلونني ويرتاحون الى سرد تجربتي مع الأحداث والأشخاص، من دون رغبة لديهم، أو مع رغبتهم في عدم تحويلها الى نصوص متداولة، لأن حساسيتهم تجاه الأشخاص لا تشبه حساسيتي إن لم تكن نقيضها تماماً.

ولكني لم آتِ الى حياتي وعلاقاتي وتجاربي واختياراتي من مكان عقدي أو إيديولوجي أو فئوي أو حزبي أو ديني أو مذهبي أو إثني محدد، من دون أن أنفي ما فيَّ من هذه المفاهيم التي تدخل من خلال فرديتي في تكوين ذاتي ووعيي، من دون اختزال للمركب الذي هو أنا، كما هو الآخر، في أي من عناصره ومستويات هويته المركبة، شاء أم أبى، فإن توهم أو تورط وأبى، كان هو الخاسر، وظلت هويته على حالها من التركيب العظيم، وظل يشكو من نقص في وعي ذاته، وحرمان من نعم ولذاذات أن يجد نفسه أو بعضها في من يختلف عنهم أو معهم، مشكلين أو متشكلين في لوحة يصبح الفراغ فيها لوناً آخر ويصبح التكوين المحايد متمماً لمعنى الفن، ويصبح اللاموجود في اللوحة أو في القصيدة أو الرواية أو القطعة الموسيقية، وجوداً متواطئاً، أي مساوياً للوجودات الأخرى في وجوده، وإن كان مشككاً أي

متفاوتاً في قوة هذا الوجود.. أي أن الذي يزدهر هو النوع، وأن الذي يتفاوت، هو الدرجة، قوة فرعية وضعفاً فرعياً، من دون أن تكون القوة أو الضعف مرادفة لضعف المعنى أو ضعف الدلالة.. وهناك ذكور كثر مقتنعون بأنهم أقوى من المرأة، ولكنهم يحيلون العشق والإذعان للجمال، الى ضعف الجميلة! "يا للضعيفين استبدا بي".

هذا الكتاب الذي يحيل الى الذاكرة التي تكونت على حلم ما، من أجل أن يحدث وصلة ولو خفية بأحلام متجددة، ولكنها غائمة ومنغصة (كالحلم بالحرية) وأحلام مستجدة، كالحلم بدولة الأفراد المدنية أو الحلم بالمعرفة المتبادلة والمتداولة، والتي هي نصاب مستقبلنا، والتي اعتبرناها لزمن طويل، زمن الانتكاسة للمسيرة الخلاقة، في منتصف القرن الخامس الهجري شأننا من دون العالمين، وإن كان الفكر أحياناً يعني اللافكر، والعزلة التي تنتج فكرها إنما تنتج جهالتها.

أردتُ أن أقول بأني أعذر كثيراً من القراء عندما يلاحظون ما في خارطة علاقاتي وصداقاتي واختياراتي من تباعد أو تباين.. وأعيد القول بأني لم آت من مكان أو من ممر إجباري الى الفكر والحياة، والحوزة التي تلقيت فيها علومي الدينية، استطعت كما استطاع كثيرون غيري، أن يكتشفوا المساحات الفسيحة والظليلة، وراء وأمام أقبيتها المغلقة وتحت سراديبها التي تطلع منها البرودة المنعشة عندما يحتدم الحر اللاهب في العراق.. لقد تعلمت في النجف

وسكنت في حي كندة، في الكوفة، قرب منزل علي، وحيث لعب بالتراب والشعر ودمه أبو الطيب المتنبي، وحيث وضع أول نوطة موسيقية الفيلسوف العلامة الفقيه الكندي.

فحق لي كما حق للشريف الرضى أن يحب أبا إسحاق الصابي كما لم يحب أخاه. وأجل المعري كما يجل مثالاً وسأجل الخليفة العباسي مستعلياً بالفكر والأدب واللغة والسؤال الفلسفي الذي قربه من الاعتزال وهو شيعي مصرّ على شيعيته، وزاوج في نصه وسلوكه بين أقصى توهجات العشق وأشواق العاشق وبين التقوى والعفة فازداد الحب في شعره أواراً وجمالاً.

أنا آتٍ من قرية لا يستغني فيها الضد عن ضده، ولا النقيض عن نقيضه، ولا المباين عن مباينه، ولا المثيل عن مثيله، ولا الخصم عن خصمه، ولا الصديق عن صديقه، ولا الحبيب عن حبيبه، ولا صخرة عن تربة، ولا تينة عن شجرة كرمة، ولا رمانة عن زيتونة، ولا قمح عن شعير، ولا حبق عن ورد، ولا عصر عن فجر، ولا غروب عن شروق، لأنها كلها أوقات ومواعيد للحب والعتابا والميجانا وانتظار المطر والزهر والثمر والحصاد والعرس والمأتم الذي يصبح بالحب مناسبة للفرح الداخلي العميق، لأن الشراكة بين كل شيء وكل شيء، وبين كل فلاح وكل ما في الأرض وعليها، شراكة تشبه التكوين والفطرة وتمتلئ بالشعر.

من هنا يأتي هذا الحب لهذه الإضمامة من الأسماء المختلفة جداً في مسمياتها. إنها نعوت متعددة لوعي واتاني

بعدما شمرت قاصداً مقاماته سُرى في ليل الحياة ولبنان وفلسطين والخبز والحرية والآخر والمختلف.. إنها أسمائي أيضاً.. بعضها كان لي معه تجربة جزئية خاصة، اقتصرت على سردها، وهي لا تلخصهم ولا تلخصني فيهم، ولكني أعتبرها جزءاً من تعريفي الذاتي أو الشخصي، ولا ألزم أحداً أن تكون معرفتي به، تعريفاً ولو جزئياً له.. هكذا رأيتهم، هكذا حاورتهم وجادلتهم، هكذا قرأتهم..

وهاجسي أن تتحقق فرادتي بهم وما تحقق لي منها يرضيني وإن كان لا يكفيني، رضي من رضي وغضب من غضب ولكن ومع رسول الله ﷺ الجريح عند حائط الطائف حيث ذهب ليدعو فلم يسمعوا، فقال: "لك العتبى حتى ترضى، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي"، هل كشفت ما خفي من المعنى؟ لا أدعي ذلك.

هاني فحص

بيروت في ١١-١١-٢٠١١

القسم الأول

أبو عمار.. الختيار.. ملك التفاصيل

أبو عمار، القائد العام، المناضل العام، الأخ، الوالد.. السيد الرئيس لاحقاً إلخ... كان أليق ألقابه به وأحبه إلى من حوله هو "الختيار" أي الجد حسب المتعارف لدى الشعب الفلسطيني، كأن من هم حوله، وهم كثر، وكأنه بينهم المبارك هو ومن حوله، كما هي القدس التي بارك الله ما حولها، هذا الما حول الذي يمكن أن تكون حدوده حدود الأوطان والشعوب العربية كلها، من دون أن تكون القدس أو أبو عمار محصورين أو منحصرين فيها، على الرغم من الحصار الطويل، حصار القدس وحصار أبي عمار على تخومها في رام الله، ربوة الله، هذا الحصار الذي أصبح في المعنى الحضاري والمستقبلي، وإن طال مداه، حصاراً للمحاصِر وفضاءً للمحاصَر... كأن من حول أبي عمار إذن قد أدركوا أن هذا الرجل، ومبكراً، وفي عز الشباب، قد ارتقى نضالاً وصبراً وحكمة ودأباً وخبرة وذاكرة وحلماً وحباً واستيعاباً وسماحة، إلى مستوى الجد، إلى مستوى الشيخ الكبير، شيخ العشيرة الفلسطينية الديموقراطية التي تتسع

للجميع، فإن شذ عنها شاذ وغادرها، فإنه يصير إلى أشداق الذئب أو الفراغ والندم.

هناك مجال كبير للكتابة السياسية والتاريخية التي يمكن أن تشكل دليلاً علمياً وعملياً على هذه المكانة التي تبوأها ياسر عرفات في رعيله ورهطه وحركته ومنظمته وشعبه، غير أن الكتابة الخاصة، أي كتابة التفاصيل، وفي حدود المتاح، تبقى أشد اقتراباً من أسرار ومظاهر التميز والإبداع في سيرة الرجل، الرجل البسيط، كأنه الماء أو الهواء، بساطة وضرورة حياة، والمركب كأنه الماضي والحاضر والمستقبل، كأنه الوجع والفرح، الوعد والوعيد، الصحو والمطر، الخصم الحبيب والحبيب الخصم، والصابر الذي ترقص شفتاه انفعالاً والمنفعل إلى حد الذهاب فى الصمت البليغ، في مناسبات ومفاصل يحلو، بل يحب فيها الكلام حسب المتعارف في حياة الناس وسلوكهم... تناولنا معه طعام الغداء على شرف وفد إيراني ودعانا إلى حفل تكريم للأسيرين المحررين لتوهما أبو علي مهدي بسيسو ووليم نصار.. ذهبنا ونحن نتوقع أن يكون محور كلامه الغاضب هو ما قام به العقيد القذافي من إقفال مكتب المنظمة في طرابلس الغرب والبدء بتشكيل لجان ثورية من العمال الفلسطينيين المقيمين في ليبيا بديلاً عن المنظمة. وخطب أبو عمار ولم يأتِ على ذكر الموضوع في ختام الحفل، وكنت موجوعاً على فعلة العقيد بنا في لبنان باختطافه للإمام الصدر، ضيفه، فكنت واعداً نفسي بكلام قاسٍ يقوله أبو عمار محقاً ويشفي غليلي.

غير أنه لم يقل شيئاً، وأدرك خيبة أملي، فربت على كتفي، وقال: فلسطين تحتاج صبراً طويلاً وكثيراً، وأنا يهمني حل المشكلة، حتى لا تتحول إلى أمثولة لدى الآخرين، وأنا لا أقيم اعتباراً لأي مضايقة إذا ما طالتني، أما أن تطال القضية فهذا ما يجب أن أتلافاه دائماً.

قبلها.. كنت قد ذهبت بتنسيق معه ومع المرحوم أبي جهاد إلى القاهرة (عام ١٩٧٦) تمهيداً للسفر إلى ليبيا لتحصيل ما تبقى من ثمن التبغ الجنوبي المركون في منازل الفلاحين، بعدما تمنعت شركة حصر التبغ عن شراء المحصول، وحصل خلاف بين الخارجية الليبية والاتحاد الاشتراكي على مستوى السفارة في القاهرة، فلم أستطع السفر، وبقيت في القاهرة شهراً ونصف الشهر حائراً في أمري، لا أستطيع أن أعود إلى المزارعين الذين ينتظرونني، خالي الوفاض... والتقيت في القاهرة المرحوم كمال جنبلاط وشكوت له أمري، فشكا لي أمره عائداً من ليبيا مترعاً بالخيبة.. إلى أن انعقدت القمة في القاهرة ووصل أبو عمار، وعندما رآني سألني ماذا فعلت، ولماذا أنت باقٍ هنا؟ فأخبرته وشكوت له وأظهرت ضيقي وانزعاجي، فعاجلني بالحث على الصبر بنبرة عالية، وقال: لا تشعر بالذل، لو كنت في صدد أمر شخصي لكان من حقك أن تشعر بالذل، أما وأنك بصدد قضية عامة فهي عزك. وكل عذاباتك تصبح مدعاة افتخار.. وأضاف: وهذه هي تجربتي، لقد أعزتني فلسطين وحررتني من الشعور بالذل على الرغم من كل

محاولات الإذلال. . . وحكى لي عن الأوقات التي قضاها على أبواب وزارة الداخلية في العراق طمعاً بلقاء صالح مهدي عماش نائب رئيس الوزراء وزير الداخلية في أوائل عهد أحمد حسن البكر وذكرني بأن أبا جهاد (خليل الوزير) إياه، قضى شطراً من عمره متردداً يومياً على مقر الرئاسة في الجزائر، عله يحظى بلقاء مع الرئيس بن بلة، إلى أن أصبح بعض الموظفين في دار البلدية، مقر الرئيس في العاصمة، وعدد من المراجعين كثيري التردد إلى المكان، يحسبونه موظفاً جزائرياً ويعرضون عليه أموراً وظيفية. . فقررت الاستمرار في عملي واستطعت في النهاية أن أحصل على ثمن ما تبقى من المحصول من مكان آخر، أي أنني استطعت أن استنقذ بعض حق المزارعين الجنوبيين من أموال النفط العربي التي كان قسم منها، القسم التقدمي لا يُصرف إلا على تغذية الحرب والخراب في لبنان، حتى إذا ما دخل لبنان في السلم الأهلي بعد الطائف والبناء انقطع المال التقدمي، واستمر مال الدول التي سميناها رجعية بالوصول من دون استعراض.

فقرة اعتراضية: كما قلت في مقدمة كلامي، لن أخوض في الشأن السياسي، في إشكالية الحرب في لبنان والدور الفلسطيني، ذلك أني ميال منذ زمان إلى النقد المخلص والقاسي لهذه الحرب وكل الأطراف المشاركة فيها، وقد عارضت علناً كلام بعض القيادات الفلسطينية التي حصرت المسألة نقدياً في بعض الأخطاء. . . ولكني لا بد أن أنصف

ياسر عرفات بعض الشيء في حدود ما عرفته وجربته بالشراكة معه أثناء الحرب... زرته في بداية الحرب، في عيتا الفخار، وكانت قد أخذتني بعض لغة الشارع السياسي اللبناني الملتبس بالتقدمية والطائفية، وعلى غير عادتي ولغتي قلت في الحديث معه كلاماً طائفياً فسكت وأردت أن أودعه فاستبقاني ولم أدرِ لماذا؟ حتى جاء وفد من أهل المنطقة فسلم عليهم وسمى بعضهم باسمهم، وهمس في أذني قائلاً: يا شيخنا هؤلاء كلهم مسيحيون وهم ممن اختبرت إخلاصهم لفلسطين في الأيام الصعبة. ولم يزد شيئاً ولكني فهمت كثيراً، وعدت إلى منزلي، وعلى طول الطريق كنت مشغولاً بنزع أشواك الطائفية من جسدي وقلبي وعقلي.

وقد نجحت إلى حد كبير... ومن علامات هذا النجاح أنني وبعض الأصدقاء المستنيرين من أعضاء الأحزاب القومية واليسارية شكلنا لجنة دائمة الانعقاد بالتنسيق مع أبي عمار وأبي جهاد وتشجيع منهما، وكانت مهمة هذه اللجنة متابعة الأحداث وضخ القيم والأفكار الوطنية في مقابلة الكلام الطائفي وأصدرنا مجلة "الوحدة" الأسبوعية لهذا الغرض، وكتبنا بيانات ومقالات وأخذنا تواقيع أعداد كبيرة من ذوي الشأن في سائر الطوائف مطالبين بالسلم الأهلي وإنهاء الحرب وتكرر ذلك مراراً منسجماً مع دور القيادات الروحية (الصدر وخريس وأبو شقرا وخالد) على نفس الخط والاتجاه، وتعدينا في شغلنا هذا الشأن الطائفي إلى الشأن الوطني والقومي. وبالتفاهم الكامل مع أبي عمار توليت حماية

شباب الصاعقة واتحاد قوة الشعب العامل وحركة أمل في الجنوب، وبأوامر مهمة من أبي عمار هربت بعض من كان يحوم حوله الخطر إلى حدود الأمان على أبواب دمشق. وقدموا لي بعض أسلحتهم هدية فتقبلتها أمانة أعدتها اليهم بعد انجلاء الغيمة، وبالتفاهم مع أبي عمار وأبي جهاد كنت أذهب إلى مواقع المقاتلين في جبل الريحان مقابل المواقع السورية للتشديد عليهم بأن لا يتعاملوا مع الجندي السوري كعدو.

وتتويجاً لهذا المنحى والمسعى أصدرنا، أي مجموعة من كوادر فتح ومقدمات الكتيبة الطلابية نشرة أسبوعية سميناها "الفجر" تكفلنا فيها بالصراحة دفاعاً عن العلاقة السورية ـ الفلسطينية واللبنانية، وكدنا أن ننال على ذلك عقوبات قاسية من بعض القيادات الفلسطينية بالإضافة إلى تشهير خطباء الحركة الوطنية بنا. . . وعندما تشكلت الجبهة القومية لـ (حزب البعث ـ الجناح السوري، واتحاد قوى الشعب العامل وحركة أمل) انفتحنا على الجبهة بتشجيع من ابي عمار وأبي جهاد. لتأتي الأحداث من بعد فتثبت صواب هذا الخيار وسلامته.

انتهت إلى هنا الفقرة الاعتراضية، فنعود إلى كلامنا في التفاصيل.

دخلت مكتبه يوماً بعد الظهر فوجدت أعضاء المكتب في وجوم وتوتر. . . فسألتهم ما الأمر؟ قالوا غضب علينا لخطأ كبير، قلت وما الحل؟ قالوا الحل ميسور خصوصاً مع

وجودك وطلبوا مني الانتظار وغادر أحدهم المكتب ليعود بعد قليل مصطحباً طفلاً من أطفال سكان البناية، وطلبوا مني أن أدخله إلى القائد العام، وعندما دخل الطفل تحول القائد العام بسرعة ضوئية إلى ختيار، قبلاً ومداعبة ولعباً طرفاه الطفل والختيار الذي لم يكن بإمكانه أن يكون ختياراً لولا أنه احتفظ بالطفل في صدره، وبعد موجة اللعب فتح جراره وتناول لعبة صغيرة قدمها للطفل وأجلسه على ركبته، يعلمه كيفية تشغيل اللعبة، وشرع في محادثتي ونادى على أحد من المكتب وأمره بالشاي لي.. لم يكن يشرب الشاي إلا صباحاً، خفيفاً وبالعسل، مع الخبز المحمص واللبن الرائب المجفف. وكان السيد حسين عثمان من بعلبك يتعهده بالعسل الصافي، أو قليل الغش.. والويل لمن يحضر مأدبة ابي عمار لأنه سوف يبدأ بتوزيع الطعام الذي يعجبه هو على الجميع ولا بد أن يأكلوا.. ومرة أعجبتني الخضار المسلوقة فانهلت على الوعاء، ولأول مرة قال لي إني مضطر إلى البخل، فهو لم يكن يستطيع أن يستسيغ طعام الغداء خصوصاً من دون تغليب الخضار المسلوقة على سائر الأصناف، ومرة كنت قد زرته في أحد عصاري شهر رمضان، وكان من معزوميه على الإفطار في كيفون العميد وليد سكريه والمرحوم الرائد أمين قاسم مع ابي جهاد.. وأكلنا ما أكلنا حتى امتلأنا، ثم التفت أبو عمار إلى صينية الكفتة بالطحينة الأكلة المحببة عند أهلنا في فلسطين، وكان يحبها، فأخذ يوزع قطعاً منها على الضيوف ويرغمهم على أكلها، وعندما

لاحظت حرج الرائد قاسم، نهضت مسرعاً للخلاص من الكفتة، فرماني بنظرة ممزوجة بابتسامة عارفة.. أعقبها بضحكة.. وضحك الجميع ونجا البقية من دسم الكفتة بالطحينة..

ويوماً دخلت عليه فوجدته منفرداً بأحد قياداته الميدانية. يكيل له الملاحظات القاسية، خفف عندما دخلت وأخبرني بأن الرجل أخل بواجبه الميداني، وأمر بإنزاله إلى السجن، وبعد ثلاثة أيام، كنت أتمشى قريباً من أحد مقرات أبي جهاد خارج بيروت.. وصلت سيارة أبي عمار، نزل وقدم لي رفيقه البطل فلان... نفس الشخص الذي أدخله السجن أمام عيني، ضحكت وقلت له لقد رأيته قبل أيام في المكتب.. انتبه وقال: إذا لم أسامح وأغفر كثيراً من الذنوب أو مظاهر الضعف البشري فلن يبقى معي إلا قليل من القليل.. ثم ذكرني بقول رسول الله (ص) "من كانت هجرته لله ورسوله فهي كذلك ومن كانت هجرته لرزق يقتسمه أو امرأة ينكحها فهي كذلك"، وعقب: يا مولانا المهم طهارة الرسالة والرسول.. الرسول طاهر دائماً، أما نحن فنتعرض للنجاسة دائماً... الأهم طهارة الهدف.. والمسألة تحتاج إلى صبر على العقبات وعلى الثواب معاً.

هذا هو الختيار.. الجد الأكثر تسامحاً مع أحفاده من آبائهم، ومن منا لا يشكو من تسامح أبيه وأمه مع أولاده، ومن من أولادنا لا يشكو من تسامحنا مع أولادهم أحفادنا؟ الختيارية إذن استحقاق من الحب والسعة والاستيعاب

والتساهل وكره المعصية لا العاصي..

العلاقة بإيران

لا أريد أن أمضي في التفاصيل اليومية... لأن غيري قد يكون أكثر قدرة مني على رسم اللوحة بكل ألوانها، أي ألوان أبي عمار، وانتقل إلى تجربة عشتها معه بشكل مميز لكوني معنياً بها أكثر من غيري ولن أطيل في تفاصيل العلاقة المبكرة مع الثورة الإسلامية في إيران وكوادرها وقواعدها في لبنان والخارج ومع قائدها الإمام الخميني (قده) منذ أوائل سنة ١٩٧٤م... حيث دخل على السياق الذي كان قائماً وكان دوري أن أعمقه.. سوف اقتصر على الأيام الأخيرة.. استدعاني ليلة الحادي عشر من شباط، ليلة النصر مضطرباً فرحاً.. وصورة القدس والخميني أمامه... قلت له: تحبها؟ أي القدس، فقال: مرتع طفولتي وشبابي، هي حلمي، ونظر في صورة الإمام وقال: مقدر لها أن لا يحررها عربي، كان كلامه يعبر عن قسوة ومرارة في التجربة، وألح عليّ أن اتصل تلفونياً بطهران.. وبعد ساعة من الجهد اتصلنا واطمأننا وسجلنا أسماء الوزراء الجدد... وألح أن أبلغهم رغم كل المخاطر عن حركة جماعة الموساد في طهران وقادتها وعديدها والجهة التي توجهت اليها. قبل ليلة واحدة كان قد طلب مني أن أجهز نفسي للسفر إلى طهران ففعلت وحجز لي على طائرة أوروبية من دمشق، وسافر هو شخصياً إلى دمشق للقاء تيتو أو فالدهايم إذا لم تخني الذاكرة، فلجأت إلى المرحومين أبي جهاد وسعد صايل لترتيب

سفري.. ومساء ذلك اليوم أبلغاني أن رحلة الطائرة قد ألغيت وبإمكاني الذهاب إلى منزلي..

ولم أذهب، وقضيت بقية السهرة مع أصدقاء في بيروت وانتقلت للنوم في منزل أحد الأصدقاء، وحوالى الثانية ليلاً طُرق الباب فإذا بالأمين فتحي يقول: أبو عمار في انتظارك، في الطريق فهمت أن أبا عمار أرسل في طلبي إلى منزلي في كيفون فلم يجدوني، فأرسل إلى النبطية للبحث عني في جبشيت فلم يجدوني، وأخذ يستدعي أصدقائي الذين يعرفهم من فتح وغيرها ومنهم هاني الحسن الذي أوقظ من نومه لأن فتحي سمع أبا عمار يقول: أريد هاني عندي هنا. وعاد فتحي إلى كيفون ليسأل زوجتي عن البيوت التي أنام فيها في بيروت فأرشدته إلى منزل السيد عبد الحسن الأمين... ودخلت المكتب فاستقبلني بالتساؤل: ماذا أفعل وأنت رجل دين! ماذا فعلت؟ لماذا لم تسافر؟ قلت اسأل سعد صايل وأبا جهاد، قال: هذان لا خبرة لهما في قضايا السفر.. قلت له يا أبا عمار دعني وشأني أنا اشتغل كل شيء وحدي بمفردي.. من كتابة الشعر إلى شراء خضار البيت، قال: تزاود علي! أنا اليوم عملت كذا وكذا واجتمعت بفلان وفلان، وخطت زر بنطالي وكشف لي عن الموقع الذي خاط فيه الزر.. وقال: طيب أنا حجزت لك على طائرة اسكندنافية من دمشق وبقي على موعد إقلاعها نصف ساعة والآن نتصل لتأخير الموعد، فاستعد للسفر.. قلت يا أبا عمار ليل وجليد وأنا وحيد أهلي لماذا هذه المخاطرة؟ وهل أنت بحاجة إلى شهيد آخر؟. قال غلبتني

وطلب لي كوباً من الشاي وأطلق سراح المحجوزين. .

بعد ليلة النصر قرر أبا عمار أن يرسل وفداً للتأييد والتهنئة في طهران فاختار عدداً من القيادات والكوادر ومعهم من تبقى من الجنود الإيرانيين العاملين في القوات الدولية الذين اشتغلنا معهم وسحبناهم في حركة ضد نظام الشاه، ومعهم أيضاً بعض القيادات الإيرانية المقيمة في بيروت، وقررنا أن نصطحب معنا الكاتب بلال الحسن ومحمود درويش، فاقترح محمود أن أتدخل بمصالحة أبي عمار مع أحد الكتاب اللبنانيين المخلصين لحركة فتح والذي خاصمه بسبب هجوم كاسح عليه، على أبي عمار، وجاء الرجل وصفي اللبن.

وبقينا ثلاثة أيام وأبو عمار يلعب بأعصابنا، مصراً على أن نسافر على متن طائرة شحن. . عصر اليوم الثالث قال لي: لا بأس أن تنام في منزلك وتنتظر حتى الصباح، فذهبت إلى كيفون، وبعيد صلاة الفجر طرق فتحي باب بيتي وقال: هات حقيبتك واتبعني. . تبعته وتحركت سيارة الفولفو ستايشن البيضاء نحو دمشق، في جو مثلج قارس. وفي أول الطريق قلت لفتحي والمرافقين: وأين أبو عمار؟ ألا يريد أن يودعنا؟ وكيف نسافر؟ أشار فتحي إلى السائق، كان أبو عمار هو السائق. . فازداد الموقف غموضاً وجمالاً.

غاب أبو عمار عنا ظهر اليوم التالي وعندما عاد دعانا إلى الانتقال إلى مطار دمشق، أبو مازن وحامد أبو ستة وهاني الحسن وجلال فارس وآخرون، وذهب معنا إلى

المطار، ومشى معنا إلى سلم الطائرة، ثم صعد السلم، فقلنا إنه يودعنا بقبلة خاصة، ودخل الطائرة وجلس وربط حزام الأمان، وأخبرنا أنه التقى الرئيس المرحوم حافظ الأسد وودعه وأن هذه الطائرة هي التي يسافر على متنها الرئيس الأسد. فشعرنا بأمان إضافي ونوعي.

عندما دخلنا الأجواء الإيرانية حاصرتنا أربع طائرات فانتوم إيرانية، طلبت التعرف إلى هوية ركاب الطائرة، قال أبو عمار: قولوا وفد فلسطيني رفيع المستوى.. أصروا على معرفة أسماء الوفد، وكانت وجوهنا عرضة للاصفرار، فرفع أبو عمار طرف الفيلد العسكري عن عينيه، كان مصراً على النوم، وقال: ألا تعرفون أن أكثر الطيارين الإيرانيين قد تدربوا في إسرائيل؟ لا تعطوهم الأسماء، وأصر، وطلب منهم الاتصال بالجهات الرسمية في طهران... وجاء الأمر بإخلاء السبيل لنا.. فحيتنا طائرات الفانتوم بتحية معروفة وعادت بعد دقائق لتواكبنا.. كانت تلك مفارقة من مفارقات الثورة الإيرانية ومفارقات أبي عمار التي لا تعد ولا تحصى.

اكتفي بهذا القدر، لعلي أعود ثانية إلى الكتابة عن تفاصيل الرحلة التاريخية في طهران وخراسان والأهواز. أملاً أن يسلم أبو عمار ويقرأ هذا الكلام ويوافق عليه أو يصحح أو يزيد أو ينقص لأن ذاكرته أقوى من ذاكرتنا.. لأنه يصنع الأحداث ونحن نتكلم عنه وعنها، نشجبه أحياناً. ثم نعود إلى وعينا فنرى الحكمة في ما اختار الختيار. الذي يتوهج في تفاصيله، في تناقضاته والجدل العظيم والجميل بين هذه

التناقضات التي تتوحد فيه فيبدع ويحاصر محاصريه مريضاً وصحيحاً. نائماً ومستيقظاً يقظاً في الحالتين.

أبو عمار في طهران
من سيرتي في سيرته
"درود برخميني سلام برعرفات"
(تحية للخميني سلام لعرفات)

سمعناها أول مرة في مطار طهران بعدما حطت الطائرة واستطاع من التقطوا الخبر أن يهرعوا إلى المطار لينضموا إلى كل العاملين فيه، ويزدحم المكان بالوجوه والأيدي والعيون والهتاف والدموع بحيث لم يبقَ من زجاج قاعة الاستقبال شيء على سلامته.. وأينما ذهبنا في طهران كنا نسمع هذا الهتاف صاعداً من القلب إلى القلب، ومن القلوب جميعها إلى التاريخ.. ويحتدم الأمل في وجدان أبي عمار فيرد على بريجنسكي من هناك: "باي باي لمصالح أميركا في بلادنا"، بعدما كان بريجنسكي قال قبل أسابيع: "باي باي لمنظمة التحرير"، وكان قطع الطريق الأول في حرب النظام العراقي وإيران ليستكمل العائق في الاجتياح الإسرائيلي للبنان. وكان اليأس هو الأولى لولا أن تأثيراتها المقاومة في لبنان أثبتت جدواها وامتدت -١٩٨٢- إلى الأرض المحتلة فكانت

الانتفاضة الأولى أم الثانية والثالثة والرابعة والألف إلى أن يستريح بر ويستراح من فاجر إذا ما بقيت الحكمة حاكمة.

أمّا متى؟ فقد كان يحلو لأبي عمار كثيراً أن يكون حكيماً يستمد حكمة من القرآن بواقعية خالية من الأوهام فيردد الآية الكريمة "إنهم يرونه بعيداً، ونراه قريباً". لا موعد مع فلسطين، لكن فلسطين هي الوعد والموعد. مهما تعاظم الوعيد.. هذه المقدمة، وما يليها، تريد أن تتعامل مع الثوابت بصرف النظر عن تمظهراتها التاريخية وتعقيداتها، انطلاقاً من قناعة بأن الثوابت بمستوى القوانين.. وهي التي تحكم في النهاية أي علاقة وأي مسار وأي مآل لصراع المظلوم ضد الظالم وصاحب الحق ضد غاصبه.

كانت الثورة في إيران حارة وطازجة، عندما أتيح لي مرافقة أبي عمار في أول رحلة لأول زعيم عربي إلى طهران. وتحويل السفارة الصهيونية إلى سفارة فلسطينية، تم تغيير اسم الميدان الذي تقع فيه السفارة في وسط المدينة من "ميدان كاخ"، أي القصر، إلى ميدان فلسطين، وكذلك اسم الشارع الذي يمر به ابتداء من شارع الشهيد فاطمي (وزير خارجية مصدق)[1] شمالاً إلى قصر المرمر ومبنى مجلس الشورى ورئاسة الحكومة ومقر رئيس الجمهورية ورئيس مجلس القضاء الأعلى جنوباً، وأصبح اسمه شارع فلسطين، وهو يمر ببولفار إليزابيت سابقاً بولفار كشاورز، أي الفلاح،

(١) الأنباء - كانون الأول ٢٠٠٤ -

بعد الثورة مباشرة. والسفارة التي صارت سفارة فلسطين كانت منزلاً قديماً لأحد الصدور العظام أي رؤساء الحكومة في العقد القاجاري يدعى "قوام السلطنة". وكانت قبل تدشينها الفلسطيني مقراً للمكتب التجاري الإسرائيلي، الذي استخدم مدخلاً للتغلغل في إيران اقتصاداً وسياسة وثقافة وأمناً، وغطاء للعلاقات الدبلوماسية الكاملة التي كان إعلان إنشائها أوائل الستينات سبباً مباشراً لقيام الإمام الخميني بالثورة، والمجزرة التي ارتكبت في قم (المدرسة الفيضية) واعتقال الإمام، الذي اعتبر ذلك خيانة من الشاه بناء على الدستور الإيراني وطالبه بالنزول عن العرش.

كان أوري لوبراني الذي يتقن الفارسية ويتخصص بالشؤون الشيعية، على رأس البعثة التجارية (الأمنية) الصهيونية، وكان معروفاً باسم رمزيّ (مسعود). أكتشف أبو عمار هذه المفارقة قبل نجاح الثورة بقليل وأخبرني بها- وكان مع مسعود جهاز استخبارات مختلط من جنسيات عدة، من إيران وإسرائيل وغيرهما، ولا يقل عديده الأساسي عن سبعين عضواً (كادراً). وقد بقي لوبراني مع جهازه في إيران لأيام بعد انتصار الثورة، واستطاع أبو عمار أن يرصد حركته في اليومين الأخيرين من عمر حكومة بختيار، واكتشف أنه بعد سقوطها توجه إلى الأهواز تمهيداً لترك إيران نهائياً. وكلفني أبو عمار الاتصال بالقيادة الإيرانية وتبليغها الأمر.. واستنفر أبو عمار امتداداته في الخليج ليراقب حركة لوبراني وطريق خروجه.. ولم يصل إلى نتيجة محددة وقتها.. وكان

لا بد من تعيين سفير للسفارة، وقبيل العودة بُلّغ الإيرانيون أن هاني الحسن هو الذي تم اختياره لهذه المهمة. وكنت سمعت همساً من رفيقي الرحلة، أبي مازن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح وحامد أبو ستة، عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة، يدور حولي. وكنت التقيتهما أول مرة في بداية الرحلة في دمشق، وكان الهمس بينهما أني قد أكون الشخص المناسب للسفارة. ودخلت معهما في نقاش طويل عن الأدوار المتنوعة التي لا بد من أن تتناسب مع المواقع المتعددة، وذكرت لهما، تمهيداً لصرفهما عن الفكرة التي كانت أقرب إلى المحبة والعاطفة منها إلى السياسة، أن حديثاً جرى مرة بين عدد من الشباب اللبنانيين المتعاونين مع حركة "فتح"، من موقع العضوية في التنظيم اللبناني الفتحاوي، أو موقع الصداقة أو التحالف أو التفاهم أو التأييد، عن ضرورة أن يتأسس تنظيم لبناني متعاون إلى أبعد الحدود لكنه متميز من الحركة تنظيمياً وبرنامجياً، لضرورة ألا يكون الاندماج استقالة من الشأن الوطني اللبناني، وكلفت شخصياً نقل هذه الأطروحة إلى القيادة نظراً إلى دقة المسألة. لم يواجه أبو عمار هذا التصور بالرفض، وألّف بالتفاهم مع أبي جهاد لجنة من المرحوم جواد أبو الشعر وصخر حبش ومني للتعمق في البحث. وبعد أيام بادرني المرحوم جواد بالنصيحة وبشفافيته وواقعيته المعهودتين قائلاً: ما دام أن أي مجموعة لبنانية منضوية بنسبة أو بأخرى تحت لواء حركة "فتح"، فإن جانبها من طرف سائر الأنظمة العربية يكون مأموناً لأن

مرجعيتها محددة، فإذا ما كان هنالك تنظيم منفصل مدعوم من "فتح"، فإن معنى ذلك أن الأمر سوف يتمدد إلى أقطار أخرى عربية من دون أن تتحمل "فتح" مسؤولية عمله في أي قطر منها، وبذلك يصبح لحركة "فتح" تنظيم ذو شعب قومية تتعدى الإطار والسقف الفلسطينيين، وتدخل في توترات مع السلطات في هذه الأقطار من دون أن تكون "فتح" مسؤولة عنها، وإن كانت ظلها الذي يحتمي بها.

وهذه إشكالية معقدة لا تقوى حركة "فتح" على تحمل تبعاتها.. وعليه، فإن المسؤولية التنظيمية والسياسية لا بد من أن تبقى فتحاوية فلسطينية حصراً.. وإلاّ فالانفصال التام، وهو ذو تعقيدات لا تقل خطورة عن الاستقلالية في الإطار الواحد.. وسألت جواد عمن قال هذا الكلام، فأكد لي أنه كلام متفق عليه بين أبي عمار وأبي جهاد. أصغى أبو مازن وأبو ستة إلى كلامي الطويل وسألاني ما مناسبة هذه الرواية، فقلت إن العاطفة مهما قويت وتعمقت، لا يجوز أن تغير الثوابت الراسخة، لا على المستوى العام ولا على المستوى الفردي. وأكملت مخاطباً أبا مازن بأن دوري هو كقناة تواصل واتصال قبل نجاح الثورة، بينها وبين المقاومة الفلسطينية وحركة "فتح" تحديداً، والذي تم بناء على رغبة إيرانية على علاقات سابقة بدأت في باريس مع عزالدين القلق، وفي برلين مع عبد الله الإفرنجي، وأثمرت في بعض نواحيها توافد عدد محدود من كوادر الثورة الإيرانية (أبوشريف مسؤول عمليات الحرس الثوري لاحقاً، والدكتور عبدالله

والسيد الموسوي، استشهدا في الحرب بين إيران والعراق لاحقاً. . . وغيرهم كثيرون) على لبنان وعلى الجنوب تحديداً ليتدربوا على السلاح، وليختار بعضهم الاستمرار لفترة أو لأخرى، ثم يعودون إلى طهران. . هذا الدور كان مرتبطاً بضرورات لم تعد قائمة، ولم أكن متفهماً لقرار تعيين السيد هاني الحسن فحسب، بل كنت أيضاً متحمساً لاستبعادي، لأن المفترض أن أكون بعد نجاح الثورة في حالة من القرب البعيد أو البعد القريب، وهذا الأمر لم يفت المعنيين به مباشرة، أقصد أبا عمار وهاني الحسن. أمّا الإيرانيون فلم يكونوا في هذا الوارد قط، وخصوصاً أن وزارة الخارجية الأولى بعد الثورة كانت في يد كريم سنجابي، الآتي من الجبهة الوطنية (جبهة ملي إيران). ولم يكن لديَّ قبل الثورة أدنى معرفة به وبالتيار الوطني عامة سوى لقاء عابر مع صادق طباطبائي في زيارة لي لخاله الإمام موسى الصدر، ولقاء أكثر من عابر، سنة ١٩٧٣، مع صادق قطب زاده من حركة تحرير إيران[٢] (نهضت آزادي إيران)، العضو الفاعل في الجبهة الوطنية، والذي كان صريحاً إلى حد التهور، واستأثر حديثه معي وقتاً كبيراً بنقده القاسي لرجال الدين، وأنه غير مرتاح إلى التعاون معهم، ولن يتعاون معهم في المستقبل. وكان ذلك كافياً لدى استحضاره لاحقاً لأتأكد من أن المسألة

(٢) - هنا الجمع بين العام السوري والخاص الفلسطيني السوري هو حسب البلاغيين العرب توكيد للخاص لأنه ذكر مرتين على الطريقة القرآنية في التعبير: "ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن".

في ما يخص السفارة هي أقرب إلى تصوري. . إضافة إلى ذلك فإن المرجع الأعلى لوزارة الخارجية في حكومة بازركان، الأولى بعد الثورة، هو الدكتور إبراهيم يزدي من حركة تحرير إيران (لم يلبث بعد أسابيع قليلة أن أصبح وزيراً للخارجية بدلاً من سنجابي ليحل محله في منصب نائب رئيس الحكومة لشؤون الثورة المرحوم الدكتور مصطفى شمران قبل أن يصبح وزيراً للدفاع بعد اغتيال وزير الدفاع الأول الجنرال قرني).

وفي الأيام الأولى لوصولنا إلى طهران اكتشفت أن الطريق إلى قلب الدكتور يزدي أمامي في منتهى الضيق إن لم يكن مسدوداً، بسبب حساسيته المفرطة تجاه الموضوع الفلسطيني ومنظمة التحرير ورغبته العميقة والشديدة في أن تكون العلاقة بـ "فتح" وأبي عمار والمنظمة محصورة فيه، فلا تتعداه إلى قوى سياسية أُخرى، وبصورة خاصة فريق عمل الإمام الخميني، إضافة إلى حساسية واضحة وتوتر شديد من جانبه ضد جلال الدين فارسي وموقعه القوي في سياق العلاقة التاريخية بحركة "فتح" والتي كنت بوابته إليها وكانت الثقة به في هذا المجال عالية، وإن كان عاد بعد فترة إلى موقف سلبي حاد من أبي عمار عاتبه عليه كثيرون من أصدقائه.

إذاً، كانت علاقتي الحميمة بجلال الدين فارسي مصدر ارتياب من طرف حركة تحرير إيران. وقد تجلى هذا الارتياب بما حدث بعد لجوئي إلى إيران سنة ١٩٨٠، وقبيل الحرب

العراقية ـ الإيرانية بأيام، هرباً من الملاحقة الأمنية العراقية لي في لبنان، وبنصيحة من أبي عمار، حيث مكثت هناك خمسة أشهر كنت أنشط خلالها في مجالات عدة، لأفاجأ بعد أحد المؤتمرات بتحريف كلامي تحريفاً كاملاً في جريدة "إطلاعات" من دون معرفة رئيس مجلس إدارتها، صديقي القديم، السيد محمود دعائي. وقد نُشرت صورتي إلى جانب الكلام المحرف مع تعداد لمجموعة أوصاف سلبية لي، منها أني بعثي عراقي وعميل لصدام حسين، الأمر الذي أثار حفيظة مكتب الإمام والشيخ المنتظري والأصدقاء واقترحوا أن تحميني قوة من الشرطة. فرفضت ذلك، وكان الحل أن أقيم بإحدى قواعد الحرس في طهران مع السيد عباس دوزدوزاني الذي كان قائداً للحرس الثوري وقتها، واكتشفنا أن الدكتور يزدي كان وراء العملية وهو رئيس تحرير الجريدة. . . إلى جانب ذلك فإن الدكتور إبراهيم يزدي شأنه شأن بقية القيادات في حركة تحرير إيران، وإن كان أشد منهم، كان يجاهر بضيقه من حضور رجال الدين في سياق الثورة والدولة واحتمالات المستقبل. وقد همس في أذني كلاماً، لدى جلوسه إلى جانبي في طريق عودتنا بالطائرة من الأهواز إلى طهران برفقة أبي عمار، لم أفهمه تماماً لأني لا أجيد الإنكليزية ولا الفارسية وهو لا يجيد العربية. وعندما نقلت انطباعي عما قاله إلى السيد هاني الحسن، أكد لي أنه تكلم معه بكلام واضح عن رجال الدين، وأن مشكلة إيران المقبلة سوف تكون معهم، وحمّل الفلسطينيين مسؤولية استقواء رجال الدين، من خلال رحلة

أبي عمار، بالجانب الفلسطيني.

واستعمل تعبير "يورملز"، أي ملائيوكم، مخاطباً هاني الحسن... إذاً، فقد أصبح هاني الحسن سفيراً لفلسطين في طهران، وقد استطاع خلال أسابيع أن يبني علاقاته بفريق الإمام الخميني الديني والمدني (رفسنجاني بصورة خاصة) بسرعة وبطريقة فيها كثير من الذكاء والبراغماتية الفلسطينية ذات الحدين. وكانت تجربة احتلال السفارة الأميركية اختباراً لهذين الحدين عندما يعملان معاً، ويرجح الجانب المبدئي المسيطر على وعي فريق الإمام، والذي احتاج إلى مدة طويلة وخسائر كبيرة وصغيرة ليستطيع لاحقاً التوفيق النسبي بين المبدئية والذرائعية، أو بين التكتيك والاستراتيجيا. وعلى طريقته في سياسة "النباريش"، أي تشغيل أكثر من قناة على نهر واحد، كان لدى أبي عمار رغبة في بقائي في طهران من دون حماسة شديدة. فطلب مني أن أبقى إلى جانب هاني الحسن.

ولإدراكي حساسية موقعي كرجل دين شيعي، وتوقعي لتعقيدات آتية في سياق العلاقة الفلسطينية ـ الإيرانية، أي بين المنظمة ودولة الثورة، والتي كان لا بد من أن تختلف عن الماضي، وبناء على إشارات على درجة من الوضوح ظهرت أمامي من خلال ملاحظات إيرانية وملاحظات فلسطينية، تدل إلى حد ما على طابع التعقيدات المتوقعة، قررت ألاّ أقع في الالتباس الذي جعلني فلسطينياً عند الإيرانيين وإيرانياً عند الفلسطينيين، فأخسر الطرفين معاً، وأن أتشبث بموقعي

الوسطي مقلعاً عن دور الوسيط، من دون تنصل من وظيفتي عندما يقتضي الأمر، وهذا ما جرى لاحقاً... أي عدم التنصل في اللحظات الحرجة، من موقع القناة، فعاودت القيام بوظيفتي القديمة مرات عدة، ثم أدركت مدى صعوبتها عندما حملت إلى الإمام الخميني رغبة أبي عمار في التدخل للمصالحة بينه وبين السيد شريعتمداري، وكانت ردة فعل الإمام دهشة عبّر عنها بقوله إن في هذا العرض تبسيطاً شديداً للمسألة... لكن ذلك لم يمنع أن أعاود ذلك في لحظة دقيقة وفي أثناء وجود أبي عمار في تونس، بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢، وتدشين المقاومة في لبنان بدعم إيراني ملحوظ وتعاون فلسطيني ملحوظ، وبفعالية لافتة. فقد تلقى أبو عمار رسالة من الشيخ هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس النواب الإيراني وقتها، يلومه فيها على الخروج من لبنان، ويتساءل عما إذا كان ذلك طلباً للسلامة بناء على رغبة أبي عمار والقيادة الفلسطينية في البقاء في مواقعهم (وفي الرسالة كلام عن جاذبية السجادة الحمراء). وردّ أبو عمار برسالة غاضبة، مؤكداً تقديره للمقاومة في لبنان والدور الإيراني فيها، ومذكراً الشيخ رفسنجاني بأن ما جرى لم يكن ليجري بهذه الكفاءة وهذه السرعة لولا أن المقاومين في الجنوب كانوا في أغلبيتهم الساحقة قد تدربوا على السلاح وشاركوا حركة "فتح" في مواقعها العسكرية... وردّ الشيخ رفسنجاني برسالة أكد فيها هذا الموقع التاريخي الموصوف... ولم تخلُ الرسائل المتبادلة من التعبير عن

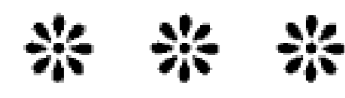
المودة العميقة. وكان دوري تقديم المشورة لأبي عمار بشأن ردوده، من أجل تدوير الزوايا، وهو مسلك مشهور عنده. لذلك لم يكن من الصعب أو المحرج أن ألفت نظره إلى ضرورة التطرية. وقد استجاب لملاحظاتي استجابة شبه كاملة، وأتاح لي أن أعيد صوغ الرسائل بشكل مختلف نوعاً ومضموناً. لقد كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية سبباً في وضع حد لوظيفتي القناتية لمدة طويلة جداً، لتكون العودة إليها محدودة جداً. وكان ذلك متأتياً من التباس في المنظور الإيراني لموقف أبي عمار بالموقف العراقي، بعدما أصر أبو عمار، أثناء رحلته السريعة والخطرة والمعقدة والمثيرة إلى طهران عبر موسكو، ثم أذربيجان فطهران، عن طريق البر، على الخروج من طهران بقرار إيراني بالمصالحة وإنهاء المعركة مُقراً بالعدوان العراقي، متخوفاً من نتائج الاستمرار. وقد قدم للوفد الإيراني المفاوض معه معلومات شبه دقيقة عن الأوضاع السياسية في إيران والتي تحتمل تفجيرات صغيرة وكبيرة تزيد في الإرباك الإيراني وتقلل فرص التوازن في المعركة، فضلاً عن الانتصار... وتطرق في كلامه إلى مسألة مجاهدي خلق ونياتهم، والوضع المعقد في كردستان الإيرانية وفي تبريز... وتكلم عن وضع الجيش الإيراني وضآلة ما تبقى منه تحت السلاح مع الشك في ولاء قياداته. إلى جانب ذلك فإن الحرس الثوري ما زال طري العود، في حين أن النظام العراقي مدعوم بموقف دولي لا يخفف ضغطه على إيران الدور المتذبذب للاتحاد السوفياتي، إضافة إلى

مواقف واستعدادات عربية لدعم العراق الذي يملك جيشاً متكامل العدد والعدة على مركزية شديدة سوف تزيد تمركزاً عندما يشرع النظام العراقي في استخدام أجهزته الأمنية والإعلامية مع الإعلام العربي لرفع درجة التوتر القومي والمذهبي في العراق وخارجه في مواجهة إيران. وأبدى أبو عمار تخوفه من أن يؤدي طول أمد المعركة إلى إشغال إيران نهائياً عن الشأن الفلسطيني فيمنعها من تحقيق ما شرعت في تحقيقه فعلاً من تعويض غياب مصر بعد كامب ديفيد التي كانت إحدى محطات الإعاقة، إضافة إلى الاحتلال السوفياتي لأفغانستان كمحطات حصار لإيران معضود بالحصار الذي فرضته أميركا عليها في كل شيء.. وهنا رد السيد أحمد الخميني على أبي عمار بالموافقة على كثير من جوانب مطالعته للحالة الإيرانية، لكنه تساءل عما إذا كان في إمكان إيران أن تتنازل تحت الضغط العراقي، مرجحاً السلب وأن من أهم النتائج التي ستترتب على ذلك أن يتحول الضعف في المعطيات الإيرانية إلى ضعف بنيوي.. إلى هزيمة لا قيام منها.. وهذا يعني أن الأوضاع الصعبة مع الحرب من الممكن أن تتحول عبر الاستنفار الوطني الشامل إلى مناسبة لبناء كل شيء في إيران، ما عدا العمران الذي سوف يصيبه الخراب، والاقتصاد الذي سيكون اقتصاد حرب لا اقتصاد تنمية كما وعدت الثورة.. لكن الصمود الإيراني والإمكانات الإيرانية ستكون ضمانة نهوض لاحق على قاعدة الاستقلال والسيادة الراسخة وبناء الدولة التي يهددها التنازل أكثر مما تهددها

الحرب، وإن كانت غير متكافئة في البداية.

وأعطى السيد أحمد مثالاً هو عدم التوازن في عوامل القوة العسكرية والاقتصادية والدولية بين إسرائيل والمقاومة الفلسطينية، لكن ذلك لم يمنع هذه المقاومة من أن تستمر، وأن تطرح قضيتها على العالم.. بقي كلا الطرفين على رأيه. فأضيف تعقيد جديد إلى العلاقة، وكان الضغط العربي على ياسر عرفات من أهم أسبابه.. وقد روى لي أنه في القمة التي عُقدت بعد الحرب في المغرب، أو في تونس (لا أتذكر)، تعامل مسؤول عربي من قطر، كان أكثر الأقطار العربية تضرراً من النظام العراقي، بقساوة مع أبي عمار بسبب الود المستمر بينه وبين إيران. واستخدم هذا المسؤول لغة مذهبية في محاولة لِـ "التنمير" على أبي عمار والتحريض عليه عندما قال له مستنكراً: لقد أدمنت الصلاة مأموماً بالإمام الخميني.. وكان أبو عمار عبر علاقاته بأصدقائه من الإيرانيين من ذوي الحرص على التفاهم والوضوح، استدعى مجموعة من أهل المعرفة والسياسة من الإيرانيين إلى القمة لتكون على كثب مما يجري، وتتولى توضيح بعض الغوامض. وكان سبق قبل اندلاع الحرب، وعلى بوابتها وصدور بعض الإشارات من خلال المناوشات التي سبقتها، أن أرسل هاني الحسن والمرحوم سعد صايل لتفادي الحرب.. وكان الرجلان جادين في عملهما وعلى يقين، لم يخفياه، من أن صدام حسين لم يقم بانقلابه على البكر وإلغاء الميثاق القومي مع دمشق إلاّ من أجل شن هذه الحرب.. وفي أثناء القيام بالمهمة بدأت

الحرب، فحزم الرجلان حقائبهما وعادا إلى بيروت بعدما شاهدا طائرات الميغ تقصف مطار مهر آباد في طهران وتمر في طريق عودتها فوق سفارة فلسطين.. وفي الليالي الأولى للحرب سمعت كلاماً كثيراً عن النقص في الجهاز الطبي الإيراني، فتواصلت مع أبي عمار في بيروت لأخذ نصيحته في المساعدة وتواصلت مع الأستاذ طلال سلمان من أجل إنجازها. ولم ننجزها، لأن الإيرانيين استنفروا وضعهم الطبي وسدوا كثيراً من الثغرات.. وأذكر أننا في ليلة من ليالي الجمعة (العطلة الرسمية)، وفي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين مساء، حاولنا الاتصال بالرئيس أبو الحسن بني صدر لنخبره بما وصلنا إليه في مساعينا فوجدناه نائماً!!



عوداً إلى ما قبل ثم إلى البدء.. أذكر أنه بلغ بي الارتياب بالنظام العراقي أشده بعد الأيام الأولى لنجاح الثورة الإيرانية، عندما جمعتني مناسبة بعدد من قيادات حزب البعث العراقي في لبنان، أي التي تشبه القيادات كما اتضح في كثير من المناسبات، حالها في ذلك حال القيادتين القطرية والقومية في بغداد. ودار الحديث بيننا عن إيران فقلت ناصحاً ببراءة غير سياسية إن قيادة الإمام الخميني للثورة والدولة تمثل صمام أمان وضمانة دينية وأخلاقية وسياسية لعلاقات إيران بالعراق في المستقبل، ويحسن أن نغتنم هذه الفرصة. فردوا عليّ بصوت الواحد، أو صدى صوت الواحد، بأن حزبهم حزب علماني (أي والله)، وهو لا يثق بأي قيادة

دينية، لأنها رجعية ومتخلفة، وأنهم يفضلون مجاهدي خلق على تيار الإمام الخميني، وهذا التيار الديني ليس ثابتاً في مستقبل إيران، ودور العراق أن يعجل في نهايته ليؤول الزمام إلى القوى الثورية.. وكنت استشرت أبا عمار في هذه المبادرة فنصحني القيام بها.. وعندما بلّغته النتيجة طلب مني تبليغ الإيرانيين ذلك لأنه قد يكون مقدمة لأمر ما.. وعندما انقلب صدام على البكر قال لي أبو عمار: بدأ المشوار!

في سفرنا الأول قدرت أن أبا عمار فوجئ وهو يراني أصعد سلم الطائرة الأميرية الإماراتية في طريق العودة وقال: ها أنت عائد؟ على ماذا اتفقنا؟ قلت لا بد من التفكير. وهمس السيد محمود عباس في أذني كلاماً فضحكنا.. فالتفت أبو عمار قائلاً: أنت تعمل برأي أم حسن أكثر مما تعمل برأيي؟ فقلت له إن ناظم حكمت يقول: وطني حيث تكون زوجتي، وأنت زوجتك فلسطين ولذا فإنك لن تستقر إلاّ معها وفيها. وحدثت الجميع بما جرى عندما ذهبنا إلى "نوفل لو شاتو" قرب باريس، في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨ ناقلين إلى الإمام وفريق مستشاريه تصورنا واستعدادنا لإقامته بلبنان إذا لم تجدد له فرنسا سمة البقاء فيها، متوقعين أن يكون الانتصار أبعد من موعده الذي تحقق فيه بعد أشهر قليلة.. وبعد يومين من المباحثة، أبدى الإمام ميلاً خفيفاً إلى القبول بالمشروع وقال: أيضاً عليّ استشارة.. فتعجبنا وسألناه: ومن تستشير؟ فلم يتحرج من الجواب قائلاً: زوجتي! وعلق الجميع بأن هذه علامة مضيئة جداً.

كيف يمكن أن يكون رجل الدين حراً في السياسة ما دام التكتيك ضرورياً جداً؟ وفي حالتنا العربية يبقى التكتيك متقدماً أو مقدماً على الاستراتيجيا، إن كان هناك استراتيجيا، أو إلى أن تصبح هناك استراتيجيا قبل يوم القيامة ولو بلحظات!!!

وطرنا على طائرة المرحوم الرئيس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الخاصة، بعدما صرفت الطائرة السورية الخاصة، لا بسبب الفارق النوعي بين الطائرتين- إذ كانت طائرة الرئيس الأسد عادية، بينما طائرة الشيخ زايد تشعرك بأنك في قصر طائر، يجمع إلى أحداث التجهيزات والمفروشات من المنامات إلى المكاتب والحمامات، بيت الشعر الذي يشبه الشعر العربي، لولا أنه مصنوع من مادة أوروبية وبأيد أوروبية.. غير أنه يشبهنا شكلاً والمضمون أمر آخر، لا بد من تأجيله وتأجيل البحث فيه حتى نرى إلام تنتهي العولمة-وإنما كان لا بد من صرف طائرة الرئيس الأسد وطاقمها نظراً إلى إصرار المرحوم الشيخ زايد على أن يمر به السيد عرفات عائداً من طهران ليضعه في صورة الوضع فيها، على خوف ورجاء معاً، تبيناهما في إلحاح الوسيط الذي حضر على الطائرة وحيداً مع طاقمها، وهو ممثل منظمة التحرير في أبو ظبي السيد ربحي عوض. لفتني على الطائرة المزودة بكل أسباب الراحة والزينة أمر ضحكت منه في سري، ولم أبح به، ولو بحت به لتجنبت حرجاً لاحقاً، رأيت عناقيد من العنب الأبيض والأسود على أطباق فتساءلت

في نفسي: وهل من داع للزينة بمواد بلاستيكية على طائرة أميركية؟

وفي اليوم التالي، كان السيد ياسر عرفات في جلسة خاصة في قصر البطين مع الشيخ زايد، وكنا ننتظره في أحد مكاتب القصر كي ندخل ونشارك في الجلسة الموسعة. وكنت على المائدة مع السيد محمود عباس والسيد أحمد خليفة السويدي، وزير الخارجية ومستشار الأمير لاحقاً، ومددت يدي إلى الطبق المماثل لأطباق الفواكه الصناعية على الطائرة، مزيداً عليها حبات من الخوخ الأحمر، ضغطت قليلاً على حبة الخوخ فانفجرت وسال منها ماء طبيعي، فبانت على وجهي علامات الاستغراب والدهشة، فابتسم الرجلان وداريت حرجي.. فواكه صيفية في عز الشتاء، أواخر شباط/ فبراير!!! وعرفت لاحقاً أموراً ومفارقات سلوكية ومعيشية أصبحت معها هذه الحادثة وذلك المشهد العجيب أمراً في منتهى البساطة.

الموجع في الأمر أن السلوكيات الترفيهية الخيالية أو الأسطورية التي رأيتها أو سمعت عنها لاحقاً ممن رأوها، لم تكن تأتي من أهل الثراء الأصلي، وإنما من ثوريين آتين من الطبقة الكادحة، حاملين همومها وطموحها إلى العدل والتقدم. وهكذا أصبح من الصعب عليّ أن أستخدم اصطلاح الحقد الطبقي على فجاجته، لأني وجدت حالة كثيرين من الثوريين أقرب إلى الحسد الطبقي، أي تتمنى زوال (النعمة) الحلال أو الحرام، عن الآخر وحلولها في الرفيق الحسود!!!

انتقلنا إلى مكتب الشيخ زايد، وكنت لا أزال في مضطرَب الإلحاح على تفسير المفارقة في تفصيلات الجمع بين الماضي والحاضر في السلوك العربي، وفي قراءة المنحنى الطبقي في هذه التفصيلات، أي أني كنت آتياً، ولعلي لا أزال، من بساطة عيش وفكر تساوي بين الالتزام الثوري والفقر، أو تجعل الفقر من لوازم الالتزام، من دون توقف عند ما سمي الثورات الوطنية. وألح الماويون العرب في استنباط دروسه اللاطبقوية أو اللااقتصادوية في سبيلهم إلى الإدانة المنهجية للفكر الأورثوذكسي الماركسي السوفياتي.. إذاً، فما على الميسور أو الملي، كي يكون التزامه الثوري صحيحاً، إلاّ أن يسلك مسلك الفقراء.. كما فعل كثيرون من كوادر الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي والتيار التروتسكي في لبنان، من طلاب الجامعتين اليسوعية والأميركية، ومن أعلى السلم في الطبقة البورجوازية اللبنانية، ومن الموارنة خاصة، في إبان المد اليساري الذي أتاح لأبناء الكادحين من برج حمود والدكوانة أن يمارسوا دور الأستاذية على الأسياد في إبان مراهقتهم، ريثما يعودون إلى أحضان أهلهم الناعمة بعد التخرج وضرورات الانسجام مع السياق العائلي.. ليعودوا من بعد وقد رفلوا في نعمة الله، على غاية من اللطف والرهافة، يتذكرون الأيام الخوالي والرفاق الأوائل، كما يتذكر الولد الشقي ارتكابات الطفولة التي كان يحاول من خلالها أن يحقق ذاته بعيداً عن عناية الأهل التي تلتبس بالوصاية.

ولم أستوعب تماماً أن يكون الشيخ زايد بوجهه الذي تقرأ فيه تاريخ الصحراء وكثبانها وهجيرها وسواقيها وعاقولها (شوك) وحنظلها.. وبقيافته التي لم يدخل عليها إلاّ تعديل طفيف في شكل ياقة الجلابية الصقيلة والمنشأة، وكوفيته وعقاله ونعاله، هو الجالس المطمئن في هذا المكتب المشتق شكلاً من أحدث تصاميم الحداثة الغربية، وعلى هذا المقعد الوثير الأبيض الناصع اللامع، والذي تخاف عليه من حبة عرق تتدحرج من جبينك الذي يتعرق لفرط الدهشة، وكأن مكيف الهواء معطل.. بينما هو يشعرك بعبثية الكلام عن التناقض بالجمع بين الشتاء والصيف تحت سقف واحد.. وها هما مجتمعان! واكتملت صورة المفارقة في ذهني عندما أخذ الشيخ زايد يتكلم عن الإمام الخميني كلاماً بسيطاً، عامياً خليجياً، ساعدتني عراقيتي المضافة على استحسانه، ومشوباً أو متخللاً بكلمات فصيحة في حدود الضرورة والإمكان، لا تتعب في تلمس صدقه وعفويته، إلاّ إذا كنت على سابق علم أو تجربة ببواطن الأمور ودهاء البداوة المتحضرة. كان الكلام ودوداً مطمئناً ومطمئناً على مسحة من خوف لا تخفى على الحصيف أو العارف بجذور القلق في هذه الكيانات العربية التي لا تزال تعالج عوارض التأسيس بذاكرة متقطعة وتحديث يبلغ الذروة شكلاً، ويبقى مضمونه عرضة للسؤال.

كانت طائرة الشيخ زايد قد توقفت يوماً كاملاً في مطار "مهر آباد" - معمورة المحبة- في طهران. وأصر السيد ربحي

عوض على ضرورة تلبية الدعوة لطمأنة الشيخ زايد إلى توجهات القيادة الإيرانية المستقبلية، وخصوصاً أن بعض شركائه يظهرون سلبية وشكاً، ويحاولون أن يشككوه في الأمر.. بعد اللقاء بدا كأن الشيخ اطمأن. في مطار طهران كان في وداعنا عدد من المسؤولين الإيرانيين، منهم إبراهيم يزدي والسيد محمود دعائي النائب منذ المجلس الأول، ورئيس مجلس إدارة جريدة "إطلاعات" منذ سنة ١٩٨٠، والذي عُيّن كأول سفير لدى العراق بعد الثورة، وكان مأخوذاً في الاعتبار عند تعيينه أنه كان في أثناء نفي الإمام في العراق أحد الذين تولوا التنسيق مع الدولة العراقية، ولا سيما في المجال الإعلامي، وهذا ما كان علامة على رغبة القيادة الإيرانية في طمأنة الدولة العراقية، وهي علامة التقطها الرئيس العراقي أحمد حسن البكر وعبر عن ارتياحه إليها في لقاء مع أبي عمار لاحقاً. وقد نقل أبو عمار هذا الجو لاحقاً إلى الإيرانيين في حضوري.. لكن التطورات التي حدثت في العراق بعد ذلك، من إلغاء الميثاق القومي الذي عقده البكر مع الرئيس حافظ الأسد إلى إقالة الرئيس البكر وإعدام عشرات القياديين من أصدقائه وفريق عمله والمؤيدين للميثاق القومي باعتباره مدخلاً إلى علاقات عراقية- إيرانية على نصاب عربي بضمان سوري. كل ذلك مهد لحرب عراقية- إيرانية كانت سبباً في كثير من الخيبات والإحباطات. سلّم السيد ربحي عوض على الجميع بلهجة محلية فلسطينية، وعندما وصل إليّ تعمد الفصحى مع ما تيسر من لكنة تقربها

من الفارسية، لغة أخرى (التركية)، على أساس أني فارسي. . ضحكنا وما زلنا نضحك ممن يكسر لغته العربية ويفسدها ليقترب خطأ من قلوب الإيرانيين، فينفرون منه ويشفقون على اللغة العربية مكسرة على لسان أهلها، وهم يعشقونها سليمة مستقيمة ويتبارون فيها. . ويجعلون تعليمها وتعلمها مادة ثابتة في الدستور، لا يمكن تعديلها أو إلغاؤها إلاّ باستفتاء شعبي عام. . وهل يمكن للشعب أن يوافق على أمر ينصب حاجزاً بينه وبين القرآن؟

وحطت الطائرة في مطار دبي، لأن الضباب الكثيف كان مانعاً لها من الهبوط في أبو ظبي ومانعاً أيضاً من السفر براً إليها على الرغم من إصرار السيد عرفات على ذلك.

أدهشتني أسماء الحوانيت ومرائب تعمير العربات في شوارع دبي وأبو ظبي. . وهي أسماء إيرانية مثل "فروشاكاه بندر عباس" و"بنشر شيراز". وعندما لاحظ أحد المسؤولين الإماراتيين دهشتي، وكان الرفاق الباقون يعرفون عن الخليج أكثر مني كثيراً، ويعرفون في ما يعرفون حجم الجوالي الإيرانية في مختلف الإمارات حتى قطر والبحرين مروراً بالكويت. . فقال المسؤول: نحن لو أردنا لما استطعنا معاداة الثورة ولا الدولة، لأن مفاصل حياتنا اليومية هي في أيدي الإيرانيين، من صناعة الخبز إلى بناء البيوت. . وأشار إلى سائقه الإيراني وقال: الراديو في السيارة مفتوح دائماً على الإذاعة الإيرانية، وأكاد أحفظ أناشيد الثورة للتكرار من دون أن يكون لي أدنى معرفة باللغة الفارسية. لم تسلّم جوازات

الوفد إلى سلطات الأمن في مطار دبي، فلم تعرف الأسماء المجهولة مثل اسمي، فظن ضباط الأمن الإماراتيون أني إيراني، وهمس بعضهم في أذن بعض بأني قد أكون السيد أحمد، نجل الإمام الخميني، وأن الإمام ربما يكون أرسلني لتطمين المسؤولين إلى مستقبل العلاقة، فأحاطوني بعناية فائقة، دفعت ثمنها منعاً لأحد من مقابلتي ومن إيقاظي صباحاً لتناول الطعام والتوجه إلى المطار.. إلى أن وصل الوفد إلى المطار وافتقدني أبو عمار واتصل بالفندق طالباً نقلي. فنقلني سائق تكسي هندي- المسكين- منىَّ نفسه بأجر وافر.. لكني كنت خالي الوفاض من أي نقد، وفي عجلة من أمري، لأن الوفد أصبح في الطائرة التي كانت على أهبة التحرك. فحييته بلطف منصرفاً فرد بالصراخ وظل واقفاً.

وعندما ترجلت من السيارة لوحوا لي بأن عَجِّلْ، فنسيت أن أنبه أحداً من المودعين لنفحه أجرته، وولجت الطائرة وهو يقوم بحركات غاضبة.. وللمناسبة لا أذكر أني عدت مرة من طهران ملياً.. ويذكر لي الإيرانيون هذه المأثرة، وأحياناً يبدون، إلى جانب احترامهم لي على ذلك، تعجباً.. إلى أن أصبح الأمر بالإصرار عادياً.

عندما يعاتبني من أحبهم ويحبونني على زهدي المخلوط بالجهل بطرق التحصيل عندما تحتدم الرغبة باليسر والتيسير على الذات والأهل. ويقارنونني بمن لا أرضى أن أقرن بهم. أؤكد لهم أني عندما ذهبت إلى النجف طلباً للعلم لم يكن ببالي ثروة ووظيفة. وهذا لا يعني أنني لا أحب

المال، بل أحبه حباً جماً، لكني بحثت طويلاً عن طريق حلال لثروة تتسع للتوسعة والزيادة على الضروري وبعض الكمالي، فلم أجد.. والدين كالثورة أو القضايا الكبرى، أو أن الثورة والقضايا الكبرى هي دين أصلاً وعمادها إذن هو التقوى.. ثم ألا يكفيكم؟ أقول لأولادي إنكم إذا جاء ذكري لم تنكسوا رؤوسكم، حتى لو كان من يذكرني من خصومي!!!

لقد كان جزء من دعاء الإمام زين العابدين أقرب من غيره إلى وجداني وقلبي نظراً إلى أنه يتصل بما يبتلى به أمثالي من مضايقات ومغريات، يقول عليه السلام: "اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وصُن وجهي باليسار ولا تبتذل جاهي بالإقتار، فأستعطي شرار خلقك وأستشفع بك إلى غيرك، فأبتلى بمدح من أعطاني وذم من منعني وأنت من ورائهم جميعاً وليّ الإعطاء والمنع".

عدنا إلى بيروت عن طريق دمشق وما زلنا نذهب إليها ونعود منها عبر طريق دمشق، التي قد تقطع علينا أو نقطع عليها إلى حين ثم نعود ونعود، وخصوصاً إذا اكتشفنا طول وصعوبة ووعورة التفافات ومنعطفات ومطبات الطرق الأخرى وعادت دمشق فاكتشفت اكتمالها بنا على شرط المساواة أو التساوي الذي يضمن الشراكة.. والطريق إلى طهران عبر دمشق تمر بسماء العراق، وإذا ما كان الوضع العراقي مانعاً، منذ مغامرة أو مقامرة العراق في الكويت، فإن الطائرة التي تتنكب سماء العراق تحاذيها، وعندما تدخل في المثلث

التركي- الإيراني- العراقي تستطيع أن تفتح مخيالك على العراق وتمد يدك من نافذة الطائرة فتلمس بأناملك أو أشفار عينيك أو شغاف قلبك رذاذاً عراقياً، وتحمل الغيمة سلاماً إلى خيمة على الفرات، في الطف، أو في ظهر الكوفة، حيث يعسوب الدين وقائد الغر المحجلين، علي، ينتظرك على مفرق العدل والوحدة والتوحيد والعلم والفصاحة ونهج البلاغة.. ويغريك لون الرطب فتثبت في صدرك نخلة، سعّفُها يظلل مشحوفاً يمخر شط العرب، وجذورها تمسك ضفة دجلة عن الانهيار.. وتصبر.. تشتاق وتصبر.. وتذهب إلى طوس، إلى مشهد، تسلم على الرضا وترسل معه سلاماً إلى الحسين.

بعد عودتي كتبت أدباً سياسياً عن الرحلة نُشر على ثلاث حلقات في جريدة "السفير"، تحت عنوان: "ذاهب إلى طهران، خذني معك إلى القدس". ما زلت على ذلك، لكني غير مستعجل، وتحرير الجنوب كان دليلاً على أن الأحلام يمكن أن تصبح توقعاً وواقعاً، وليس قَدَر الحلم العربي أن يتحول دائماً إلى كابوس على أن نحسن استكمال الجهاد الأصغر بالجهاد الأكبر.

وشرعت في تجميع الوثائق والصور لأعد كتاباً عن الرحلة وما سبقها أرخت فيها للثورة وعلاقاتها العربية واللبنانية والفلسطينية، ونقلت انطباعاتي عن طهران وشعارها العظيم "إمروز إيران فرداً فلسطين" (اليوم إيران وغداً فلسطين).. وهتافها "إسرائيل نابودست فلسطين بيروزست"

(إسرائيل زائلة فلسطين منتصرة)، وفصلت كثيراً في المشهد الذي رأيناه حولنا في مشهد الإمام الرضا في مدينة مشهد، وفي مدينة الأهواز، حيث اجتمع الجميع، فرساً وعرباً، يتنسمون رائحة فلسطين، ويعقدون العزم على التحرير.. وكانت صور جمال عبد الناصر تلوح بين الأيدي وفوق الرؤوس المحتشدة، مجلواً عنها الغبار العتيق الذي تراكم عليها طوال فترة إخفائها في عهد الشاه، لأن جمال عبد الناصر كان جرماً يعاقب عليه نظام الشاه، فكان ذلك أدعى إلى تعلق الشعب الإيراني بجمال ومصر وفلسطين وأبي عمار.. سألني كم عدد المجتمعين في صحن الإمام الرضا (ع) في مشهد يستمعون إلى خطابه؟ قلت: مئتي ألف، قال: أنت شاعر لا تعرف الأعداد. هؤلاء نصف مليون.. كانت إذاعة مشهد قد أذاعت ليلاً أن ياسر عرفات غادر مشهد وسيستمعون إلى خطابه المسجل غداً من الإذاعة، ومع ذلك كان الذين حضروا بهذه الكثرة والكاثرة، جلسوا من الصباح على بساط من الثلج تحت النفناف الأبيض الغزير حتى الظهر.. تماماً كما اجتمعوا حول عرفات عندما حوصر. وكما انهمر- الفلسطينيون- على المقاطعة بعد وفاته.. وكما كان مقدراً لعدد من العواصم العربية أن تغص بأهلها المودعين لأبي عمار لولا أنهم منعوا.. وفي الأهواز لم تحضرني إلاّ تعليمة خبير سألته عن حركة الكهرباء في الأماكن البعيدة فقال لي إن الضوء هو ذبذبات تراها من قريب متصلة وتراها من بعيد شبه منفصلة، ومن الاتصال والانفصال

يأتي الضوء والرؤية.. كانت حركة الأيدي في استاد الأهواز تضيء كأنها كهرباء في كربلاء، أو رام الله.. وأبو عمار في الوصل والفصل، في الموت والحياة، تيار كهربائي لا ينقطع إلاّ إذا كفت الزيتونة المباركة في القدس عن إبداع الزيت الذي يضيء ولو لم تمسسه نار.

الاستثناء
كمال جنبلاط

يقع كمال جنبلاط في الاستثناء، فلا تستطيع أن تقيّمه منه لأنه مقيّم فيه، ويقع الاستثناء على كمال جنبلاط فلا تستطيع أن تنزعه عنه لأنه قائم فيه. والاستثناء إن لم يبلغ النبوّة بالوحي المباشر فإنه يتوتر، لا يهدأ، يضحك فيبكي ويُبكي، ويبكي فيضحك فيُبكي، يذهب في الحزن إلى آخر الليل فيغتسل بنور الصباح، ويذهب في الفرح إلى آخر النهار فيلتحف السماء، يبني ويهدم ثم يبحث بين الركام عن وسادة لينام ولا ينام، ينام عن النوم وينام النوم عنه، وتستبد به الصحوة فيبلغ آخر المعنى.. معنى المعنى..

من هنا يلتبس الاستثناء العبقري. كمال جنبلاط، بالجنون العظيم، جنون المعرفة إذ تتّحد بالعارف، وهو يتردّد ليل نهار، في السياسة والأدب والفلسفة والحكمة والعرفان والحياة، بين النبوة المستحيلة فلا يصل، وعندما يصبح على يقين باستحالة الوصول يكون قد وصل فيهم بالإقلاع ثانية إلى صقع معرفي آخر وهكذا دواليك، إلى ذروة الجنون ولا

يصل "وما صاحبكم بمجنون" وهكذا يحيا الاستثناء مريضاً ممرضاً بالعقل طالباً شفاءه في الوصلة الحميمة، الجدلية، مع العقول.. مع الأول والثاني حتى العاشر، ومن كانت هذه حاله، صحّ لنا أن نعتبر ميلاده بمنزلة الخطوة الأولى أو الأخيرة نحو السجن، سجن المادة والجثمان والبدن، أو السياسة بمعناها الحَرفي والحِرفي، كيف يتحرّر إذن من سجنه إن لم يرخ عينيه في صدره ويستغرق أو يَغرَق أو يُغرِق في النور الباطن؟.

حتى إذا ما هدأت عيناه وقرتا بنور الحقيقة رفعهما ذابلتين إلى حيطان الزنزانة، ولكن الحيطان تكون قد تداعت وأمّحت، فيرى ولا يُرى، ولا يكذب الفؤاد ما رأى "أفتمارونه على ما يرى" يرى إلى الفضاء الأرحب والمضمار اللاحب والمدى الأبعد، يرى المشهد وسر المشهد، يرى الظاهر والباطن، يرى الباطن في الظاهر والظاهر في الباطن "إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" يحتدم الجسد بروحه وتحتمل الروح جسدها ترفعه إلى مصاف التجلي وآفاق الرؤية..

يا لنفس كمال جنبلاط إذا أيقن من أول وهلة أنه يسير في جمع من العميان! ويذهب الجسد والروح معاً في كنف كمال جنبلاط، يذهب الاثنان المتماريان كل في الآخر، واحداً إلى الواحد عبر المتعدد في محتويات الكون والإنسان ومشتقاتها الجميلة المؤتلفة على وحدة وتوحيد ينظم ويحفظ " فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين" وإذا ما كان ميلاد

كمال جنبلاط هو بداية العدّ العكسي إلى موعد وفاته، فإن وفاته هي اكتمال الحرية التي ينشدها، هي تجلّيه الأخير، لتكون بعده بداية أخرى في عالم آخر يأخذ فيه الآخر معنى آخر، يصبح الآخر من معنى الذات، بل معنى الذات، وتصبح الذات معنى الآخر، والمعنى عناء ومعاينة وعناية، فكيف إذا ما كانت الوفاة قتلاً في جبل وفي عزّ الروح والجسد!. إذن: ومن القيد بالمولد إلى العتق بالموت.. وإذن: لماذا ندفنه فينا، وهو قائم ليل نهار يصلي ويتواصل ويصل ويتلفت يمنة ويسرة ليسأل عنا؟ وعندما لا يجدنا، أو يجدنا نياماً عن الحقيقة، يستعيض عنا بموجودات تواكبه وتخاطبه، من الرعد إلى البرق إلى السحاب إلى الورد، ويراها في الله الواحد ويرى الواحد فيها، ويبحث عن إنسانه المنشود العتيد، عن ذاته في الآخر، أي عن الآخر في ذاته، أي عن التحقق الأسمى في الغيب وفي العيان.

يقول كمال جنبلاط في شعره "أهازيج العود تبكي في فراغ قلبي.. ثم يطويها ظلام الصمت.. إلى أن يعود ذلك الوميض، من لهب قداح الغيوم.. وقد عبأتها قدرة الأساطير.. وأطلقتها خيوط من نار ونور.. تصل الأرض بالسماء.. تصل السحاب بالسحاب"، ويقول "وأروع الموسيقى هي التي تردّنا إلى طبيعتنا الحقيقية، تدلنا إلى الوعي بالسماع، عن أحدية الوجود ووحدة سعادته في وجوده"، إني لأرجو من المهمومين بكمال جنبلاط سياسياً أن يقرأوه في أدبه وشعره أولاً، حرام علينا أن نبقي إبداعاته ممرات لمام..

حتى في نصّه السياسي والفلسفي والتاريخي، لا يمكن أن نتبين خصوصيته وجماليته وامتيازه إلا في علاقته الجدلية الحميمة باللغة، وفي حساسيته اللغوية المفرطة، والتي تتيح له بلوغاً دائماً لمكمن السرّ في معادلة الوجود والحياة والتوحيد والمعرفة والعرفان والعمل، ومن هنا فإن نصّه السياسي أو الفلسفي هو نصّ إبداعي أيضاً أو أولاً، لأنه لا ينسى ذاته عندما يباشر الوعي المفارق، وعي الواقع، لأنه يباشر وهو يعاقر اللغة والحقيقة، يصل إلى حافة السكر عندما يعرف، لا يسكر، يزهو ويزدهي ويزهر ويُسكرنا.

شواهد منه "ولا يقوم وطن على حافتي جسر وعلى فاصل وعلى ممر" عبّارة "الجسر موضع لتلاقي بلدين وقوميتين وشعبين، ولا يشكل قاعدة مكانية وزمنية لدولة ولأمة.. ولا يُبنى بيت الجماعة على قارعة الطريق العامة"، ومنه "وهنا يتجلى الدور الرفيع الذي يستطيع لبنان - في ملتقى شقيّه المحمدي والنصراني - أن يلعبه، قبل فوات الأوان، في تيار العروبة ذاتها وتطورها"، ومنه "إن مركب النقص في الشرق تورط بعيداً في القومية بسبب الشعور بالحرمان والاستصغار الذي يحسّ الشرق أنه مسؤول عنه وعلى إثر التقهقر والجمود الذي تميز به عهد الانحطاط في الشرق عدة قرون".

ومنه "وإنما الحزبية طريق لنا في سبيل تحقيق ذاتنا الأصلية، فإذا بطل الحزب أن يكون لكل منا طريقاً، تحوّلت الطريق إلى ضحية وإذا بنا نحن "عباد" هذا "الصنم".

ومنه "فهل ستفتح أمامنا - إذا أردنا ذلك جميعاً - مجاراة مياه الأعماق الزاخرة بمشيئة الحياة وثروة وجوديتها وصيرورتها؟ أم هل سنبقى ندور حول أنفسنا الضيقة في بوار يجذبه ويتبعه بوار، كالكلب الذي يدور حول جسده ليعضّ رأس ذيله؟".

أيها الأحبة المحتفون سنوياً بكمال جنبلاط لا تقتلوه حبّاً.. تعالوا نقرأه لأن قابلية الحياة والإحياء فيه عالية، تعالوا نضف اليه بدل أن نستهلكه، تعالوا نستقبله كماضٍ لا يمضي لأنه مشبوك بالمستقبل.

خصيصة هذا الرجل، انه وإن لم يكن يستصغر شأن لبنان، فإنه كان في تكوينه الفكري والإنساني وأشواقه ملزماً ملتزماً بعبور حدود لبنان ليعود إليه ويعود منه.. وهكذا دواليك إلى أن يموت به ومنه وفيه.. والمهم أن لا يموت فينا كمال جنبلاط ولا يموت بنا لبنان.. ويعيش كمال جنبلاط بنا وفينا عندما نتعامل مع مثالنا الذي هو وراءنا فيه من أجل إبداع مثالنا الذي لا بد أن ينهض أمامنا لننهض. وعندما نحرره من الاختزال والمصادرة والتحجيم، عندما نقرأه بأناة وصبر وبصيرة، قراءة مودّة ونقد لأنهما ضروريان للوفاء له، لاستيعابه وتجاوزه، هذا التجاوز الذي كان يحبه ويتطلع اليه ويريده لأنه كان يراهن على الآتي.. على الأجيال التي تجدّدنا معرفة وعملاً.

كمال جنبلاط: الوسطي في السياسات

أما وأني ارتقيت مرتقاه الصعب مرغماً راضياً معاً، فأقول: إن في كلام أهل الكلام كلاماً عن العجز في القادر والعجز في المقدور، مع كمال جنبلاط، حيث يتوحد المتعدد ويتكثر الواحد، أراني عرضة للعجزين، فأنا لست بقادر، لأني ما قدرت أني سأدعى يوماً إلى وليمة جنبلاطية يمتد سماطها بين الدين والدنيا، بين الأرض والسماء، بين الغيب والشهادة، بين الحلم والذاكرة، بين المطلق والمقيد، بين أعماق الروح وبراري الجسد، بين وطن يسكن مواطنه ومواطن يبدع وطنه، بين العروبة انتماء مبرءاً من الأوهام واللبنانية مشروعاً مفتوحاً على الإنجاز والكونية الإنسانية ضابطاً غائياً للمشاعر والأحلام والأفكار والقيم، بين فلسطين الغابرة الموغلة في الماضي، الغابرة الموغلة في المستقبل، حتى لتكاد تبدو وكأنها الماضي الذي نستقبله أو المستقبل الذي نستذكره، أو كأنها المكان الثقافي الذي يعرّفنا حضارياً عندما نعرّفه وعيا أو نعيه وعداً بالفعل الجميل والدم الأجمل. وبينها... بين فلسطين الواعدة الموعودة ولبنان المرتجى الذي

تنهض سلامته شرطاً من شروط التحرير وينهض التحرير شرطاً من شروط نهوضه وسلامته ورسالته.

الى ذلك، فإن العجز في المقدور أبين من عجز القادر هنا... فأنى لك مهما بلغت من الإلمام بمستويات فكره المتعددة المتسامتة المتعادلة، على نسق هارموني، أن تحيط في عجالة بألوان طيفه القزحي الذي يزداد عنك بعداً كلما ازددت منه قرباً.

في إحدى محاضراته في أواسط الستينات، يقرأ كمال جنبلاط التاريخ في الجغرافيا والمواطن في الوطن والأرض في أهلها والمكان في المكين، يقرأ تعدد لبنان ووحدته في تضاريسه الجغرافيه وفصوله وأحواله المناخية، فيرى التعدد في الجماعات والحساسيات والمشارب والأشواق والذكريات مائزاً لبنانياً لمعنى لبنان ودوره.

ومبكراً، في أواسط الخمسينات، يكتب كمال جنبلاط عن البيئة مستكشفاً الشروط الإنسانية والروحية للجمال والعافية والسلامة البيئية، قالباً المعادلة التي وضعت الإنسان في مقابل الطبيعة إلى معادلة التكامل بين الإنسان والطبيعة على مقتضى الروح، روح التوحيد ومعادله الموضوعي في الوحدة المتحدرة من ذاكرة توحيدية تستحضر المتحول الفرعوني وتنتهي إلى آية التوحيد (قل هو الله أحد الله الصمد) وآية الوحدة "وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون" حيث يتفق المفسرون على أن المقصود بالأمة هو النوع الإنساني... والى آية التشارط المتبادل بين الوحدة

والتنوع "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا".

في مناقشة للبيان الوزاري لحكومة تقي الدين الصلح ٨/ ٧/ ١٩٧٣ يقول جنبلاط "فأرجو أن تحدث وزارة خاصة لحماية البيئة، أي في النهاية لحماية الإنسان... إن تجارب العالم المتقدم، تحذر وتنير في طريقه تجنب ضريبة التقدم سواء أكانت اجتماعية أو نفسية، كالتفتت في البنيان الوطني والأخلاقي، أم كانت طبيعية كتلوث البيئة وتشويه وجه البلد وهوائه وغذائه وشرابه" أليس هذا من معنى أن يكون كمال جنبلاط في الموحدين ومنهم؟

وإذا ما شئت أن تذهب معه على هذا المنحى في مخفياته الذاتية، فإنك لا بد أن تبلغ مقام الحيرة، فلا تدري أأنت في ليل أم في نهار، على أن الليل والنهار، كما في التنزيل، آيتان من آيات الله، متعددتان على سياق توحيدي، وعلى ثنائيتهما واتصالهما يترتب الزمان والشعور به، وإلا أصبح الوجود في مستوى الوعي به سديماً من دون أبعاد، وهنا تصبح الذاكرة شرطاً للرؤية والحلم ويصبح الحلم والرؤية شرطاً للذاكرة. وفي كمال جنبلاط يرتفع هذا الشرط فعلياً، إلى مستوى الحقيقة الساطعة، ولعله، من هنا، يأتي هذا التجاوز أو التعاقب أو التآلف بين الأضداد والنقائض أحياناً، بين اليقين الموصول بالغيب والشك المتفرع على الشهود، ومن هنا بالذات يتحد فيه العالم الذي يعالج القوانين والسنن والكليات، بالمثقف المدجج بالشك والأسئلة، لا

يستقر على حال لأنه قار على نسبية الحقيقة وتركيبها، وبين السياسي الذي يرصد التفاصيل والجزئيات، ويتحول، إذا لم يكن بانياً على نهج وغاية مشروعة وقراءة متعددة للواقعة الواحدة، يتحول إلى ألعوبة أو ألعبان.

وفي السياسي النقال النقاد المتغير على موجب الثابت المبدئي والمنهجي نرى مسلك وليد جنبلاط موصولاً بمسلك كمال جنبلاط، وهذا يدخل في نظام المورثات الحميدة، وإلا، فإذا ما تحولت السياسة إلى إيديولوجيا، اصبح الحزب وحتى الوطن وثناً، وأصبحت الحركة سكوناً وأصبح البشر حجارة أو خشباً.

أليست هذه هي إشكالية كمال جنبلاط؟ الذي فاض عن الجبل وعن آل معروف وعن لبنان وعن العرب؟ وتحول معه متحده الاجتماعي والحزبي والسياسي إلى مرقب كوني، فتعدى برؤيته الخاص إلى العام من دون أن يتخطى خصوصياته، حتى بات عبئاً من الأعباء؟ فاحتمل حاله وتحمل عنا ليحملنا عبء لبنان من دون أن يكون لأي منا كاهله اللائق بالحمل والمحمول. إذاً، فما علينا إلا أن نشد الكاهل إلى الكاهل لنحمل عبء لبنان كما حمله كمال جنبلاط، شرط أن يكون ماضينا فيه هو ما نستقبله منه، ولن نستقبله بما يليق إلا إذا أضفنا إليه، إذا ما كان ماضينا فيه هو ما نصنعه أيضاً لا ما يصنعنا فقط. نضيف إليه ولا نعيش عليه.

لعل الانعطافات في الرؤية والمسلك والخطاب التي يجترحها وليد جنبلاط دليل على أن التجديد موصول بالتقليد

وأن التغيير ضمان للثبات والأصالة وأن التسوية هي المعادل الحضاري للموقف المبدئي، على أساس ضرورة مراعاة المتغير في الزمان وأهله، من دون قطيعة ومن دون ماضوية قاطعة.. شرط عدم المبالغة وخلط أخصّ الخصوصيات بأعمّ العموميات تعسفاً.

وكمال جنبلاط، موحد توحيدي بامتياز، يقرأ الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة، وفي ثقافتنا التوحيدية أن العدل هو تمام التوحيد، به يكون، أو لا يكون. من هنا لم يكن انحياز كمال جنبلاط لفلسطين والشعب الفلسطيني بدعاً في مواقفه، فهو موصول بانحيازه إلى الفقراء والمهمشين والطامحين إلى العدالة والمساواة، موصول بانحيازه إلى الحرية كشرط إنساني. فهل من مميز لكمال جنبلاط في نصابه الفلسطيني؟

لعل ما يميزه هي تلك الوسطية في رؤيته الفلسطينية التي جعلته يطل على الأطراف فيرى الحقائق المختلفة في نصاب جامع، وبهذا افترق عن محيطه اليساري اللبناني والفلسطيني والعربي.

ومن تجليات هذه الوسطية في نصوصه قوله عن الحرب في لبنان: "كانت الحرب الأهلية ستنفجر حتى لو لم يوجد الفلسطينيون، فقد سلف عام ١٩٥٨ أن كان لبنان مسرحاً لمواجهات دموية من دون أن يحتاج إلى مثل هذه الذريعة" ولكن إثباته لهذه الحقيقة لم يمنعه أن يرى وجهها الآخر، أي أنه مال كذلك إلى فهم الآخر، الخصم "والحقيقة هي أن الفلسطينيين الذين ارتفع عددهم من ١١٠,٠٠٠ عام ٤٨ إلى

٤٠٠,٠٠٠ عام ٧٥ أخافوا الموازنة".

وفي مناقشته للبيان الوزاري لحكومة رشيد الصلح عام ١٩٧٤ حاول أن يضع المسؤولية على عاتق أهلها في هذا الأمر، كاشفاً مفارقة تبلورت علاماتها في المتحول العدواني بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ قال: "عندما يتحدثون عن الفلسطينيين وعددهم في لبنان، أريد أن أذكر يوم كان بالإمكان تحديد دخول هذا العدد في العهد الاستقلالي الأول، وخرجوا لاجئين ليس لهم متاع ولا شيء بعد مذابح دير ياسين وغيرها فرفض بشارة الخوري آنذاك إلا أن يستقبل الجميع".

وفي ذروة انحيازه واندفاعه إلى حماية الشعب والقضية والمقاومة لم يتنصل من وظيفته الوطنية والقومية في النقد فقال: "لو لم يكن هذا القدر من المخالفات وخرق القانون لما شاهدنا مثل ذلك الهيجان ضد الفلسطينيين".

أما الدور اللبناني في علاج هذا الواقع الذي لم يُعالج فيقول عنه: "فلا بد للنظام من أن يقوم لدى اللبنانيين أولاً، لكي ينشأ محيط يجبر الفلسطينيين على الانضباط. ثم إنه كان على هؤلاء أن يوكلوا إلى جيش التحرير الفلسطيني المقيم في لبنان حفظ الأمن في المخيمات وليس إلى ميليشيات غير متلاحمة بل وفي كثير الأحيان متنافسة في ما بينها".

وكأنه يقرأ ما انتهى إليه الحال بفضل الانتفاضة وعودة الوعي إلى بعض الأطراف اللبنانية حين يقول: "ولا ريب في أن العلاقات الشاذة المنحرفة القائمة بين الفلسطينيين

والموازنة ستتعافى". وعلى مقربة من التنصل العربي من مقررات القمم السابقة في دعم الانتفاضة نذكر له قوله: "والفلسطينيون ليسوا إلا ضحايا حكام العرب إخوانهم في المواطنية، ومع ذلك، لو دفع مبلغ ٨ أو ١٠ مليارات إلى مصر أو سوريا من عائدات النفط على مدى ثلاث سنوات متتالية لأمكن تحرير إسرائيلَيْن لا إسرائيل واحدة، وهذا المبلغ يعتبر زهيداً بالنسبة إلى بارونات القرن العشرين الجديد".

وفي تصوره للحل يبلغ من الواقعية والعقلانية درجة تفاجئ من يقيمون أنفسهم أوصياء على الشعب والقضية من موقع الحب القاتل. يقول: "أما بالنسبة إلى الفلسطينيين فإن أسرع ما يحتاجون إليه هو أن يتفاهموا، أي أن يحددوا غاية مشتركة لمعركتهم وأن يضعوا خطة عمل للمدى القصير، ويبدو أن في وسع مختلف الفلسطينيين الاتفاق على حل تكتيكي يرمي إلى التطبيق الكامل لقرارات الأمم المتحدة لعام ١٩٤٧ أي عودة ١,٢٠٠,٠٠٠ فلسطيني إلى إسرائيل مع ممارسة كامل حقوقهم السياسية كسائر المواطنين، وكذلك إقامة دولة فلسطينية، ولكن على أساس خطة تقسيم الأمم المتحدة لعام ١٩٤٧. وتلك ايضاً هي فكرة الرئيس الحبيب بورقيبة وأعتقد أنها تشكل برنامجاً حكيماً وواقعياً براغماتياً". وأمام التمايز الأوروبي المؤثر والفاعل الذي نشاهده في هذه اللحظة نستعيد كلام كمال جنبلاط "لا بد من إدخال أوروبا إلى المشرق وينبغي لها أن تعاود الاهتمام أكثر فأكثر في

شؤوننا لكي تتيح لنا أن نصبح أكثر حرية إزاء إسرائيل وإزاء الكتلتين ومن شأن ذلك أن يجعل الوضع العالمي اكثر تعافياً".

لأنه كان نادهاً كادحاً نحو المطلق رأى، وعندما رأى دار بما رأى نسبياً ناشداً سلامة في اعتدال الرؤية قال: "ومن أجل إنجاح قضية قومية فإنه لا بدّ من تشكيل أعرض جبهة ممكنة، فلكل آراؤه، ولكن يبدو في النهاية أن ليس في وسع الشعب الفلسطيني التسلي بالمناداة بالشيوعية أو بالاشتراكية منذ الآن، لأن الفلسطينيين لن يتفقوا جميعاً على ذلك... ولقد انتهت الواقعية والمثالية كلاهما معاً، فلا بد من تجاوزهما معاً لبلوغ ما هو نسبي الحقيقة".

وعندما يصل بنسبيته إلى حال لبنان يعطيها بعداً عملياً متحركاً، يقول في كلام له في مجلس النواب عام: ١٩٥٦ "لا يجوز لفئة ما أن تحاول فرض رأي وطني خطير على سائر اللبنانيين، حتى نكون منسجمين مع فكرة الميثاق الوطني، لأن هذا الوطن قام على التسوية بين عائلات روحية مختلفة، فقبل أن نطالب أقصى المتعصبين في هذه الطائفة بمطلب ما، يجب أن نطلب ذات الطلب من أكثرهم اعتدالاً في الطائفة الأخرى".

في القراءة المتأنية لكمال جنبلاط يفاجئك بأن أكثر جديدك في الكلام على الحلول الناجعة للقضايا العالقة هو من قديم هذا العتيق المتجدد لأنه متجذر...

"إن حب الحقيقة - أياً كانت - قد علمني جمال التسوية". كمال جنبلاط في وصيته.

كمال ووليد جنبلاط
جدل الاستمرار والتغيير

معلوم لدى المتابعين أن كمال جنبلاط أُسقط في انتخابات العام ١٩٥٢ فأجرى مراجعة سريعة ودقيقة واكتشف أنه إضافة إلى شغل الأجهزة ضده كان هناك سبب إضافي، وإن يكن جزئياً ولكن لا يجوز الاستهانة به، وهو انصرافه أو إعطاؤه الأولية للحركة السياسية في العاصمة وبواباتها على الشأن اللبناني العام ونوافذها على الشأن القومي والدولي، على حساب علاقاته اليومية والميدانية بقاعدته الشعبية، وحينئذٍ قرر الملاءمة بين بيروت والمختارة، فأخذ يقضي جزءاً كبيراً من وقته بين الناس، ولم تمضِ سنة حتى عاد إلى صلب القرار السياسي وشارك بفعالية في ما اعتبر انقلاباً أو ثورة بإسقاط بشارة الخوري الذي تقرر في دير القمر، ما كان له دلالة واضحة يدخل كمال جنبلاط في صلبها... هذا الكلام مقدمة لكلام يأتي عن وليد جنبلاط وموقعه ودوره وأسلوبه في العمل الوطني والإدارة السياسية، لا يأخذ في

حسابه نتائج الانتخابات، لأنه حتى وليد جنبلاط في لقائه مع الناس في مزرعة الشوف قبيل الانتخابات، أكد أن المعركة الحقيقية سوف تبدأ بعدها بصرف النظر عن نتائجها، لأنها ليست سوى محطة ومناسبة لإعادة القراءة والكتابة.

في اعتذاره العلني الشجاع عن مشاركة حزبه في الحرب ضد حركة أمل، وفي اعتذاره عن الافتراق عن حزب الله في انتخابات عام ١٩٩٦ وحرصه على الود مع الحزب في انتخابات ٢٠٠٠ رغم تحالفه مع اتجاهات وأفراد تقع على الضد التاريخي والسياسي من وليد جنبلاط ونهجه. وفي حركته المستقبلية نحو الرئيس رفيق الحريري، وما كان لها من أثر على توسيع المشترك السني الدرزي، ومن دلالة على أن التقدمية المعتدلة لا تفوت الفرصة في الإطلالة على المعاصرة، خالصة من أوهامها الإقتصادوية بفضل إدراكها لحقائق العصر.. وفي حركاته المتتالية، من مأتم ريمون إدة إلى زيارة بكركي والمحاضرة في الكسليك إلى انفتاحه على حزب الوطنين الأحرار والكتائب وإطلالته على قوى أخرى في الوسط المسيحي، بلغ وضعها مستوى معقداً، وطنياً وإقليمياً كل ذلك يدل على قدرة وليد جنبلاط على تعمّد النسيان كضرورة لبناء الغد وتجنب منزلقات تجديد الحرب.. وإعادة الجبل إلى موقعه الرابط للوطن والدولة والمجتمع اللبناني، على أساس التسليم بأنه يتشكل من ضرورتين، ضرورة إسلامية عامة ودرزية بامتياز، وضرورة مسيحية عامة ومارونية بامتياز.. إن هذه الحركة تأتي من

التقاط ذكي وسريع للمعلومات والمؤشرات والأسرار الوطنية والدولية والإقليمية والقومية عموماً، مشفوعة بتكوين باطني عند وليد جنبلاط وبقيادة ذات موقع حزبي وإن لم تكن وليدة التسلسل الحزبي أو التعليم الحزبي، ما أتاح لها التحرر المتكرر من التعميم والإطلاق الحزبوي، وزعامة درزية أطلّ عليها وعلى مترتباتها وليد جنبلاط من ثقافة معاصرة قائمة على السؤال أكثر من قيامها على الجواب. . هذه الحركة تستفز المراقب المعني بالشأن اللبناني العام، إلى حد أن يرى فيها مغامرة كبرى، إن نجحت أنقذت، وإن فشلت دمّرت، ولكنها إذا فشلت تصبح دليلاً ساطعاً على أن لبنان الذي كان، فضلاً عن لبنان المنشود، مستحيل ولن يكون، وأن تفكيك الدولة فيه، استتبع تفكيكاً في الاجتماع، ليصل السؤال إلى الوطن، يبقى أو لا يبقى؟ وتستحثنا هذه الحركة على إجراء مقارنات هادئة بين نماذج حاضرة وأخرى غائبة، كما بين نماذج ما زالت تشكل المشهد السياسي اللبناني، لأن المقارنة تساعدنا على اكتشاف المؤشرات السلبية والإيجابية معاً.

إن حركة وليد جنبلاط، التي تصل إلى هنا وهناك، وتتجاوز المحرمات لتؤكد أنها ليست حراماً مؤبداً، تغرينا بالمقارنة، حتى بينه وبين كمال جنبلاط، على أساس أننا نعتبر الاختلاف بين جيلين هو السبب الأعمق للتكامل بينهما، وعلى أساس أن التكرار هو أسطرة للسياسة وتجميد لها في مفاهيم مسبقة تقع خارج الزمان والمكان والفكر

والحدث، إذن فقرار الانفتاح الذي اتخذه وليد جنبلاط مثلاً، هو تكامل مع الخلفيات التي أملت على كمال جنبلاط أن يتشبث بقرار العزل، الذي كنّا نتحفظ عليه أو نرفضه، ونعتبره خطأ مفهوماً كغيره من أخطاء الحرب هنا وهناك. .ولعل الإبقاء على سلوك العزل أو الاعتزال هو قطع لكمال جنبلاط، فكراً وسياسة عن التطور والمواكبة، إذن فوليد جنبلاط يكمل كمال جنبلاط ويتكامل به ومعه. . . ومن موقعه الجبلي والإسلامي والعربي والدرزي والسوري، من سورية ومعها، سورية المكوّنة لذاكرتنا، الداخلة في تكويننا، كما هو لبنان الذي نختلف معه وفيه وعليه ونتقسم في إطاره لا خارجه، ولا يجوز لأي طرف منا أن يصادر وطنية الآخر على أساس أنه هو معيارها الوحيد. .

وفي المقارنة بين وليد جنبلاط وكمال جنبلاط ماذا نجد؟ علاوة على أننا نتمنى على السلالات السياسية الشخصية والحزبية أن تدخل في مقارنة لترى كم هي متخلّفة عن ماضيها وعن حاضرها؟ وكم هي متقدمة أو مؤهلة للتقدم؟ وإن كان انطباعنا أن التخلف يضرب أطنابه إلا في حالات محدودة.

وفي المقارنة، إذا اعتبرنا المعرفة الموسوعية مميزاً للسياسي، فإن وليد جنبلاط متأخر عن كمال جنبلاط، وإذا اعتبرنا الحيوية التي تتيح للسياسي حراكاً ميسوراً بين الثوابت الوطنية وبين مقتضيات الأداء، فإن وليد جنبلاط متقدم على كمال جنبلاط. ومن هنا يأتي الفارق في الأداء بينهما، فقد

كان كمال جنبلاط في حركته السياسية يبدو وكأنه يعمل على مقتضى قوانين علمية، من دون أن يحرمه ذلك من اللمعة والمفاجأة والانعطافة السريعة، بينما يبدو وليد جنبلاط أقرب إلى الفنان، بما يعني الفن من عناية بالتشويق والإدهاش والمباغتة وكل ما يأتي من كون الفن، والفن السياسي، متحررا من القواعد الموضوعية، لا بمعنى الانفلات بل بمعنى أن قواعده ذاتية، منه وفيه، ومفتوحة درامياً على اللحظة، ما لا يرى فيه تناقضاً إلا الذي يعتمد التبسيط منطقاً. ومن الطبيعي أن يكون وليد جنبلاط متقدماً على كمال جنبلاط في علاقته بالحزب التقدمي الاشتراكي الذي ورثه عنه، على مقربة من موعد الزعزعة الهائلة التي طالت كل التجارب والنظريات الحزبية بعدما انكشف قصور الصيغ الحزبية السائدة عالمياً، وعربياً على وجه الخصوص، ولبنانياً بوجه أخص، عن استيعاب الواقع المركب والإشكالي. من أجل تطويره وتغييره من داخله وبأدواته، ولأن الواقع واقع فإن الحزب هو المرشح للانتهاء، ويبقى أن يكمل وليد جنبلاط نقلته مع الحزب، بعدما تحول من موضوعة في عهد أبيه إلى ذريعة في عهده، ولكن الذرائعية الوطنية المشروعة، لا تلغي بل تؤكد ضرورة إعادة بناء الحزب على أساس أنه مجتمع للفعاليات يحتضنها وينمّيها ويطلقها، لا يختزلها ولا يحاصرها ولا ينفيها... ولأن كمال جنبلاط كان واقعياً، كان درزياً ولا طائفياً بنفس القوة، وهنا يوازي وليد جنبلاط أباه ويشبهه، في الإبقاء على الدروز أو

الدرزية، بمثابة احتياطي ذهبي وطني، وإن كان المطلوب الآن هو تحويل هذا الاحتياطي إلى رصيد سائل وأكثر قابلية للتداول والتثمير، أي إعادة بناء الجماعة الوطنية الدرزية على معايير مصرفية وتنموية وعلائقية أشد دفعاً نحو الاندماج مع الإبقاء على السياج الوطني والقومي حافظاً لهذه الجماعة بحيث لا تبدو المرونة الضرورية والجريئة تجاه الجماعات الأخرى وبناء على دواعي المستقبل الوطني، بعيداً عن ذاكرة الحروب القديمة، بحيث لا تبدو هذه المرونة، وكأنها رخاوة أو ارتخاء في المفاصل الوطنية الجنبلاطية، أو أنها ممانعات أو معاندات في وجه إثارات ولا تصل إلى حد أن تكون نهجاً وخطاً واستشرافاً شفافاً للمستقبل الوطني اللبناني، من المرصد والمرقب التاريخي. . الجبل. . الذي لا يرى إلا إذا نظر بعينيه الإثنتين. . لا بعين واحدة، مهما تكن هذه العين واسعة ونفاذة، لأننا نريد أن نرى أوسع وأعمق وأبعد. . ولا نريد أن نقع في غش النظر فضلاً عن العمى. . «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» اللهم إشرح صدرنا كلنا، للبنان كله الذي لا يكون إلا بكله والذي لا حاجة لنا به إلا بكله، ولا فائدة فيه إلا بكله.

أخيراً. . .إنه جدل الاستمرارية والتغيير، الحاكم بأنه لا تغيير من دون استمرارية نسبية ولا استمرارية ولو نسبياً من دون تغيير نسبي، بشرط المنهجية والغائية الوطنية في الحالتين، وإلا تحولت الاستمرارية إلى جمود وتحول التغيير

إلى قطيعة وفوضى. . . إذاً، هما عهدان جنبلاطيان يؤكد أحدهما الآخر، كما تؤكد الوقائع أن التصدع في العيش المشترك قد حصل، وتؤكد الضرورات المستقبلية أن الترميم واجب وإلا تفاقمت المخاطر على الجميع من الجميع. . إن موقع صلاح اداور حنين وفؤاد السعد وبعده جورج ديب نعمة مثلاً، إلى جانب وليد جنبلاط ورفاقه وحلفائه، وبموجب مستلزمات إعادة النهوض اللبناني وتلافي العنف والانفصال، هو أكبر وأعمق من شواهد تم فيها نقل البندقية من كتف إلى كتف. . .إنه بحث عن تناصر وتواصل بين الأكتاف ليصبح كتف لبنان بعرض ومتانة دوره وموقعه ومستقبله.

ترجّل فارس فنهض وطن(*)

يا حاصد النار من أشلاء قتلانا منك الضحايا وإن كانوا ضحايانا

إن العيون التي طفَّأت أنجمها عجَّلن بالشمس أن تختار دنيانا

لم يعتد لبنان، هذا البلد المفتون بتعدّده، أن يجتمع في رجل، فإذا ما اجتمع، فإنما على باقة من رجال، بكل ألوان الطيف، يتقدم كل منهم لونه أو قبيله، فيتصافحون، ويتعاهدون ويسكنون بيتاً بمنازل كثيرة. هكذا مثلاً كان مشهد الاستقلال.

ليس من عادة اللبناني أن يلد بياضاً إذا اتحد، بل قوس قزح، وهذا لعمري، من مباهج النظر "ولا يزالون مختلفين، ولذلك خلقهم". ولتلك الخصوصية، الحكمة لم يعرف لبنان "الزعيم الأوحد"، لا طالعاً من تحت، ولا هابطاً من فوق. وهذا لعمري من ألطاف الله بالديمقراطية.

(*) ألقيت في أربعينية الشهيد الرئيس رفيق الحريري التي أقامتها الجمعية الإسلامية للتخصص والتوجيه العلمي في مقرها في بيروت في ٢١/ ٣/ ٢٠٠٥.

مع استشهاد رفيق الحريري، غيّر لبنان عادته الأثيرة تلك، استثنائياً، وربما لمرة واحدة، ولعله لذلك قتلوه، أي رفيق الحريري، ولا مانع من الملابسة بين الحريري ولبنان، على أن العزاء حاضر والأمل ناجز، فالشهداء "أحياء ولكن لا تشعرون"، والفينيق يعرف سرّ الرماد ويعرف الطريق إلى النهوض إذاً، مع رفيق الحريري غيّر لبنان عادته، فالتف بعباءة واحدة، براية واحدة، واصطبغ بلون واحد، وشخص إلى رجل واحد، إلى حقيقة رجل، إلى الحقيقة في رجل، بقي زعيماً أوحد اتخذ قيمة كبرى جامعة، مع رفيق الحريري وقفنا على جبل يطلّ من وسطنا على كل أطرافنا وحقائقنا.

ويحرّر الحيّز المعرفي الذي يتكامل فيه العام بالخاص، والمعرفة بالثروة والمحلي الوطني بالعربي والكوني، وتتحاور فيه الأجيال بدل أن تتفاصل. ويقوم لبنان رسالة محمولة باليد إلى العالم بعدما كانت فرضية أقرب إلى الشعر الجميل.

يناجي علي بن أبي طالب (ع) رسول الله ﷺ يقول: "خصصت حتى صرت مسلياً عما سواك وعممت حتى صار الناس فيك سواء".

أرادوا باغتياله أن يتشظى جسد لبنان، أو على الأقل أن يخاف هذا اللبنان، فينكفئ عن فكرة النهوض في مشروع الحريري، وعن مشروع الحريري في فكرة النهوض.

لقد تشظى جسد الشهيد رفيق الحريري، بفعل جريمة كانت في حجم وطن، ليس في حجم وجوده المادي

فحسب، وإنما في حجم تطلعاته والأحلام أيضاً. فكان ما لم تتوقعه الجريمة: سقط جسد فنهض وطن!.

ذلك أن إيمان اللبنانيين دعا تلك الشظايا اليه، فأتته سعياً، فاستودعها مطهر قلبه ومصهره، وأعاد صورتها البهية، واتخذها قبلة سعيه نحو الحقيقة، قال: " فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ".

في سعي اللبنانيين إلى الحقيقة، اكتشفوا حقائق سبعاً:

١- اكتشفوا، في أنفسهم وفي الآفاق، أن مشروع الحريري، لم يكن لترميم ما تهدم من بناء واقتصاد فحسب، بل كان في جوهره ومراميه البعيدة مشروعاً لترميم الذات اللبنانية.

٢- واكتشفوا أن مفاعيل الترميم الوطني والمعنوي قد تغلغلت إلى عمق أعماقهم، رغماً عن غربان الخراب وأبواق الفتنة.

٣- واكتشفوا أن رجل الإعمار كان رجل دولة، ورجل قضية وطنية، ورجلاً نباهي به الأمم، كل ذلك في آن معاً.. أمس واليوم وغداً.. والى الأبد.

٤- واكتشفوا أن رجل الحسابات السياسية والإنمائية الدقيقة، كان قبل ذلك وبعده، رجل الاعتبارات الأخلاقية الثابتة، الممتدة من العائلة الصغرى - الأسرة - إلى العائلة الكبرى - الوطن.

٥- واكتشفوا أن رفيق الحريري كان الرفيق الأكبر بلبنانهم، آن تجرّد العتاة حراس التخلّف من أي رفق بالناس.

٦- واكتشفوا أخيراً أن وحدتهم هي خلاصهم، وهي الوفاء للبنان، ولكبير في حجم لبنان.

٧-واكتشفوا فيما هم يشيعون الرفيق الرؤوف أن جسدهم تماثل حقاً للشفاء.

عندما بلغه نبأ اغتيال حبيبه محمد بن ابي بكر في مصر قال علي (ع):

"إن حزننا عليه على قدر سرورهم به، إلا أنهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبيباً".

"اثقبوا وجهي، قيّدوني، وخذوا حربة وانحروني، مزّقوني كلوني، واقرأوا كيمياء المدينة.. بين أشلائي الأمينة".

"جسد مغروس في البرية.. والنهر دم والموجة نور

جسد هدته الحرية.. جسد تبنيه الحرية". أدونيس.

رفيق الحريري شكراً لك!!! لقد وحّدتنا أكثر مما اشتهينا.. وها نحن نحبك بما يليق بك، بمفعول تقدمي، أي نيابة عن الأحفاد وأحفاد الأحفاد.. وبمفعول رجعي محواً لموبقات من أبغضوك حياً وأحبوك ميتاً، فماتوا مرتين وعشت مرتين، وعاش لبنان.

جيش اليتامى

"لعينيك سافر نهر الغناء وغادرتِ الأشرعة

لعينيك مرّ المساء على كتفي زوبعة"

في لحظة الفراق يصبح العقل في القلب ويصبح القلب في العين ويصبح الدمع في الحبر

ها إني أبكي.. معذوراً ومن دون شبهة.

فقد مات الحريري رفيق الرفيق والرئيس. إذاً، فهو يعطيك فرصة للصدق المكثف من دون شك أو ريبة.

ثم إني مواطن، فليعذرني الوطن إذا ما رأيته مغدوراً في رفيق الحريري... ثم إني مسكون بأسئلة المستقبل ورفيق الحريري جواب على عدد منها، فهل يعني موته أن تتوقف الأسئلة لنعود إلى قائمة الأجوبة الجاهزة التي لا تجيب؟

ثم إني معتدل وداعٍ إلى الاعتدال.. والحريري معتدل

ومؤسس في مشهد الاعتدال الوطني والقومي والإسلامي

والدولي... إذاً، فقد اغتالوا أمثولة الاعتدال.

ولماذا يقتلون الاعتدال أو المعتدل وهو لا يقتل أحداً؟

هو يحمي الأرواح والأجساد والأوطان!

تقديري لأنهم ضعفاء والاعتدال قوي... قوة

ولأنهم أهل باطل والاعتدال حق وحقيقة..

ولأنهم مفلسون، والاعتدال غنيّ

قتلوا رمز الاعتدال... ولكن المرموز أكثر من شخص، إنه نهج آتٍ إلى هذا الوطن وهذه الدنيا ليضع حداً للباطل والجهل والضعف والجريمة والبطالة والبشاعة وكل الموبقات المعروفة.

"ميتماتك كانت أمس عاتبة

قلبي لقلبك هل عذر فاعتذر"

رفيق الحريري... يتيم... واليتم في لغتنا يعني الفرادة، يعني التميز، يعني الإبداع، يعني الجمال... وأجمل ما في اليتيم الفريد أنه يحول فرادته إلى حالة، يذهب إلى الأيتام من فاقدي الكفيل إلى المتفردين في مواهبهم...

يحفظ كرامة هذا، ويفتح آفاق العلم والمعرفة لذاك.. مئات الآلاف من الأيتام المكفولين، وعشرات الآلاف من الأيتام الذين يبدعون علماً وعملاً في كنف الحريري.. أوه.. إنه جيش من الأيتام!!! وما أوسع احتمالات المغفرة... لكافل اليتيم قرين الرسول ﷺ في الجنة... والذي تساعده الملائكة معجبة به عندما تفرش أجنحتها لطالب العلم... وداعاً يا أكثرنا يتماً وأكثرنا أيتاماً.

"يا صاحبي إني حزين، طلع الصباح فما ابتسمتُ..
ولم ينر وجهي الصباح".

قضيت نصف ساعة في منزل الحريري معزياً... عجيب أمر هذا الصمت الوقور!. جميلة هذه العائلة التي تحزن بشفافية فتزيدك حزناً... وتتسع العائلة لتكون وطناً وأمة.. عجيب هذا الجيش من المحبين للحريري والأحباب!!! كأن رفيق الحريري قد ذهب إلى قيلولة بعد يوم عمل شاق من أجل الوطن والمواطن، واستغرق في نومه بسبب السهر والتعب.. وهم ينتظرونه ريثما يعود ليتابع وداع محبيه وقد روي عنه أنه في أيامه الأخيرة كان مترعاً بحيوية وفرح.. كأنه يودع!

يا أبا بهاء "الموت بين الأهل نعاس" كفاك نعاساً... كفانا موتاً.. نحن بانتظارك لإكمال السهرة... أنا... ولا مرة سهرت معه.. رأيته عاماً.. ولكني رأيته دواماً... وسوف أراه دواماً في وطن آتٍ يرفل بالحرير..

"وجهي ووجهك شيء واحد ولنا
ظل فمن أنت؟
هل أنت الذي قتلا؟"

"موت يجيء... رأينا الشمس تحمله
في لحظة قد توارى عندها الأبد"

"ينحني السيف جثة، يسخر التابوت منها
وتهزأ الأكفان".

كان جميلاً كالشعر... وهو الآن بهي كالشعر

وعزاءً لصيدا الوديعة، عزاءً لبيروت المدينة. التي تحيا الحياة سلاماً... وفي الموت، في موته.. تحيا سلاماً في السلام... سلاماً لبيروت الوفية، العاقلة، المؤدبة، المسؤولة، العاصمة.

"بيروت ما ذرفت عيونك دمعة

إلا تلقفها فؤادي المغرمُ".

خليل الوزير خليل الجليل

كان الوقت بعد الظهر من يوم رمضاني حار، وكان زائر أبي جهاد مسلماً ممارساً للعبادة، يُلزمه مذهبه الفقهي بالإفطار في السفر، كان الزائر مفطراً ومتوتراً كما لو كان صائماً، وكان الجو جو قتال حام في منطقة حساسة من الجبل، وبصرف النظر عما إذا كان الزائر متحمساً لتلك المعركة أم لم يكن، فقد كان أبو جهاد في سياقها، ولكنه لم يكن يبخل على زائريه الموثوقين جداً لديه، بطرح أسئلته التي تقترب كثيراً من الشك بجدوى كثير من المعارك بعيداً، عن فلسطين. .

وكانت مناسبة الزيارة، هي الاستعانة بأبي جهاد لمنع إعلان انشقاق مغامر عن حركة سياسية لبنانية. . . وجاء أبو جهاد مصقول الثياب مصفف الشعر، ممتلئ الوجه نعمة وراحة، منبسط الأسارير صافي العينين والنظرات، كأنه نام ليلة البارحة كلها وبعض نهاره على مخدة من ريش العصافير، بعد يوم سباحة وغطس في منتجع صيفي، أو كأنه آتٍ من أو ذاهب إلى نزهة واستجمام في مكان يحبه كثيراً كرام الله أو الرملة أو دير البلح أو حمام الوزير أو كأن

حمدي وأبا حسن قد أتياه قبل قليل بخبر وصول دلال المغربي إلى ميدان العملية. . وكان صائماً ورائقاً وكأنه مفطر قد تناول لتوه قهوته الصباحية مع كأس بارد من منقوع البابونج. . والتفت أبو جهاد إلى الكادر الذي يعتزم الانشقاق، تكلم بهدوء كأنه يعالج شوكة في ذراع طفل رضيع، ثم احتدم من دون أن يرتفع صوته، بل تسارع نبضه وقال حاسماً: إياكم واللعب بالنار، هذه الحركات نواجهها بقوة. .

إن فلسطين تملي علينا أن نجمع لا أن نفرق، وأن نتجاوز لا أن نبقى أسرى الانفعال. واعتذر الرجل ومضى راضياً ومختلفاً عما كانه.

أثناء اجتياح عام ١٩٧٨ كان أبو جهاد يقود المواجهة من صيدا، وحوله لفيف من المناضلين العرب، أكثرهم على مقدار من ثقافة مميزة، يستشيرهم في كل شيء ويعمل بمشورتهم بعد الاتفاق، ولكنهم وهم من أهل الكلام الخاص والمنتقى، كانت تعلو وجوههم الدهشة عندما يرد أبو جهاد على تساؤلات الوكالات الإعلامية العربية والأجنبية، مباشرة بواسطة الهاتف، يقول نصه بهدوء مثير وبكلام واضح لا يحتمل أكثر من دلالة واحدة، ولا مجاز أو بلاغة مصطنعة فيه، ولكنه جميل وبليغ جداً، لأنه يشبه تراب الوطن وتفوح منه رائحة الدم المنذور للحرية والكرامة، ويهمس أحدهم للآخر: هل تستطيع أن تغير كلمة في النص أو تنقص كلمة أو تزيد كلمة؟ هذا أبو جهاد، يبدو وكأنه لا يفعل شيئاً،

وكانت ذروة إبداعه عندما انضم إلى الجمع قادم من مصر، ومن أجواء السادات ورحلته إلى القدس وكامب ديفيد وجو الشارع المصري الذي ظهرت عليه إمارات عصبية مصرية جادة وسلبية تجاه العرب والدول العربية، تلامس فلسطين.. وهون أبو جهاد من ثائرة الأخ الحزين بالقول: وما العيب أو الخطر في ذلك؟.

وإنها عصبية وطنية مصرية موجهة الآن، ولأسباب وظروف عارضة ضد العرب، ولكنها تعمق الوطنية المصرية لتوجهها في النهاية نحو العدو الرئيسي، انتظروا مفاجآت الشعب المصري ولا تظلموه... وتنفس الإخوة الصعداء، فقد أزاح أبو جهاد عن عيونهم غشاوة، كما كانت عادته دائماً وتابعت الجلسة محباً لمصر أكثر ومنتظراً لها دائماً.

وبعد اجتياح عام ١٩٧٨ والقرار ٤٢٥، كان أبو جهاد على موعد مع كوادر ليقدموا تقاريرهم عن الوضع في الشريط الحدودي... وأفاض الشباب في الكلام، وعندما كان أحدهم ماضياً في كلامه، قال بأنه ذهب إلى القرية الفلانية في سيارة شحن تحمل الخضار.. وهنا انتبه أبو جهاد ففتح باباً آخر.. وأخذ يتساءل عن عدد سيارات الشحن التي تنقل الخضار ومواد البناء وغيرها من البضائع إلى الشريط، وعن نوعية السائقين، وتجهيزات السيارات وأشكالها. وحول اللقاء إلى درس عملية مرتبة لتهريب السلاح إلى الشريط، ليهرب كله أو بعضه إلى الأرض المحتلة، وعندما وصل إلى هذه النقطة طلب ممن هم على استعداد للمباشرة بالعملية أن يبقوا

وينصرف الآخرون.. وبقي معه اثنان.. وبقينا حتى الانتفاضة الأولى لنعرف ماذا كان يفعل أبو جهاد.. ولما عرفنا التفاصيل قرأنا له الفاتحة مع سورة ياسين وآية الكرسي والمعوذتين والسماء والطارق... مع طارق الذي تولى ترتيب الشغل.

يوماً كنت في دمشق في زيارة لساعات آتياً من معسكر فتح التدريبي في عين الصاحب بين مدينة التل وحلبون إلى الشمال الغربي من دمشق حيث كانت مجموعة من الأصدقاء في دورة تدريبية على السلاح من أجل المشاركة في مواجهة العدو الصهيوني عندما يلزم الأمر... وكنا سابقاً نذهب للتدريب في معسكر المنطار قرب طرطوس وعندما قصف انتقلنا إلى بساتين الزيتون قرب خربة اليازدية القريبة من صافيتا.. ثم إلى عين الصاحب التي كان يشرف عليها مجموعة من الشباب بقيادة سميح كويك- قدري- الذي أصبح لاحقاً عضواً في اللجنة المركزية لحركة فتح، ثم انشق مع فتح الانتفاضة ولم يلبث أن عاد سريعاً إلى العزلة والتدين.. كانت لجنة شؤون الأردن بقيادة قدري قد اختارت مسلكاً يسارياً مأخوذاً بالجملة الثورية والكلام التطهري والنقد القاسي والتخوين مع الإصرار على المتابعة لترجيح الخط الثوري على خط اليمين المتخاذل..(عادوا جميعاً عن ذلك لاحقاً).. بعد الشاي والإصغاء للحديث الثوري الذي أشعرني وكأني آتٍ من عالم آخر، استأذنت السيد قدري بالخروج فقال: إلى أين؟ قلت: إلى أبي جهاد فقال: إذن لا

تقل له إن لك علاقة بنا لأن هذا يسبب لك الأذية.. وذهبت إلى أبي جهاد، وسألني منذ اللحظة الأولى ماذا تفعل في الشام؟ قلت عندنا دورة تدريبية مع شباب شؤون الأردن، أبدى أرتياحه وسألني: هل هذه هي المرة الأولى؟ قلت: هذه هي المرة الثالثة فامتدح جهد الشباب وإخلاصهم وأوصاني بهم خيراً... وعندما عدت إلى قدري سألني عما إذا كنت قد التزمت بوصيته في إخفاء الأمر عن أبي جهاد، ولما أخبرته تغير لون وجهه خوفاً علي كما قال، فطمأنته، ودخلنا في جدل حار حول التصنيفات الظالمة لرفاق الدرب.

أشهد أن أبا جهاد لم يشتم أحداً ولا نظاماً على مسمعي، وما سمعت أحداً يقول إنه شتم أو خون أحداً... ومع ذلك فإن اليسراويين أو العسراويين كانوا يحسبونه على السعودية علماً بأنه لم يكن يسافر إليها إلا قليلاً، ولكنه يتكلم عنها في منتهى الأدب وينتقد إذا كانت هناك ضرورة للنقد بمنتهى الأدب كذلك، وهو المصنف يميناً، لم أسمعه ولم يسمعه أحد ينال من الاتحاد السوفياتي، أو يفرط بالحركة الوطنية أو الحزب الشيوعي اللبناني، وكان الكبار الكبار من اليساريين يحترمونه ويحبونه ويثقون به.. أما الصغار فلا.. وهم دائماً كذلك، إلى أن يكبروا ويبلغوا رشدهم.. ولعلها فتح هي التي أحيت هذا السلوك التعددي السجالي لحظة والحواري لحظة والتكاملي على كل حال... ومن الأمثلة أن العلاقة بين أبو صالح المصنف يساراً وأبو جهاد كانت من العمق بحيث تبعث على الحيرة، أما العلاقة بين خالد

الحسن، أقصى اليمين، وأبي صالح، فهي مثال لوجدة وصراع الأضداد أو الأحباب، وهذا مما يفسر عودة أبي صالح سريعاً إلى الصف بعد مغامرته في الانشقاق، خصوصاً عندما اكتشف أن المصرين على الانشقاق وتوظيفه مزاجياً، هم من الفئة التي التحقت بفتح ولم تترب في حضنها، وكذلك فعل كثيرون من الذين انشقوا.. والخلاصة أن أبو جهاد لم يتورط في تطرف يميني ولا يساري، كان فلسطينياً براغماتياً محكوماً بمنظومة أخلاقية عالية... أما عروبته وإسلاميته وإنسانيته فقد كانت عميقة من دون استعراض...

وقد ذكر لي أبو صالح مرة، أنه كان في مقر من مقرات أبي جهاد في البقاع، وأبلغ بأن هناك مجموعة من مشايخ السنّة على موعد مع أبي جهاد الذي تأخر وهو نادراً ما يتأخر.. فقرر أبو صالح أن يحل المشكلة ويلتقي بهم بدلاً منه ويستمع إليهم، فدخل حيث كانوا وسلم ورحب، وقضى معهم أكثر من ربع ساعة في المجاملة.. كيف الحال؟ الحمد لله... إن شاء الله الأمور ماشية؟ الحمد لله يقول المشايخ.. ثم سألهم هل هناك أمر مهم؟ أنا على استعداد للإصغاء وعمل ما يلزم... اضطرب الوضع، وهمهم المشايخ أمام أبي صالح المندهش، ثم بادره أحدهم بالقول: يا أخانا نحن لا نعرف أن نتحاور إلا مع أبي جهاد.. قال أبو صالح: وهل تعرفون من أنا؟ ظناً منه بأنهم ربما يكونون عارفين بتصنيفه يساراً، ما جعلهم يمانعون في مناقشته، فتبين أنهم لا يعرفونه. روى ذلك أبو صالح مستمتعاً.. وقد

استمتع أكثر عندما عرضت عليه مشروعاً لاسترضاء السيد موسى الصدر بعد الإساءة إليه من قبل أناس محسوبين على أبي صالح أو على ما كان يسمى يسار فتح.. وهكذا شجعنا أبو صالح على تنشيط التجمع الإسلامي الشيعي المكون من عدد من كبار علماء الشيعة ووجهائهم وفعالياتهم من أجل إسناد الإمام الصدر ورد غائلة أعدائه وبعض أصدقائه عنه.

إلى هذا الأصل الفلسطيني كان ينتمي أبو جهاد.. وذهب عميقاً في الوجدان، ولم يذكره أحد بسوء، إلا واحد تجاهله في برنامج على فضائية عربية وقلل من شأنه فأثار قرفي، وآخر لم يعرف عنه أنه أحسن صحبة أحد أو قال كلاماً له مصداقية، ومن موقع ثوري شكلي مزيف، ثوري لا ثوري، نبأ استشهاد أبي جهاد، فبكى الجميع إلا واحد ظهرت البسمة على شفتيه وكأنها فحيح أفعى.

كان يستحضر من الماضي ما يمر بالحاضر ليصير في المستقبل، وكان يعتني بالحاضر، كل الحاضر متحرراً من المزاجية والإيديولوجيا التي تلزم الممعن فيها من رؤية الواقع كما يحب أو يكره... كان يدخل إلى الواقع من بوابته ويحاول تشغيله وتطويره من الداخل وبقوانين الداخل، ولا يكل ولا يمل، وكلما فشلت التجربة ازداد قناعة بإعادتها بشروط مختلفة.. وثم شكا إليه فيصل الحسيني من صعوبة العمل في القدس، أو الاستحالة، ولكنه أصر، حتى انتبه فيصل الحسيني إلى أن هناك إنجازاً هاماً وعظيماً قد تراكم ببطء شديد ولكنه عميق... ومن هنا لاحظنا عناية بالفتيان

من طلاب ثانويين وجامعيين، لاحظ مواهبهم فاقترب منهم وقربهم.. ولم يلبثوا أن أثبتوا امتيازهم، وإن كانت السبل قد تفرقت بهم لاحقاً، فإن هذا لا يمنعهم حقهم في الاعتراف بنضالهم الصافي، من مروان كيالي إلى معين الطاهر إلى علي أبو طوق إلى ربحي وسعود المولى وشريف وسعد جرادات وآمنة القرى وإخوتها الشهداء والأحياء ووالدتها وميشال نوفل ونجيب خراقة وأنيس النقاش وطارق إبراهيم وكاظم ياسين ومحمد حمزة (سمير غطاس) وحمدي وأبو حسن وحسن صالح وطلال عتريسي، وعبدو قصير وبشار ومصباح وريما وفتحي وربحي. بالإضافة إلى جواد أبو الشعر ومحجوب عمر وغيرهم، إلى الكتيبة الطلابية المميزة بكل نضالها وسلوكها المستقيم وحب الناس لها في الأوقات الحرجة وجمعها بين القائد أبي عمار والرائد أبي جهاد من دون فصل أو خلط أو ازدواجية..

وعندما حملنا إليه هم إيران، اكتشفنا أنه كان قد سبقنا، وجدنا الجميع تحت مظلته، من محمد منتظري وجلال فارس وتيار الإمام الخميني عموماً، إلى كل الفصائل اليسارية التي كان يشدد عليها أن لا تأتي بأي حركة مضرة بالآخرين.. أما ثقة الساندين وأكثر فصائل النضال الآسيوي به.. فقد رأيناها عن كثب.. ولم نرَ منه وله وعليه أي ورطة.. كان جزءاً من خلط النضال بالإرهاب وبشدة.

أدخلني عليه رفيق عمره سعيد في مكتبه الذي استشهد فيه، في تونس، من دون أن يخبره، كان ينتظرني معمماً

وبالجبة، ولكني دخلت عليه من دون طرق للباب بلباس مدني وقلنسوة باكستانية ونظارات طبية لا عهد له على عيني.. ولا على قلبي... هب واقفاً بسرعة ودهشة ويده على مسدسه، ولكني عاجلته بضحكة فرد علي بمثلها.. وقضينا ساعة لم يتكلم فيها إلا عن الانتفاضة وكيفية خدمتها...والتفت إلى أنه لم يدعني إلى الغداء وقد فات الوقت.. قلت لقد تغدينا والحمد لله معك.. أما الغداء الآخر فإني مدعو إليه في موعد متأخر لم يحن بعد... وعلى مائدة الغداء ذكرت من كان معي بأن حديثنا لم يتعد الكلام عن السمك التونسي والفراخ والفري بالفريك.. ولم يخبرني أحد أو يسألني أحد عن الانتفاضة.. بعد الغداء الجلسة مع أبي جهاد شعرت بأن بدني قد استيقظ فضلاً عن روحي، وبعد الغداء الثاني أخذتني غفوة على المائدة، وعندما صحوت خجولاً وجدت الجميع نائمين.

خلف هذا المكتب بالذات قتلوه.

دخلوا من دون استئذان، قتلوا الحارس.. ودخلوا على حارس المقلع والمقلاع... قتلوا الجسد وها نحن نكتب على مساحته الخضراء بعضاً من روحه التي فينا.

قتل على حساب الانتفاضة الأولى ولحسابها وحسابنا وعليه ولم يلبث توأمه الفلسطيني الفتحاوي أن قتل على حساب الانتفاضة الثانية ولحسابها وحسابنا عليه..

وهكذا اجتمعا في فلسطين الرحم وفي فتح المهد أما

اللحد فمهما ابتعد أو أبعد عن شقيقه فإنهما لا يمنعان اللقاء في فلسطين حباً ورجاءً، ذكرى وحلماً. . وفي الجنة، في أعلى عليين.

أبو جهاد
خليل الوزير / الشهيد(*)

السيد هاني فحص واحد من الرواد، فكراً تجربة ونضالاً، عايش الكبار، فكان منهم، أغنته علاقته بهم بالكثير من العمق والبعد المشفر والمرمّز لدى سواه، فيما لم ينقص سماحته الوضوح والاستشراف يوماً. ولأنه من طينة الأوفياء المثابرين الذين حضروا واندمجوا في حركة فتح، واقتربوا من قادتها الأوائل، طاب لنا استثمار تلك الطاقة الموسوعية ـ الوسطية لكي نغوص مع سماحته في سيرة أبو جهاد وحركته الرائدة.

يبدأ السيد هاني فحص حديثه عن الشهيد أبو جهاد واصفاً إياه «بالورد الذي تشم رائحته أولاً ثم تبحث عن لونه فترى كل الألوان، ترى فيه قوس قزح من دون أن يغلب لون على لون وكل الألوان تتعاون لتقدم لك المحتوى الجميل، قوس قزح، لحظة الصحو في أعقاب المطر وقبل المطر،

(*) مقابلة أجراها الاستاذ محمد سرور لمجلة القدس ـ العدد ٢٧٣ ـ أيار ٢٠١١

كان ذاكرة وبشارة».

مضيفاً: «أبو جهاد وردة حقيقية وتكوينه تكوين وردة، والوردة لا تستطيع أن تكف عن العطاء، أبو جهاد وردة رائحته تسبق لونه. كان يفكر في البعيد والقريب بينما كان البعض يفكر بالمباشر فقط، كان يتحين الفرصة للاستفادة من أي شيء، كان يفكر أن يزرع ولا يهتم بمن سيحصد. لم يشعرنا يوماً أنه تعب، ومن يجلس معه لأول مرة قد لا يعرف أنه أبو جهاد، وأنه مناضل، شعره مصفف وذقنه ناعمة، مرتاح متورد، ملابسه أنيقة، أعصابه هادئة، لا يدخن ولا يشرب الشاي والقهوة كثيراً، صوته لا يعلو ويبتسم، طبعاً يغضب، لكن حتى غضبه عميق وهادئ».

لا يخفي السيد هاني فحص سعادته بأنه تعلم من كثير من الناس: «تعلمتُ من أبو جهاد ومن شخص يحب أبو جهاد ويحبه أبو جهاد وما زال يعيش على ذكرى أبو جهاد، ولم يعادِ أحداً من أجل أبو جهاد هو الدكتور محجوب عمر».

«كان يفكر «بالخرطوشة» وكيف تصل إلى فلسطين. كان أبو جهاد براغماتياً فلسطينياً، كل شيء عنده يعود إلى فلسطين، ولكن هذا لا يعني انه ليس مرناً، بل كان غاية في المرونة». ويروي حادثة حصلت معه وانه في أحد الأيام كان عند شخص وعندما عرف أنه ذاهب إلى أبو جهاد حذره من أن يبلغه بعلاقته به لأن أبو جهاد يميني متطرف، « وعندما ذهبت إلى أبو جهاد سألني أين كنت قلت له، فقال ما مدى

علاقتك به، فأجبته بأنها جيدة ومنذ ما يقارب ثلاث سنوات. فكان ردّه أن أكمل في بناء هذه العلاقة، فهذا الرجل نظيف».

ويرد فحص على من يدّعي أن الشهيد أبو جهاد يميني «دع أحداً يسمي لي علاقة له بالأنظمة التي يسمونها رجعية، فهذا الرجعي، كان على علاقة بفاتاني في تايلاند. كان على علاقة بالتيار الديني الإيراني (قاعدة الإمام الخميني) وباليسار الإيراني، هذا هو أبو جهاد الواحد المتعدد».

هذا التصنيف الذي كان يطلق على حركة فتح بين يمين ويسار وغير ذلك ظالم، كما يقول فحص، « فعندما يقال أبو جهاد يقال مقابله أبو صالح. كنا أنا وأم جهاد وصخر حبش نجلس بعد زيارة الشهيد أبو عمار إلى إيران مع الرئيس محمود عباس وأنا وأخوة آخرين لتوثيق ودراسة وثائق حول الثورة الإيرانية، دخل أبو صالح وقال أنتم تعملون على ملف إيران يعطيكم العافية بيّضتم وجوهنا. كان هناك هدف محدد للقادة التاريخيين فلا يفرضون شيئاً على طريق فلسطين. ليس هناك يمين أو يسار في فتح، هناك فتح مع حساسيتك اليمينية أو اليسارية، لكنها أضافت لك بعداً آخر، وصنعت مشتركاً واسعاً، لذلك كل الانشقاقات والخروج من فتح غير مبرر وغير ناجح».

هذه الميزة التي تميزت بها حركة فتح يعتبرها فحص جزءاً من أبو جهاد وأبو جهاد جزء منها. « فأبو جهاد له دور في تأسيسه، في إشاعة هذا المناخ الرحب وهذا الفضاء المرن

وبنفس الوقت كان متأثراً به». ويشير فحص إلى أن أبوجهاد لم يكن يريد من الذين يعملون معه ضمن الإطار الولاء له شخصياً، «إذا كنت تعمل مع أبو جهاد في الغربي أو أي إطار لا تشعر أنك مضطر لأن تكون موالياً له على حساب أبو عمار مثلاً».

فتح هي مكان مشترك بين كل التجارب والذاكرات الفلسطينية والثورية الانسانية بما فيها حرب الشعب الطويلة الأمد التي «التقطها أبو جهاد من تجارب الأمم الأخرى والتي فيها تكون الحركات الثورية طليعية لكنها طليعية غير منفصلة بل مندمجة بالشعب».

في تاريخ أي حركة نضالية هناك جدل قائم بين السياسة والمقاومة، وهذا الجدل لا يتعطل، ففي فترات معينة يظهر المشهد السياسي لكنه يكون قائماً على المقاومة، أو أسبابه نضالية، أو يكون فيه بعد للمقاومة غير ظاهر. وعندما تأتي الظروف وتتعقد العملية السياسية يتراجع المشهد السياسي ويظهر المشهد المقاوم المباشر. وهذا لا يعني أن البعد السياسي غاب وانتهى، وهذا المشهد النضالي هو أيضاً قائم على معادلة سياسية. هذا الأمر لا بد أن يكون في وعي حركة فتح منذ الجلسة التنظيمية الأولى، ويكون هناك خلاف حول أولوية المقاومة على السياسة أو أولوية السياسة على المقاومة. وهنا أهمية الجمع بين الرؤى وهذه هي أهمية حركة فتح، التي استطاعت أن تجمع بين التعدد الذي يحفظ نصاب الوحدة التي لا تعود أيديولوجياً فتصبح الوحدة رؤيا

متحركة، رؤيا فيها ثوابت وتعمل على المتغير فتحفظ الثابت بالمتغير، وتحفظ المتغير بالثابت، وتحفظ التعدد بالوحدة وتحفظ الوحدة بالتعدد..

ويمضي فحص مؤكداً انه «في هذه المرحلة يحتدم الجدل السياسي النضالي خاصة بعد تجربة أوسلو، التي أراها ثمرة قطفها الفلسطينيون فجة بعض الشيء والذي لا يقرأ حرب الخليج الأولى والثانية، لا يستطيع أن يقرأ أوسلو التي طرحت أسئلة جديدة وكانت مساساً بالإيديولوجيا الاسرائيلية القائمة على عدم التخلي، حصل تخلٍّ اسرائيلي بغض النظر عن نسبته، وانكشفت دعاية أرض بلا شعب وشعب بلا أرض.. وأصبحنا في الداخل، انتقلنا من حقل خلفي للقضية إلى حقلها الحقيقي على الأرض، حتى صار كل شيء نضالاً من الشعر والزرع إلى الاختلاف الذي يؤول إلى الوحدة المتكافئة، لا الخلاف الذي يستفيد من تفجيره العدو أولاً، إلا إذا تفادينا بالمصلحة والتنازل المتبادل.. وقد حصل والحمد لله.

يضيف السيد هاني فحص «الشعب الفلسطيني محكوم بالإبداع والنضال حتى أثناء نومه. هو قادر أن يبدع، خاصة منذ ما بعد حصار الشهيد أبو عمار حتى اليوم حيث تبين مدى حرارة بعض العرب المنخفضة تجاه الموضوع الفلسطيني، إضافة إلى مشاكلهم الداخلية، وبرأيي الشعب الفلسطيني يجب أن يفكر باستنهاض قوى التضامن الاجتماعي وإحيائها من جديد على معطيات جديدة. مطلوب مجتمع

مدني حقيقي أرقى من الأحزاب يوازي الدولة ولا ينقضها، هذا المجتمع يكون تحت سقفها لا فوقها. والعودة إلى استنهاض قوى فاعلة وشريفة في المجتمع المدني والأهلي والدولي.

البراغماتية الفلسطينية تتطلب الوحدة، من يريد فلسطين يحتاج الوحدة، المستعجل لن يصل، والمسترخي لن يصل، سيصل الوسط ولا أعني بالوسط التلفيق بين الحق والباطل، الوسط هو أن تكون في مكان ترى كل من حولك، الوسط في اللغة العربية معناه رأس الجبل حيث ترى الجميع ويراك الجميع. الوسط الفلسطيني هو ان تكون في الجليل ترى الساحل والجبل من القدس إلى مرج ابن عامر مروراً بجنين.. وتمد قدميك إلى بحر حيفا وتأخذ طريقك عبر التوسط والمتوسط إلى غزة.

«على فتح أن تفكك الصورة النمطية التي تغلفها وتشجع الآخرين، حماس وغير حماس على أن يعيدوا النظر ويفكروا بصورهم النمطية حتى تصبح صورنا جميعاً صورة فلسطين المستقبل».

يختم السيد هاني فحص باستذكار «الشهيد أبو جهاد وكل الشهداء الذين نهضت وأطلت فلسطين في لحظة شهادتهم، دير البلح واللد والرملة وحركة فتح والغربي واليمين واليسار، أمكنة جسد وروح أبي جهاد التي فاضت في تونس.. في قرطاج.. وأرسلت الجسد مزيناً بخمسين من الأوسمة الرصاصية ليرتاح في غوطة دمشق قريباً من بقايا

كنعان في الأرض والناس والقضية. بقي أبو جهاد شاهداً معمداً بنار الجليل ودم الأقحوان في جنين وما تركه أبو جهاد في أذهان المناضلين».

مضيفاً «إذا بقينا في الماضي نصبح ماضياً، هناك اشياء جميلة في الماضي يجب أن تبقى مكانها، وأخرى علينا استحضارها لنتغذى عليها لنضيفها إلى مادتنا الفكرية والنضالية والمعرفية، وأبو جهاد يملك الكثير».

السيد فضل الله
لحظة فراق.. لحظة إنصاف

السيد محمد حسين فضل الله العالم الفقيه المرجع الأستاذ الإمام، إمام الفقراء تأسيساً في النبعة، الخطيب، الواعظ، المحاضر، الكاتب الباحث، الشاعر.. الجميل.. مربي جيش هائل من الأيتام في مؤسسات مفتوحة أبوابها وجاهزة مقاعد الدراسة فيها في وجه المزيد من الأيتام والفقراء، رجل الدين الذي يأتيه المال الشرعي ويثير عمله غيرة أناس وأطراف ومؤسسات دولية لا تتفق معه، ولكنها تسعى لأن يكون لها شرف الإسهام في الإنفاق على ما ينفق عليه من مؤسسات رعاية وتربية وإحسان، المؤسس والراعي الذي أدرك أنه قد يرحل في لحظة ما، وقد يعني ذلك شحة أو جفاف موارد الدعم للمؤسسات وفشلها. فاشتغل على أن يكون لها ريوع وموارد دائمة. وأبدع في ذلك ومضى مطمئناً إلى أن مؤسساته لن تلحق به إلى ضريحه ولو بعد حين. كما لحقت مؤسسات أخرى مؤسسيها.

هذا الكبير كان مظلوماً أيضاً.. تماماً كما كان الكبار

والرواد من رعيله من رجال الدين المسلمين الشيعة في هذه الحقبة من الإمام موسى الصدر إلى الإمام شمس الدين.. لم يعدموا من ينصفهم.. أو من رأى أن ينصف نفسه بإنصافهم مشيحاً عمن يوظفونهم في مشاريعهم ويشاكلونهم في الأطروحة ويعانفونهم في المضامين.

هذا الرجل كان يداري الناس على قاعدة الرحمة إلى حد كبير أما في الرأي فلا..

وكان قليل المداراة للفقه الساكن والفقهاء السكونيين.. ومن هنا مدّ يده إلى الشجرة فهزها فاهتزت الألسن والأقلام والسيوف في وجهه. ولكنه استمر يطلق سراح الفتاوى التيسيرية في الفقه والتي خاف على أنفسهم منها فقهاء كبار فكتموها.. أما هو فقد استفاد من جو الحريات الذي فرض نفسه كضرورة على الفضاء الديني وفي لحظة ازدياد التعصب وصولاً إلى العنف والارهاب وما يقتضي ذلك من تنميط ضيق للفقه والفكر لتسويغ الارهاب والجهل والتخلف. هذا الرجل المقاوم.. يحب المقاومة والمقاومين.. ويناقش غيرهم في المقاومة. يعترض على حاكم عربي هنا أو هناك من دون خلفية مذهبية.. وبأدب شديد وموقف عميق ولا يمانع في التواصل وبذل النصح.

ويفهمه الحاكم العربي ويتفهمه ويحترمه ويحييه ويثق به أكثر ولا يترك فرصة للتواصل معه من دون أن يغريه بالاندلاق عليه. وهكذا كان حتى مع الذين اعتبرهم أقرب.. أحبهم ومحضهم ولاءه وتأييده، ولكنه لم يكف عن النقد

سراً وجهراً، وعندما جاهر مرة في عاصمة إسلامية قطعوا عنه الكهرباء فسكت المذياع وانسحب السيد راضياً مبتسماً.. وأغروا به صحافيين متمرنين ومتوترين ومطيعين فسألوه وكأنه منحرف أو محترف.. وبقي على هدوئه. حاولوا الحيلولة بينه وبين الموقع الأعلى في بلد إسلامي ودولة إسلامية كبيرة.. وأخبرني فأثار ذلك غضب عدد من أفراد وكبار فريق عمل القائد الكبير فرتبوا له الموعد بسرعة واحترام.. وقد حرص هؤلاء على أن يبقوا معه في فترة التضييق والتشويه والتشويش عليه.. وما زالوا ملتقين معه في فكره الاصلاحي وفي ضرورة الانتباه إلى الحد الفاصل بين الدين والسياسة.

لقد كان شجاعاً جداً عندما اختار أن يعلن مرجعيته من لبنان مذكراً كل علماء الأطراف الشيعية بأن المركز المرجعي في النجف لم يكن يلغي الأطراف التي كان لها مرجعياتها المحترمة من جميع المراجع ولكنها كانت لحظة شديدة الحرج، لأنها اللحظة التي تمت فيها المطابقة بين المرجعية والحاكمية مع تساهل في الشروط العلمية للمرجعية لصالح الحاكمية.

وهذه تحسب له سنة حسنة لا أظن أنها سوف تتكرر أو يسمع بها ثانية، بل سوف نرى تشجيعاً لمرجعيات مفتعلة من أجل أن يتوجه الناس إلى المركز المدعوم أو المستند إلى دولة تحضنه وتوظفه على أساس عدم أهلية أو مصداقية المرجعيات المصطنعة تلك!

هذا الرجل العروبي نشأةً وانتماءً واضحاً باستمرار.. الاسلامي المؤسس في الحركة الاسلامية السياسية الشيعية

والذي لامس الأممية في اهتماماته. كان لبنانياً وطنياً شغوفاً شعراً وفكراً وفقهاً من البداية.. يحلم بأن يكون لبنان منبراً للفكر العربي والاسلامي والعالمي، موصولاً ومحفوظاً ومحترماً من أشقائه العرب والمسلمين ومن شعوب العالم كافة.. كانت شيعيته مورد غذاء لإسلاميته وكانت إسلاميته حاضنة لشيعيته.. كل ذلك يجري ويتحرك في فضاء وطني لبناني عربي ودولي رشحه لأن يكون موضع ثقة الجميع وحبهم وتقديرهم في حال الاختلاف وحال الاتفاق معاً.

هذا وأنا من الجوالين الذين يرون صورته في أذهان الناس خارج لبنان ومن البسطاء إلى أهالي الاختصاص. ومن المحكومين إلى الحاكمين ومن المناضلين ضد الأعداء بالسلاح أو بالسياسة... يختلفون على أمور كثيرة... ويتفقون على موقعه الفاعل الوازن في المسار الثقافي والعلمي والقيمي والأخلاقي والأدبي والسياسي والنضالي، بحيث انه يشكل عزاء للجميع في لحظة اضطراب الجميع على الجميع ذلك انه متمسك بتوحيده متشبث بوحدويته مقايضاً أهل المحبة من المسيحيين محبة ملاقياً لهم في الوطن في لبنان الواحد تحت خيمة الايمان الكبير.. محبوباً موثوقاً من علماء المذاهب الاسلامية وجماهيرها التي سوف تفتقده كأهله وكأنه من أهلها.

المستقبل ـ الاثنين ٥ تموز ٢٠١٠

السيد محمد حسين فضل اللّه
وماراثون المرجعية

كان السيد محمد حسين فضل الله حريصاً أن لا تغيب النجف بسبب تشديد الحصار الأمني على حوزتها ومراجعها، أواسط التسعينيات من القرن الماضي، عن موقعها المرجعي الذي لا يغني عنه أي فرع وإن أصبح بحكم المركز أو أقوى (قم مثلاً).

ذلك لا يعني أنه لم يكن مرجعاً قبل ذلك، فهو مجتهد مطلق باعتراف الجميع، أي متحقق فيه الشرط الأهم من شروط المرجعية العامة التي تحتاج إلى قرار منه يجب أن يكون دقيقاً فيه لكي تتحول من القوة إلى الفعل أو من الأهلية إلى المسؤولية.

كان السيد من تلاميذ السيد أبو القاسم الخوئي وأحد وكلائه العامين، عندما عاد إلى لبنان مقيماً عام ١٩٦٦ م.. وعندما توفي الخوئي (١٩٩٤) خلفه في المرجعية لدى مقلديه تلميذه المتقدم في العمر السيد عبد الأعلى السبزواري، الذي

اعتبره السيد فضل الله مرحلة انتقالية، وكان يحيل مراجعيه عليه في المسائل الاحتياطية كما هو التقليد الفقهي. وتوفي السيد السبزواري مبكراً، فخلفه السيد علي السيستاني المحاصر لمدة أحد عشر عاماً في منزله من النظام الأمني العراقي، فاضطرب وضع الملتزمين الشيعة بالمرجعية النجفية في حين كان الآخرون يذهبون في تقليدهم تدريجياً إلى السيد روح الله الخميني الذي، وقبل نجاح الثورة الإيرانية كان عدد مقلديه في لبنان يعد على أصابع اليدين.. ثم أخذ عدد مقلديه يزداد ببطء في البداية بسبب إشكالية حزب الله مع الجمهور الشيعي، قبل أن يتحول الحزب إلى سائد سياسي في الوسط الشيعي اللبناني، ما سهل عليه إلزام قواعده بتقليد الخميني، بعدما كان قد ترك لهم الحرية في اختيار مرجعهم.. واصبحت إرادة الحزب في تحديد المرجع للمحازبين وغيرهم أقرب إلى الإلزام مع بداية مرجعية السيد علي خامنئي الذي خلف الشيخ الأراكي الفقيه المعمِّر وغير القادر على إدارة الشأن العام الإيراني من موقع المرشد، إلى أن اختار مجلس خبراء الدستور السيد خامنئي لخلافة الخميني في المرجعية الفقهية وولاية الفقيه، بناء على شهادة قدمها الشيخ رفسنجاني ومضمونها أن الإمام الخميني تحدث أمامه عن المستوى العلمي للسيد خامنئي وعن أهليته للقيادة، فتمّ انتخابه بأصوات الأكثرية مرشداً ومرجعاً طبقاً للدستور.

هنا كان من ذكاء السيد فضل الله ودقته انه اختار الظرف المناسب لإعلان مرجعيته. في حال من حصار النجف التام

وخلافة خامنئي للخميني الذي لم يكن من السهل التصدي للمرجعية في حياته لأسباب تتصل بمستواه العلمي وموقعه القيادي التأسيسي بحيث أن اختيار السيد خامنئي لم يسعفه في الخلافة التامة للخميني بل اقتصرت، وبقناعة منه، هذه الخلافة على مساحة محدودة من الذين كانوا مقلدين للخميني داخل إيران، وقد انتبه لذلك وصرح بأنه يطمح لأن تكون مرجعيته متجهة إلى خارج إيران أي إلى أنصار الثورة والدولة من الشيعة في العالم. ولم تؤثر مرجعية السيد خامنئي على حضور المرجعيات الأخرى في قم، وهنا رأى السيد فضل الله أن مرجعية خامنئي ليس من شأنها أن تعيق قيامه بدور المرجعية ؛ فتصدى لها من موقع يقينه بأعلميته، من دون أن يكون بإمكان غير المكابرين أن يصادروا عليه حقه وأهليته المعضودة بشهادة الكبار من أساتذته وزملائه وتلامذته الكثر.. إلى لياقات ثقافية تجعل مرجعيته محببة أكثر في نظر أكثرية الوسط الشيعي المنفتح على الآخرين ثقافة وحياة، وخاصة في لبنان.

لقد كانت مرجعية السيد فضل الله تبدو في عين الإيرانيين من الطبقة الحاكمة وأنصارهم في لبنان، وكأنها انتقاص نوعي يضاف إلى تعقيدات مرجعية السيد خامنئي الإشكالية. وكيف بها إذا كانت آتية من لبنان الذي اصبح في نظر كثيرين من رجال الدين والسياسيين الحزبيين محافظة من محافظات إيران واصبح الشيعة فيه وكأنهم جالية إيرانية في نظر هؤلاء؟

علماً بأن السيد فضل الله لم يكن أقل تأييداً من غيره للثورة الإيرانية ودولتها ورجالها الذين كان على علاقة بأكثرية من مرّ بالحوزة النجفية منهم. وقد كان للسيد حضور في الوسط الإيراني في النجف لا يقل عن حضوره في الوسط العربي واللبناني علمياً وثقافياً واجتماعياً. إلى ذلك فإن مرجعية فضل الله لم تكن مفاجئة ، فهو معروف منذ شبابه لدى أهل العلم والفكر والأدب في لبنان والعراق بأنه موهبة مميزة.

وفي لبنان اختار الوسط الأكثر فقراً من حزام البؤس حول بيروت.. أقام مسجده ومنزله وحوزته وإدارته لشؤون الفقراء وقاعة المناسبات التي استقدم اليها نخبة المفكرين من كل الأديان والألوان للشراكة في البحث عن خطاب معتدل.. أقام كل ذلك في (النبعة) بين الشيعة والسنة والأرمن، قريباً من الموارنة والأرثوذكس، واختار الوسطية بما هي الأفضل والأعلى والأرحب، موقعاً له بين النخبة والجمهور، بين الأستاذ والتلميذ، بين الجامعة والجامع، بين مشاغل الفقراء ومشاكلهم، بين الأديان والمذاهب وأهلها. بين الشعر والعلم، بين المدينة والقرى النائية.

بين المركز النجفي والطرف اللبناني بخصوصياته الغنية وعمومياته الضامنة. ونظم صلاته وكلامه وكتبه ودفاتره ودروسه فامتد صيته. والتزم الحكمة في الحرب رغم معاناته، إيثاراً للوحدة والسلام الأهلي الآتي.. واقتصر في عمله على الضروريات.. ونهض مع نهوض السلم الأهلي ثانية.. وأثار

غيض الكسالى وغيرة الناشطين. ولم ينسَ القضايا الكبرى من فلسطين إلى فلسطين. ومن طنجة إلى جاكرتا عابراً حدود الكيانات عائداً اليها.. عابراً حدود المذاهب غير متنصل منها.

إنها مرجعية مختلفة.. توحيدية تقريبية وموثوقة في ذلك كله. مرجعية نقدية، تتناول بالنقد أي موقف عربي، ولا تدعو إلى الحقد على أي حاكم عربي موضع نقد.. ويفهم الحكام العرب ذلك فيزدادون ثقة بها ورغبة في التواصل، ويشيحون عمن يوغرون الصدور عليه طمعاً ولو بالقليل.

مختلفة عما كنا نراه من شروط المرجعية، وكنا ننقدها.. وفي آخر النقد نميل إلى الإعجاب بها.. كنا نقول أن المرجع ليس زعيماً يومياً وليس من شأنه الخطابة أو الأدب أو الإعلام أو الشعر أو الحوار أو البيان.. ولكنه خرق القاعدة وألزمنا بهذا الخرق وأثار فينا ميلاً إلى اتباعه في ذلك.. فكان أن توفر لنا منه وممن حذوا حذوه كمّ وافر ونوعي من المقاربات الفكرية الحضارية والإنسانية التي ترى في الدين ما لا يراه سكان الكهوف اللائذون بصمت العاجزين. لقد قتل الوقت بالعمل.. حتى كان يومه يبدو وكأنه من حيث سعته شهراً تاماً.

هذا البنيان.. كان استثنائياً ولم يكن خارقاً أو معجزاً.. لأنه تحوّل من شخص إلى مؤسسات لا مؤسسة واحدة، تعمل في كل الحقول الإنسانية ويومياً وبشكل لا يضاهى في التنظيم والدقة والإنتاجية والنمو. فكيف يمكن التهوين من شأنه؟ وكيف يمكن قبول هذه المرجعية في مفصل صعب؟

من الفراغ النجفي وقتها إلى الإندفاع الإيراني نحو حصرية المرجعية من منظور سياسي؟

إن وسطية السيد فضل الله دعته إلى تحرير المساحات المشتركة بين المسلمين وإخلائها من الالتباسات الضارة والدغل القاتل والمعيق للتوحيد في تجليه بالوحدة.. فعاد إلى الذاكرة الشيعية ينقيها مما اعتبره زيادة أو ورماً.. هادفاً إلى تأسيس توجه إسلامي مشترك نحو المستقبل الصعب بدل العودة التجزيئية إلى الماضي السهل.

وكان يمكن لذلك أن يمرّ بتعليق قاسٍ أو مغرض وقبيح كما حصل، ولكنه تصدى للمرجعية!! فثارت الثائرة مدججة بكل وسائل الضغط، ومنها الأقلام التي اغترفت حبرها من دم السيد وحبره لتخوض في السيد نكراناً وافتئاتاً. ما ذكرنا بمظلومين.. ظلموا في حياتهم من بيت آبائهم.. وحلا لبعض ظالميهم أن ينصفوهم بعد وفاتهم وبسبب وفاتهم فقط.

من الإمام محمد باقر الصدر إلى الإمام موسى الصدر والإمام محمد مهدي شمس الدين.. وغيرهم.. وغيرهم من علامات معاصرتنا وانفتاحنا على الآخر كشرط معرفي وروحي ووجودي.. فلماذا كان هذا الظلم الإضافي والنوعي على السيد فضل الله؟.

تقديري أنه وعلى العكس من المشهور بأن موقف السيد من ولاية الفقيه (الفقهي) لم يكن هو السبب في ما تعرّض له من تعقيدات ومضايقات، لأنه في الوقت الذي كان فيه

حاضناً لبدايات المقاومة ومؤسساً شريكاً على الأقل، كانت له مكانته وتقديره لدى رهط ولاية الفقيه في لبنان وخارجه، وبعضهم كانوا من تلاميذه، ولم يكن يقول بالولاية المطلقة.. وهو ونظراً لموقع المرجعية الحساس والمسؤول والوازن، بكر في رسم المسافة بينه وبين المشروع السياسي الحزبي الذي شارك في تأسيسه من دون أن ينقطع عن حزب الدعوة أو ينقطعوا عنه كجزء من ذاكرتهم ومعرفتهم.. بل أن جرأته على إعلان مرجعيته هو الذي أدى إلى تصاعد الخلاف معه وبلوغه حدوداً تتعدى ما يمكن أن يترتب على مجرد الخلاف في راي فقهي.. ومن المعروف أن مراجع حقيقيين في التاريخ الحديث قد حرموا من مرجعيتهم في حياتهم أو يوم مماتهم وجُرِّدوا كما تجرد النخلة العتيقة الباسقة من لحائها أو سعفها.

وبعد النجاح في وضع السدود والعوائق أمام اتساع مرجعيته الفقهية إلى الحد الذي لا يُحتمل، من دون قدرة على الحدّ منها في المجال الفكري العابر للحدود الوطنية والقومية والمذهبية، حصل نوع من التواصل التعويضي مع السيد في حين كان قد أصبح أكثر جهراً باختياره الفقهي المؤصل للولاية المحدودة أو المقيدة للفقيه وفي الامور الحسبية حصراً، واصبح موقعه من الرسوخ بحيث تجرأ على الكتابة المنهجية في تفنيد كثير من الإضافات العقدية على المنظومة الشيعية كالولاية التكوينية التي فيما هي تريد أن تعزز مكانة أهل البيت تنال من هذه المكانة في العمق. بالإضافة إلى شجاعته في نشر فتاوى وأحكام شرعية، كان العلماء

المقتنعون بها سابقاً يمتنعون أو يخافون من التصريح برايهم فيها خوفاً من الغوغاء ومن علماء الغوغاء.. أتذكر أنه وفي مفصل ما في لبنان قال له أحد الشخصيات الفاعلة : أن آية الله فلان يقول غير ما تقول في هذه المسألة، فقال : ونحن آيات الله أيضاً.. وقد روى محاوره بذاته هذه الرواية لي.. وهنا كان مكمن العلة.

نخلتنا السيد فضل الله...
أو الصبر لحماً ودماً

أحببته أول ما رأيته في كنف مرباه رَحِمنا النجف التي ظلت تجمعنا بما أسستنا عليه من نزوع إلى الحرية في تحصيل المعرفة وتداولها... وزاد حبي له عندما سمعته يتكلم في العلم والأدب والحياة بحنان وإيقاع فيه جرح عميق ولكنه مصر على البهجة.

ثم زاد حبي ثانية عندما بادلني الحب بسخاء ودفء... وأسعدني مرات عندما انسل ليلاً ليسهر معي... كنخلة تسهر مع فسيلتها أو تسهر عليها، في منزلي البسيط في النجف.

إذاً، فقد وجدت فيه حضناً... ولكن الحضن أو الحاضن مسؤول، فلا بد من الالتزام بواجب الرعاية... بالحب والتشجيع والنقد... وقد جعلني نقده أشعر بالمسؤولية أكثر... من دون أن يتمكن من تهدئة توتري وقلقي، خاصة في ما يعود إلى المسلكيات التي فاجأتني

وفجعتني في مجال الحركة الفكرية والعلائقية في الحوزة.

ولكني. وكما قلت له في آخر لقاء قبيل رحيله. أدخلته أو دخل في نظام حياتي وقراءتي وكتابتي رقيباً داخلياً. وإن لم يكن بإمكاني أن ألتزم برأيه أو أوافق على نقده دائماً، ولكنه كان يسرني كثيراً ويقوي طموحي إلى الصواب وأحياناً إلى مخالفة السائد الذي كان يخالفه أيضاً، ولكن بطريقة مختلفة، من داخل السياق والمؤسسة، ذلك أنه عريق في هذا السياق، أما أنا فلست كذلك. أنا جديد أطمع بالتجديد، قلق مدجج بالأسئلة والاعتراض. لقد استطاع أن يداخلني ويشاركني أو يدخلني في شراكته، في حساسيته الأدبية وشعوره بضرورة التطوير، ولكنه لم يقيدني ولم يكرهني لأني لم ألتزم بقوله أحياناً كثيرة، بل كان يرتفع صوته ناقداً ويتسارع نبض قلبه محباً.

وأحببته شاعراً عندما حدثني عنه الكبار من رعيله الشعري، فقال السيد مصطفى جمال الدين إن السيد فضل الله كان يمكن أن يكون أجودنا وأثرانا شعراً لو استمر ولكنه استمر، غير أنه غيّر المسار، ذهب إلى الشعر الديني، إلى النجوى والأحلام الرعوية الإيمانية والحكمة كخلاصة للتجربة الفكرية والحياتية ولكن ظل عندي ذلك الشاعر الشاب المتمرد المتورد حباً وغزلاً ووطناً كأوطان الآخرين... غير مؤدلج.

وفي آخر لقاء، طلبت من معاونيه أن يوافوني بنماذج من شعره القديم، والغزلي خاصة، قرأتها بعناية واحترمت ما قاله

فيها... ولكني بقيت على حبي لشعره الأول، لأنه يؤكد الجانب البشري العادي غير الاستثنائي في شخصية رجل الدين الذي أراده البعض خشباً تحت شعار التقوى الظاهرية وبصرف النظر عن الواقع... يريدون أن يحرموه من الإبداع والاستمتاع بالحلال!

ولسوف أكتب... ولن أظلم خياره الشعري المتأخر والذي التزم بإملاءات المرجعية. التي لها تحديد علمي ولها تحديد شعبي وأحياناً لها تحديد سياسي. فقد تصدى للمرجعية في لحظة كانت السياسة أو السلطة قد أكملت سطوها وسطوتها على العلم والعلماء والمرجعية. ولكنه كان من الشجاعة بحيث اختار إعلان مرجعية الطرف الذي كان يُراد له المزيد من الإلغاء والمصادرة لحساب المركز الديني أو المرجعي في بعده السلطوي أو السياسي.

وثار الموصولون بالمركز على هذه الخطوة وقصفوا صاحبها بما استطاعوا، ولا داعي للتذكير إلا بأنهم عادوا ليقرأوا فيه تاريخه العلمي والعملي التأسيسي والجهادي ولربما كانوا قد فعلوا ذلك عندما تأكدوا أنهم حصروا مرجعيته وحاصروها... ولكن لم يثأر فتواصل من دون أن يزول عنه ظلم المركز... إلا في حدود غير مجزية دائماً.

أحببت فيه عمله وديموقراطيته المركزية أو مركزيته الديموقراطية على غير نموذج الأحزاب المركزية والتي تدعي الديموقراطية في إدارة المؤسسات وهي شديدة المركزية. وكنت أتورط في نقده فكرياً وعملياً وسياسياً في حدود، وفي

حضوره... ولا يزعل. وأنقده في حضور محبيه بقوة أو قسوة أحياناً ولا يصلني منه إلا عتاب قليل... أما أمام كارهيه فقد تورطت بما جلب لي خطراً وعقاباً.

وفي تجربتين، تحولت إلى مقاتل علني على المنبر في لحظة حرجة من لحظات الفتنة في الجنوب وكدت أن أعاقب، وعوقبت بالاعتداء الكلامي علي. ومرة أخرى، في مؤسسة أم... كان فيها شياطين يحاولون إغراء الرمز الكبير بالموقف الصغير، ودفعت الثمن غالياً عندما اعترضت... عندما شلحت على الأرض كتاباً ظالماً للسيد كان يوزع مجاناً.. انتصاراً للسيد احتجاجاً على قلة الوفاء.

أحببت مؤسساته... وكنت أقول دائماً بأنه نجح ويجب أن يدعم في ذلك. والنجاح بذاته قيمة... له ولنا... وللأيتام وسائر التلامذة الفقراء... وسائر الفقراء. وكنت أنقده في ذلك... أنتقد ما يسمى فردانية، وفي لحظة انتبهت إلى أن المتحد الاجتماعي والديني الذي أنتمي وينتمي إليه السيد لا يستطيع أن يعمل مع مؤسسة تداولية... وأن الواحد منا إن كان كبيراً كبر أو تكبر على المشاركة فإن كان غير ذلك لم يكن قادراً على الالتزام بمقتضيات التراتب في العمل... فالجماعية في العمل انتهت دائماً إما إلى الخراب وإما إلى استئثار البعض دون الشركاء. وقد كتب السيد من زمان تحت عنوان: «مشاريع دينية بلا دين». لقد آثر أن يعمل لا أن يمتدح ولو بالباطل... فشكل مؤسسته... منظمته ممن يوافقونه ولا يصادرهم ولا يحرصون على مخالفتهم

فكان أقرب إلى رب العمل بروح القائد والمرجع. ومن هنا، كان نجاحه. أما أنها أسرية فهي كذلك وأنا أتحفظ عليها. ولكن، هل هناك ممن يؤاخذونه عليها لا يتصرفون بشكل عائلي أو أسري وغير مفيد أو ضار بالجماعة (الطائفة) وغيرها، وهناك طبعاً من ينقد عن قصور. والآن، لكم أغنى أن تثبت المؤسسة بكل العاملين فيها ومراتبهم أنها مؤسسة على أساس متين وأن رعاية السيد مستمرة فيها... وإلا فسوف يتحسر المحبون أكثر على رحيله، على أن هذا الرجاء كما أعرف تتوفر له عناصر التحقيق.

كنت في النجف مع ثلة من المهمومين فكرياً نقرأ ونكتب ونعد أنفسنا أن نضارع أو نسبق نماذج باذخة... السيد محمد تقي الحكيم والشيخ محمد مهدي شمس الدين والسيد محمد حسين فضل الله... ونغيب عنهم ونعود إليهم... فيخيب أملنا لأننا نجدهم قد تقدموا علينا أضعاف ما تقدمنا نحوهم. وبقيت حتى الآن كما قلت للسيد بأنه تحول مع الآخرين، الحكيم وشمس الدين، إلى رقباء على حبري وحرموني من قول كثير مما أردت قوله... حتى إذا غاب واحد منهم أردت أن أكتب ما كنت قد أوقفته حرصاً على رأيهم وخوفاً من (زعلهم). ولكني لا أكتب لأن احتمال الاختلاف تحول في داخلي إلى ممانعة... وهكذا نجوت من كثير من الاستعجالات.

ولأنه عالم حقيقي... كان شاباً حقيقياً وفي لحظة انكشاف مشروع الدولة في الوطن العربي، كان واحداً، وإن

مميزاً من الشباب العلماء الذين انخرطوا أو أسسوا أطراً سياسية وحزبية، للتغيير بالثورة والانقلاب بعد نشر الفكرة والفكر الإسلامي الذي يسندها... وقد كانت شراكته في «حزب الدعوة» مدخلاً واسعاً إلى بيت الوحدة والتقريب بين المسلمين الذين اختاره نهجاً من دون أن يتنصل من خصوصيته الشيعية... بل وقبله الآخرون محترمين فيه عدم الميل إلى النفاق أو المجاملة... مكتشفين رسوخ عقل وفكر التوحيد في تكوينه ووجدانه... وإن كانت بعض الأحداث تلتبس عليه أحياناً فيبدو وكأن أمراً قد طرأ على وحدويته... وكان البعض يفسر ذلك بضغوط معينة عليه... أو أنها اللحظة... أو أخطاء الآخرين في التصرف... ولا يخلو أي بيت أو طائفة ممن لا نقص في خبثه أو غبائه.

لأنه كان شاباً حقيقياً، أراد أن يكون شيخاً... قائداً حقيقياً... من دون اختزال أو (انخزال) فقرر أن يتصدى للمرجعية في ظرف حرج وبعد صبر يؤكد حكمته وعقله المنظم. وفي لحظة أصبحت فيها مرجعية الطرف الشيعي أمراً محظوراً لا مجرد سلوك تاريخي تأسس على مرجعية النجف من دون أن تعمل هذه المرجعية على منع التفريع لصالح المركز المرجعي المتعدد في الأصل. ولم تكن مرجعية النجف تحمل هواجس سياسية خاصة... بل كانت تمارس اعتراضها واحتجاجها من موقع المسؤولية الأخلاقية ومن موقع المواطنة.

ومبكراً، وفي أواسط الثمانينيات، أبلغ السيد قيادة

«حزب الدعوة» بأنه يعتذر عن مواصلة عضويته في مجلس فقهاء الحزب مع ثقته بزملائه الآخرين، ولم يعاد شباب الحزب وقيادته التي اتفقت أو اختلفت معه أو فيما بينها. لملم دفاتره الحزبية، وفتح كتاب المرجعية على أهلية يراها كثيرون مزينة بشروط جديدة اقتضاها المستجد في الحياة والمعارف.

وكذلك فعل الإمام السيد محمد باقر الصدر وكأنهما عادا فاكتشفا أن العمل الحزبي والحرفة السياسية هي مقام افتراق وشقاق بينما المرجعية هي مقام انعتاق واتفاق... فانعتقا وذهبا إلى الوفاق مع القاعدة المؤمنة الموصولة بقواعد الوطن والاجتماع الوطني بكل تلاوينه وألحانه... من دون استنكاف عن إعلان الموقف في اللحظة الداعية إليه ومن دون توقع حصول الإجماع على صوابه دائماً... وقدرت له ذلك كل القوى السياسية حتى التي تختلف عنه أو معه.

وبعضهم اندفع نحوه للتعويض عن الماضي من جهة... ولأنه اكتشف أن موقعه لا يتزعزع وأنه حاجة تصل إلى حد الضرورة وهذه براغماتية مقبولة بشرط أن تكون خالية من الدغل وشفافة.

وآخرون لم يقصروا... فعادوا إليه معترفين بدوره التأسيسي الرائد في أفكارهم وأعمالهم... وأصبحت لدينا حالة من التنازع أو التجاذب الشيعي لشخصية السيد. وكان رضاه مطلوباً ولو شكلاً بصرف النظر عن كونه راضياً أم لا. وهو يرضى ولكنه لا يمتنع عن الشكوى إذا ما وجد أذناً تبث

إلى القلب لا في هواء العصبيات.

أليس من هنا كانت له هذه المكانة في العالم العربي والإسلامي الذي يختلف معه ويتفق ولكنه يقدر ويحترم ويسعى إلى اللقاء والإصغاء؟ هنا يتمايز العرب عن غيرهم، على ما فيهم من مساوئ، يتمايزون بأنهم يحبون المعتدل والمستقيم والصريح والشجاع حتى لو كان ضدهم. وقال كلاماً سلبياً عنهم... في مقابل آخرين يزعجهم الحب... وأحياناً يزعجهم الإخلاص والصراحة والتشبث بالاستقلالية لما فيها من مصلحة مشتركة.

تحية له... صابراً على المرض منذ عقود وصابراً على الأذى منذ عقود... كأنه تمرن في الصبر على المرض الجسدي ليتأهل للصبر على القهر الروحي... أو العكس... هذه الدنيا عكوس... عكوس... أما الآخرة فهي استحقاق الفرد لا جماعته التي قد تنصفه وقد تظلمه ولكنها لا تأخذه إلى الجنة ولا إلى النار... هنا يحلو لنا أن نقلد السيد محمد حسين فضل الله في اجتهاده في الصبر على الأعداء والأصدقاء معاً.

رحمه الله الرحمان الرحيم كفاء رحمته التي ترجمها مياتم تعيد اليتم إلى مفهومه الصحيح (الفرادة) وهنا كانت فرادته... كأنه يتيم قد يكون هناك... أو أنه هناك وهنا وهنالك من هو أعلم منه... ولكنهم أو بعضهم لأسباب ذاتية أو موضوعية أو منهجية أكاديمية محترمة لا تميل إلى تسييل محتواها العلمي اجتماعياً فينعزلون. أما هو فقد اختار

أن يكون نخلة عربية يزينها الإيمان الكبير والإسلام الواسع الرحب العظيم بالسعف والمذاق الرطب. وهي شاخصة يراها البعيد والقريب من دون أن يتعب بصره أو بصيرته.

نخلة طويلة... طويلة... من لم يحسن ارتقاءها لذوق جناها، قصفها بحجارة الكلام فلم يأته منها إلا ثمرات معطوبة وغير سائغة.

أما الأصفياء وأهل المحبة، وإن اختلفوا، فإنهم يهزونها كما هزتها العذراء فأسقطت عليها رطباً جنياً... والنخبة... الكلمة الطيبة الراسخة في الأرض تؤتي أكلها كل حين... كلما ارتفعت نحو السماء اتسع ظلها على الأرض ونعم الأحبة بفيئها... ظلاً وارفاً هو ظل الروح وإن غاب الجسد... وغلالاً وعطاءً متجدداً من الحبر الذي لا يجف وإن جف الدم في الجسد وانهمر دمعاً مالحاً على وجنات الأحبة... «دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا».

إلى ظل الله هانئاً مضى... وهنيئاً له هناك ما يطعم جزاء على أطعم.

جورج حاوي قتل عقاباً له
على المستقبل لا الماضي

الظن أو الشك أو اليقين من دون توجيه تهمة لا مؤاخذة عليه في الشرع والقانون، أما إذا وصل إلى التهمة ومن دون دليل فإنه في الشرع يصبح (قذفاً) يستحق العقوبة. . . مَن قتل جورج حاوي؟ أنا أظن ولا دليل لدي، والظن منشأه سياسي وليس قانونياً، من هنا فأنا أميل إلى السؤال من الذي قتل جورج حاوي وأترك للتحقيق تحديد من قتله، من دون أن أكون مطمئناً إلى أن ذلك قد يحصل، لأنه لم يحصل ولا مرة حتى الآن، من نسيب المتني إلى معروف سعد إلى مروان حمادة والشهيد الرئيس وسمير قصير!!! إذاً، ما الذي قتل جورج حاوي؟

جورج حاوي الشيوعي مارس نقداً شجاعاً إلى حد المبالغة أحياناً، نقداً علنياً لشيوعيته فكرياً وسياسياً، وعلى المستوى الأممي والقومي والوطني اللبناني، وإلى حد أنه

جاهر أنه هو الذي فتح باب البيروسترويكا، في لبنان وقبل غورباتشيف، وإن كان جورج حاوي مميزاً في ذلك فإنه لم يكن متفرداً في نقده، بل إن ورشة النقد الشيوعي للتجربة عمت الشيوعيين اللبنانيين ولم يتخلف منهم إلا من كان أقرب إلى التخلف. وهذه الورشة كانت مشهداً اختلافياً وحوارياً معاً وبنفس القوة، وإلى حد السجال أحياناً.. هذا وقد قتل جورج حاوي غداة موعده مع النائب المنتخب الياس عطاالله ممثلاً لليسار الديموقراطي أحد تشكلات الحزب الشيوعي الجديدة، ومن المفترض أن تكون غاية اللقاء، هي تعميق الحوار وتوسيعه شيوعياً أمام الاستحقاقات القادمة، والشعور بالفاجعة لدى الشيوعيين بعيد الحادثة كما ظهر، يؤكد موقع جورج حاوي، في السياق الشيوعي التقليدي وأنه ليس مشروطاً بالتطابق، وكان واضحاً أن الشيوعيين الحزبيين وغيرهم، كلما ارتفعت سخونة نقاشهم مع جورج حاوي، كانوا يعودون اليه كضرورة لا قدرة لهم ولا مصلحة في تخطيها.. خصوصاً وأنهم عاينوا ولمسوا صوابية آرائه ولو بعد حين وتباعاً من دون استثناء.

وجورج حاوي سارع مبكراً وصريحاً ومغامراً للوهلة الأولى إلى نقد شراكة الحركة الوطنية في الحرب اللبنانية كشرط لإعادة تأسيس السلم الأهلي على المصارحة والمصالحة والديموقراطية، وتنفيذاً لبند العيش المشترك في ميثاق الطائف في شرطه السياسي.. مشجعاً كل الأطراف الأخرى في الجبهة اللبنانية والقوات على المراجعة التي

أخذت تتجسد سلوكاً ملحوظاً لدى الكتائب إلى الأحرار إلى القوات، وإن كانت قد افتقرت إلى خطاب شامل نقدي وواضح وتفصيلي للماضي.. إذاً، فجورج حاوي ومنذ دعوته إلى اللقاء في منزله في بتغرين وبحضور شخصيات وقيادات مختلفة من أمين الجميل إلى وليد جنبلاط مروراً بنسيب لحود وغيرهم، ومنذ زيارته المبكرة للدكتور سمير جعجع في منزله قبل سجنه، دشن عملياً ورشة نقد الماضي من أجل المستقبل وبالصوت العالي، لتأتي الانتخابات الأخيرة، بكل تعقيداتها وتداخلاتها، وكأنها تطبيق ميداني لنتائج الحوار والنقد والتواصل، من بعبدا ـ عاليه إلى الشوف إلى الشمال.. بالطبع لم يكن جورج حاوي وحده، ولكنه كان مميزاً في نزوله من برجه الشيوعي إلى الأرض بما هي سطح وأعماق، مكوناً وعياً جديداً مسهماً في تشكيل وعي جديد كان يتكون به ومن دونه، ولكنه آثر أن يكون مصدراً من مصادر حيويته.

واستكمالاً للمسار الذي اختاره تصحيحاً للصورة واستشرافاً للآتي تحرك جورج حاوي باتجاه بكركي معلناً ثقته بها واحترامه لموقعها ودورها، وجاء استكماله للحوار مع القيادات الروحية المسيحية، وكلامه العلني عن رغبته في أن يتواصل الإيقاع بين قرع أجراس الكنائس والآذان في المساجد، مسحاً لصورة جورج حاوي من الذاكرة المسيحية كقيادي معادٍ وشريك للحركة الوطنية في الحرب البائدة التي عملت القيادات الروحية جميعها على تفاديها وايقافها مثبتة أن

الدين كان ذريعة ليس إلا. . وهذا ما عاد جورج حاوي فأدركه أو سلم به وتصرف على أساسه، وعلى أساس أن تكوين لبنان هو هذا، وتطويره من داخله هو الأجدى، ومن المرات القليلة التي زارني فيها جورج حاوي، مرة كان فيها فرحاً مستبشراً بالحوار الصريح والحميم الذي أجراه لتوه مع السيد حسن نصرالله والجماعة الإسلامية، معتزاً بشراكته في تأسيس المقاومة محتفياً بإنجاز التحرير محترماً الإسهام الأكبر للحزب في تحقيقه.

هذا في حين كان الحزب والجماعة قد أنجزا أدبياً وعملياً توجهاً ومساراً وطنياً متحرراً من العقد التاريخية والإيديولوجية الفاصلة، وصلت أخيراً إلى حد اعتراض حزب الله على خلو اللائحة الموحدة في الجنوب من مرشح شيوعي. وعلى المستوى العلاقة بالمرجعية الدينية الإسلامية قام جورج حاوي بزيارات متكررة وحوارات معمقة مع سماحة مفتي الجمهورية والمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى وسماحة السيد فضل الله. . . ويعرف الكثيرون مدى استلطاف القيادات الروحية لجورج حاوي. . . هذا ولا أحد ينكر عليه تصديه لمقاومة الاحتلال في الأيام الأولى مع شريكه التاريخي الصامت ببلاغة محسن ابراهيم. كما لا ينكر عليه أحد توازنه في علاقاته مع الأطراف الفلسطينية في لحظات الاختلاف. ما يعني في النهاية أن جورج حاوي قتل إبان اكتمال وسطيته واعتداله ونزوعه إلى التسوية من خلال الحوار الدائم والشامل وعلى جميع المستويات ومع كل

الأطراف والحساسيات.

أي أنه قُتل عندما استكمل إعداد نفسه لاستقبال لبنان الآتي، المعقد والصعب والجميل والواجب على الجميع، وبالشراكة بين خصوم الأمس المتقاتلين اليائسين من جدوى الحرب، العائدين إلى الاختلاف على قاعدة التواصل وإلى الحوار على قاعدة التكامل بين المختلفين وإلى الوحدة على قاعدة التعدد.

قتله إذن يعني أن الاعتدال والتوازن والوفاق والتعدد والحوار والتسوية والوسطية والعيش المشترك والمواطنة ممكنة وعظيمة، ومرفوضة لدى طرف ما، استثناء، ولكنه متعدد، يجمع كسوراً من متناقضين متفقين على السلبية ضد المستقبل، ضد عدو مشترك هو لبنان الناهض بالسلام الداخلي الحديث بلا مبالغة والأصيل بلا عقائدية متحجرة. قتل جورج حاوي عندما اكتملت نقلته من الإيديولوجية إلى الثقافة والسياسة ومن الانغلاق الحزبي إلى الانفتاح ومن العقائدية إلى الواقعية الوطنية والبرنامجية والميثاقية.

في كل ذلك، ليس جورج حاوي فرداً، هو حالة أصبحت الحاجة اليها أشد إلحاحاً بعد الضجيج الطائفي الأخير، والذي جاء (مخلوطاً) بكلام وطني وتغييري ملتبس الدلالة، مؤشراً على عقبات لا بد من معالجتها وعلى ضمانات في أمثال جورج حاوي لا بد من حمايتها، لأن هناك نية في اجتثاث الاعتدال والمطلوب من المعتدلين أن يتطرفوا في اعتدالهم حتى الشهادة، لا القتل، لأن المعتدل لا

يقتل أحداً، ولكنه معرض للقتل ومطلوب منه المزيد من الحيطة من دون انكفاء، أي أن يشهد حياً أو ميتاً.

إذاً، وبالمزيد من الاعتدال يخسر قاتل جورج حاوي، وينتصر الاعتدال وأهله، ينتصر لبنان، ينتصر المستقبل الذي نبنيه بالشراكة، ونسقط قتلى على طريقه وفرادى إن لم يتعاظم وعينا بدورنا وبالأخطار المحدقة به... وبنا.

جورج حاوي الذي لا يُستغنى عنه ولا عن الخلاف معه

أنا رجل دين منحاز إلى ذاتي وحالي أي طبقتي أي الشريحة الأدنى مادياً من الطبقة المتوسطة.

وقد تمظهر ذلك كثيراً خلال حياتي وكانت المظاهر أقرب إلى التطرف، أو الراديكالية التي حصّنتني وحصّنت أمثالي من كثير من الخيانات وأوقعتنا في كثير من الأخطاء التي كان يمكن أن تقتلني أو تقتلنا لو لم نستدرك حالنا بوعي وسطي اعتدالي لا يفتقر إلى الحس الطبقي بقدر ما يبرأ ويتعافى من السلوك أو الخطاب الطبقوي. من هنا جاء توصيفي باليسارية، التي يصعب عليّ نفيها، متمسكاً بقناعتي بأن اليسارية الحزبية أو العقائدية هي التي تنقلب إلى نقيضها وتتحول إلى خيانة، لأنها ملغومة بالحسد والطمع الطبقي لا الصراع الطبقي.

أما يسارية الانتماء، أي الانحياز إلى العدل والكادحين والفقراء والديموقراطية، فهي تكوين قد يصبح مع الزمن والتجربة أشد تهذيباً ولكنه يبقى عميقاً ويصبح عاقلاً وأقرب إلى الواقعية إذا ما توفر له وعي وضمير يواكبه.

هذه الحساسية والتعبير اليومي المختلف عنها، بدءاً من النجف وانتهاء إلى قريتي جبشيت، وضعتني في حالة التباس في وعي الآخرين، محبين وكارهين، ووصفت بنعوت سياسية متناقضة، كان الأسهل فيها أني شيوعي، ما جعلت حساسيتي ضد الحزب الشيوعي تتفاقم وتتمظهر بمظاهر عديدة وحادة أيضاً، من دون أن يؤثر ذلك في القول عني شيئاً. فأنا شيوعي رغم شغبي المبكر على الحزب الشيوعي، من دون أن يؤدي ذلك إلى عداوة أو قطيعة مع الشيوعيين. ورغم شغب الشيوعيين علي وبحثهم الدائب عن صداقات لهم في أوساط رجال الدين رداً علي. وقد وصل بي الشغب عليهم إلى حد تفكيري مع أصدقاء آخرين في اختراع بدائل ثقافية لمؤسساتهم، وفي مقدمتها المجلس الثقافي للبنان الجنوبي... فشكلنا منتدى أدباء الجنوب عام ١٩٧٢ ومارسنا نشاطاً ملحوظاً لم يلبث أن تباطأ.. إلى أن جاءت الحرب اللبنانية وأصبح الانقسام اللبناني عمودياً، فذهب الأصدقاء إلى أحزاب اليسار، وأكثرهم إلى الحزب الشيوعي... أواخر ١٩٧٢ قبل الحرب وبعد تجربة المنتدى أو معها دخلت في حركة مزارعي التبغ على خلاف مع الشيوعيين الذين لم يكونوا متحمسين تماماً للانتفاضة بسبب النشاط الملحوظ لحزب البعث في مقدماتها. وعندما تعاظمت الانتفاضة دخل فيها الشيوعيون باندفاع.

وبدأ التحضير لتشكيل نقابة للمزارعين بديلة للنقابة القديمة المقصرة في حق المزارعين. والتقينا بحضور كمال

جنبلاط مع كل الأطراف الحزبية الوطنية.

لفتني جورج حاوي الذي سجل هدفاً ضايقني جداً على رومانسيتي الثورية والديموقراطية، عندما أصررت على أن نأخذ تواقيع كل المزارعين على ترشيح مندوبهم إلى مؤتمر عام ينتخب النقابة... وقال جورج حاوي: إذاً يا سيدنا نحتاج إلى سنة على الأقل لاختيار المندوبين، وحينئذٍ نكون قد وصلنا إلى حد من الجدل والاختلاف بحيث تصبح النقابة القديمة هي البديل وتنتهي الانتفاضة... إذاً، فلا داعي للدلع الديموقراطي ويمكن التواطؤ مع عدد من المزارعين حتى نكمل المهمة وإلا فات الأوان.

زعلت يومها وقاطعت وتشكلت النقابة ووجهت تحية إلى رجال الدين الذين ساعدوا على نجاح الانتفاضة، وأصبح أحد الشيوعيين نقيباً.

واعتبرت جورج حاوي مسؤولاً عن ذلك، فازدادت رغبتي في الشغب على الشيوعيين، وهنا تعمقت علاقتي بحركة فتح وأنا في نيتي أن استخدمها ضد الشيوعيين، إلى أن توفي المرحوم فهمي شاهين نائب النبطية، وطرح اسمي مرشحاً وطنياً. وعلمت أن الشيوعيين عارضوا بشدة، وبعد ثلاثة أيام من مفاتحة كمال جنبلاط بالموضوع، عادوا ووافقوا بحماس وكتب كريم مروة عن وجهة نظرهم في النداء، وعندما حاولت معرفة السبب، اكتشفت انهم قيموا الموقف ميدانياً واحتملوا النجاح بقوة. وعندما بحثوا عن مصدر أمان لهم لدي قيل لهم بأني على علاقة بالمقاومة الفلسطينية فأدى

ذلك إلى أن يعتبر جورج حاوي علاقتي بالمقاومة ضماناً.

واعتذرت عن الترشيح لأسباب لا داعي لتكرار ذكرها. ولم يؤدِ ذلك إلى تحسين علاقتي بالشيوعيين، بل ازداد التوتر وأصبحت أقرب إلى الإمام الصدر، في هذه الفترة، رغم أني كنت قد ساعدت جزئياً في وصول اليسار إلى الهيئة التنفيذية في المجلس الشيعي الأعلى، ما أدى إلى اكتشاف مشترك بين الأمام الصدر وشخصيات اليسار لبعضهم بعضاً، حتى إن الأمام الصدر قال لي يوماً: إني لم أكن أتصور كيف يمكنني أن أجلس جلسة حوارية حميمة طويلة مع جورج حاوي ومحسن ابراهيم ولكني الآن اشتاق اليهما كثيراً، وعندما بلّغت محسن ابراهيم وجورج حاوي هذا الكلام، قالا لي: إننا على استعداد للانتقال إلى المجلس والدوام فيه لأن الإمام الصدر ألطف بكثير من رفاقنا في الحركة الوطنية.

ولم ينتهِ التوتر... خصوصاً وأن الأجواء الفتحاوية التي عايشتها واقتربت منها كانت أقرب إلى الماوية، إضافة إلى تكويني الديني والعروبي واضطراري إلى نفي تهمة الشيوعية عني. وهنا التقيت بالإمام الصدر على مسألة المقاومة اللبنانية، وانتقلت إلى العرقوب للتأسيس لها ميدانياً.

واستاء اليسار وفي المقدمة الشيوعيون وعلى رأسهم جورج حاوي ومنظمة العمل الشيوعي وعلى رأسها محسن ابراهيم وبعض قيادات اليسار الفتحاوي.

ويوماً ما كنت في بيروت فدعاني أبو داود وصخر حبش

للذهاب بصحبتهما إلى مكان لم يحدداه لي. . . ودخلنا وكان في الصالة أبو صالح وجورج حاوي ومحسن ابراهيم وأحمد الأزهري. سلمنا فرد علينا أبو صالح وأكمل كلامه. . . وكان المقطع الأخير هو التالي: أنا ذهبت إلى العرقوب وقلت للشباب أن يمنعوا الشيخ هاني فحص من التردد ومن أي نشاط هو ومن معه ولو بالقوة.

فاصفرت الوجوه، وعض لي صخر حبش على شفته مقترحاً السكوت، فلزمت الصمت. وما هي إلا دقائق حتى غادر جورج حاوي ومحسن ابراهيم وأحمد الأزهري وبقينا مع أبي صالح الذي التفت الي وقال: لم تعرفوني بجناب الشيخ. فقلت: هاني فحص فانفجر ضاحكاً. وقال: إذاً، ما هو السر؟ فشرحت له وجهة نظري، وبسرعة تناول سماعة الهاتف وتكلم مع جورج حاوي معاتباً بقسوة أحياناً وظرف أحياناً. . .

وعندئذٍ طلب منه جورج حاوي أن يعطيني السماعة وسمعته يقول: واحدة بواحدة يا شيخنا. . . سامحنا ويمكن أن نتفق. . وأضاف: أنا رأيي أنك من خارج السياق وطيب النية، ولكنك لا تعرف أعماق صراعاتنا السياسية ومصالحاتنا كذلك. . . أرجو أن لا يدعك أصدقاؤك المخلصون تدفع أثماناً لست مضطراً إلى دفعها. . . وأخذت بنصيحته من دون أن أخون اصدقائي.

وانتهت الحرب، وانتهى الاتحاد السوفياتي، وعدت من طهران محباً لها ولدولتها وثورتها وقيادتها وإسهامها الرائع في

المقاومة ولكني أقل إيديولوجية وأقل توتراً إسلامياً جاءني بعد الخيبة القومية، خيبة الحرب وخيبة الاحتلال وعدم الحماس للجمهوريات الإسلامية وأشد ميلاً إلى الاعتدال وأكثر بحثاً واستئناساً بالمعتدلين من كل الألوان... وكان جورج حاوي كذلك قد شفي من أمراضه الشمولية وصارت وطنيته اللبنانية أشد عمقاً وانفتاحاً... فتحاببنا كثيراً... واستخدمنا ماضينا السجالي في إقامة العلاقة على المودة والاحترام. ويوماً فاتحني بعض الشيوعيين القدامى بأن في قدرتي السعي لرأب الصدع بين الشيوعيين بعدما انتهوا من مرضهم العقائدي نصحني بالجلوس مع جورج حاوي الذي لا يُستغنى عنه ولا عن الخلاف معه. كتبت مقالة في هذا الشأن بعد مقالتين شديدتين في نقد الحزب أيام رئاسة جورج حاوي من دون أن تكون ردة الفعل سلبية من جانبه... وكانت ردة فعله وفعل الشيوعيين على المقال الثالث إيجابية جداً.

ولم ألتق جورج حاوي إلا مرة واحدة في منزلي، حيث كان عائداً من لقاءات حوارية معمقة مع قيادات روحية إسلامية ومع السيد نصرالله فرحاً بما أنجز من دون أن يتخلى عن النقد الذي أصبح أكثر موضوعية وشفافية.

آخر اتصالاتي بجورج حاوي كانت بعد كتابتي مقالاً معروفاً ناصحاً للشيوعيين. قال لي جورج حاوي على الهاتف: يا أخي وجدنا حلاً هو أن تصبح أنت أميناً عاماً للحزب. فقلت له: إن ذلك لا يعني أن الحزب تقدم بقدر ما يعني أنني أنا شخصياً قد تأخرت فجلجل ضاحكاً ومضى.

ومرة أخرى هاتفته مهنئاً بزواج كريمته ومازحته قائلاً أنت تزوج كريمتك، أما حفيدتي فسوف تدخل الجامعة بعد سنة، ولو كنت تعرفت عليكم مبكراً وانسجمت معكم لما كان حصل ذلك، فقال لو كنت فعلت ذلك لما كنت تزوجت ولا أنجبت.

إذاً فأنا أحب جورج حاوي بقدر ما اختلفت معه، وهذا الحب ازداد عندما التقينا على مفرق الاعتدال... فهل أخاف على نفسي بعد مقتله؟ إن الخوف من شأن العقلاء والمعتدلون عقلاء فلا بد أن يخافوا على أنفسهم من الاعتدال، ولكنهم لن يخافوا على لبنان من ذلك.

"جورج حاوي" المقتول بسبب "لبنان"(*)

أبسُط الآن بعد سنتين من شهادته صرة ما يجمعني بـ"جورج حاوي" وما يوجعني ويمتعني بشهادته. راجياً أن يكون لديّ من الحبر ما يكفي.. خصوصاً أننا نعاني من جفاف يمتد من المحيط إلى الخليج ومن فلسطين إلى فلسطين ومن مرمى الثلج إلى فقش الموج. لست معنياً بحساب الفوارق بين كونه ماركسياً أو مادياً وكوني مسلماً محمدياً على ايقاع نهج البلاغة.. أي مثالياً بتعبير أدبيات الماركسية التي جذبتنا سهولة محدودة فيها أكثر مما شدّتنا أسئلتها أو الأسئلة عليها، والتي ما تزال مطروحة، وإن كف الكثيرون عن طرحها، ومنها السؤال اللاهوتي عن الله والدين. بعد انسداد التجربة الشيوعية لأسباب تراوح بين الداخل والخارج، بين المنهج والتطبيق، جراء التشبث بحقائق أو فرضيات نسبية، أي ضد الماركسية في النهاية، بما هي فلسفة في التفسير والتغيير، ومشروع مفتوح على المستجد في نظام المعرفة وأدوات

(*) حزيران ٢٠٠٧.

التحليل والمشروع السياسي أو الاجتماعي المتركب عليها.

وهذا أمر، لا يقع الدين، والإسلام خاصة، بمعزل عن فضائه، بمعنى أن القراءة النسبية للنص الديني هي الطريق الحصري للحفاظ عليه، حتى لو انتقلت المعرفة به إلى معرفة مغايرة طبقاً لجدل الثابت والمتغير وأثره في إعادة انتاج المعرفة.. كأن مرضنا واحد، وبذلك يكون دواؤنا واحداً.. ولولا النقد الديني لتعطل الدين وقد تعطلت الماركسية عندما تعطل النقد أي العلم بها وتحولت إلى إذعان حوّل الناقدين إلى منشقين أي كفرة ينفون أو يقتلون.. والآن هناك وعد أو وعيد بتعطيل النقد الديني لتغطية الهجوم على الدين بالدين.

أسارع هنا إلى إعلان تضامني مع جورج حاوي في تشبثه بالنقد، وإن متأخراً، سبيلاً إلى الصواب، وأرى في شهادته عقوبة على تلبسه بذنب طلب الحقيقة.

التقيت جورج حاوي أيام كان أقرب إلى الأرثوذكسية أو السلفية الماركسية وأنا اقرب إلى الأرثوذكسية أو السلفية الشيعية مجازاً. لأن ثنائية الاجتهاد والتقليد واشتراط الحياة في المرجع تعيق تحقق سلفية شيعية إلا في حدود التمثل بالآخرين كما نشهد من نزوع شيعي إلى التمثل بـ(بن لادن) مثلاً.

ولأن السلفية مزاج فإن العلم على أساسها يقع خارج العلم الذي يشترط السيرورة لذاته ليكون علماً، بينما السلفية تودي إلى حبس الثابت في الذهن، تحول العلم إلى ذهان،

ومن هنا تأتي الشمولية بكل تجلياتها.. فتمنع الثابت من التعرض لشمس النقد وهواء الأسئلة، وتحجب المتغير، على أساس أن الحقيقة والمثال ناجزان، ولا داعي لتحريكهما أو ازعاج أنفسنا بالبحث وإنتاج الوعي المشترك.. وهذا أدى ويؤدي إلى تثبيت غير الثابت، أي تقديس غير المقدس، من خلال اختزاله في أنظومة مفهومية تحوله من مصدر للاحتمال إلى خرافة. سلفيتي المحلاة بمفردات حداثية.. وسلفية الشيوعيين وجورج حاوي، أدت في سبعينات القرن المنصرم، إلى فراق فكري غير عدائي، ولم يلبث أن مال إلى شيء من اللطف إبان انحيازي الوجداني أساساً إلى المقاومة الفلسطينية، واندماجي مخترقاً إغراءات لاصقة بجبتي، في حركة مزارعي التبغ رفاقي ورفيقاتي منذ الطفولة في المشتل وليل القطاف وخيمة الشكاك، والفاجعة يوم تسليم المحصول إلى الريجي، من دون أن يكون ذلك كافياً لامتلاكي الرؤية السياسية الملائمة ولا غير الملائمة لهذا المسلك النضالي.

في حين أن جورج حاوي، وأنا هنا أتكلم عن شخصه وعن كونه معادلاً على مدى ما يزيد على عقدين من الزمان، أي حتى انهيار الاتحاد السوفياتي واهتزاز عمارات الأحزاب الشيوعية في الأطراف، معادلاً للحزب الشيوعي اللبناني برمته، خارج الانشقاقات الفردية من قدري قلعجي إلى هاشم الأمين إلى نسيب نمر لاحقاً، وخارج حركة اتحاد الشيوعيين الذين أحببت متأخراً بعض من أسهم فيها من دون أن أفهمها.. عوداً على بدء.. في حين أن جورج حاوي، كان قد

أتى من دون أن يكون ضيفاً مثلي، إلى المقاومة، من ضرورات وطنية ذات نكهة براغماتية على سوفياتية، وفيها الكثير من مسايرة السائد القومي، وهذا ليس مديحاً، إن لم يكن نقداً.

وما يستحق المديح هنا هو أن جورج حاوي على العكس مني، لم يكن يُمارس التبسيط السياسي تحت ضغط الإيديولوجيا، التي تعني في حالتي وحالة أمثالي غياب السياسي، ما يفسر إحباطاتنا المتكررة، والمأخذ الحقيقي عليه هنا وعلى حزبه، أنه غلب الذرائعية السياسية على المطلبية الوطنية، فكان شريكاً أساسياً في الحرب، وفي حين لم يتعد خطأ أمثالي بعده الذاتي أو الشخصي، أي الاندفاع العاطفي العشوائي مع المقاومة حد التماهي ونسيان الوطني من أجل القومي، ما أدى في مسيرة حركة التحرر العربي إلى الإضرار بالقومي والوطني معاً.. أقول قولي هذا من دون جلد لذاتي، ولكن هذه العفوية لا تشكل سبباً تخفيفياً، خاصة أننا جميعا أسهمنا في تضليل المقاومة أو زيادة ضلالها من خلال التماهي معها. ومن دون أن تكون ارتكابات اليمين اللبناني مسوغاً تاماً لارتكاباتنا. وهنا أخشى أن يستمر هذا النهج سائداً في الحراك السياسي اللبناني الراهن أي تبرير الشر بالشر.. وتخيُّل اننا ديموقراطيون أو قديسون لأن الآخر غير ديموقراطي أو غير مقدس وهو كذلك، ولكن ذلك لا يكفي ولا يعفي.

في المحصلة التقينا على ما سماه الإمام الصدر

المحرومين من أرضهم والمحرومين في أرضهم وعلى ألف التباس والتباس، وعلى مجاملات ومسايرات وإغضاءات جعلت التفاصيل والتجاوزات تتراكم حتى أكلت كل شيء.. وإن كنّا قد اعترضنا، فقد كانت اعتراضاتنا خجولة ومترددة ومأخوذة ببريق البنادق واستفزاز العدو وايحاءات آسرة في عيون شيخ الشطار أبي عمار، جعلتنا نعاني بين شاعرية الاعتدال الفلسطيني وصوفية اليسار الفلسطيني، إلى ذلك فقد كان أكثر اعتراضاتنا مبنياً على مواقعنا المتقابلة بحدة في السياق الفلسطيني بين الحركة الوطنية وما سمي وقتها بالقوى الوطنية. التي أتت إلى حركة فتح من مزيج من الحساسيات داخل منظمة العمل الشيوعي وحساسيات المنظمة تجاه الحزب الشيوعي اللذين عادا والتقيا في كنف كمال جنبلاط واستأثرا به دهراً. مطلين معه على الحيز الإشكالي الذي احتله أبو عمار في السباق الوطني اللبناني.

بتركيز، كانت الحركة المطلبية والنضالية عموماً في فهم جورج حاوي المتنزل على عقل الحزب وسلوكه، مع جدل ما، وليس من دونه دائماً، أقرب إلى الأداتية أو الوسيلة التي ليس بالضرورة أن لا تكون مشروعة، ولكن يتخللها الكثير من اللامشروعية بسبب غياب أو تغييب نسبي لمنظومة قيم يفترض أن تكون حاكمة على العمل السياسي.

في حين كان الكثيرون ممن قطعوا مع الحركة الوطنية قد أدت بهم قطيعتهم إلى الإطلالة الماوية على الدين، ماوية على حسابهم طبعاً، نزلت بالدين إلى مستوى الضرورة

المرحلية قياساً على الكومنتانغ وشن كاي شك، ما فتح معارضتهم المشوبة بالكيدية للحركة الوطنية على إعادة تقييم إيجابي لأنظمة عربية أجمعت الحركة الوطنية وقتها على اعتبارها رجعية.. أصارحكم أني كنت قريباً من هذا المسار.. أي كنت مفارقاً بحدة وشدة لـ"جورج حاوي"، وكاد ذلك أن يسبب لي الكثير من الأذى الوطني والفلسطيني.

يسرني أن جورج حاوي ومعه رهط من رفاقه قد أقروا بأن اليمين العربي أسلم للوطن والأمة والمواطن من التقدميين العرب من السعودية إلى أبي عمار وأبي مازن إلى المقابل من القذافي إلى صدام حسين إلى الذيليين من القوميين الملتحقين بالتكفيريين إلى الإسلاميين الوارثين للتركة القومية اللاقومية لأنها لا وطنية تعريفاً.

لقد قتل جورج حاوي بعدما تجمعت لديه سلة من الحقائق جعلت خطابه وسطياً اعتدالياً تسووياً، لا بمعنى التلفيق، بل بمعنى الرؤية الموضوعية الشاملة للحقائق والوقائع والمؤشرات. ما أهّله لأن يكون مشروع حل لأزمة الحزب الشيوعي اللبناني التي كان هو أحد أسبابها، وهذا مسلك يتعدى الحزب إلى كل الحياة والحركة السياسية في لبنان والعالم العربي.. وعلى هذا الأساس عجلوا بقتله، قُتل لأنه كان ذاهباً إلى مكان وسط تتأسّس عليه مراجعات ونزوع نحو الاعتدال والوسطية التسوية مدخلاً إلى مشروع وطني تأخرنا عن إنجازه لأسباب وطنية شبه وثنية وأسباب أممية شبه خرافية، في هذه اللحظة كنت وأمثالي نلتقي صدفة في هذا

الموقع الوسطي النقدي ثم تحولت الصدفة إلى موعد للمؤتمر الدائم للحوار اللبناني مكاناً للتحرر من ضغوط الصورة النمطية عن الذات والآخر، أو المختلف.

هنا قتل جورج حاوي، في الوسط الذي يرى بين قدميه وما حوله، وبعدما قال كلاماً عن الدين والإسلام جعلني أوافق على ما افترضته مرة من أن مسألة الدين في بلادنا اعمق وأعقد بكثير من كلام اليساريين عن علاقتهم بالدين وكلام المتدينين عن اليسار.

بكلمة.. قتل جورج حاوي لأن خياره الأخير والنهائي قد أصبح لبنان.. كياناً ودولة واجتماعاً.. لا على حساب أحد.. بل لحساب كل الأخيار..

هذه الشهادة لـ"جورج حاوي" ولبنان ليست من تحصيلي الذاتي بل تدخل فيها مجموع حوارات عميقة وودودة مع كثير من الشيوعيين الذين تخلصوا من داء نسيان الأسئلة وحرروا عقولهم من لائحة الأجوبة التي لا تجيب.. آخرهم أولهم، الأستاذ كريم مروة الذي لم أجد مسافة بينه وبين جورج حاوي إلا بمقدار ما تكون الثنائية ضرورة للوحدة.

أسعدني أن يصغي إليّ كريم مروة بإحدى أذنيه وأذن جورج حاوي ناقداً للتجربة من دون تشفٍ أو إنكار أو تنكر أو نكران متسائلاً عما إذا كان الشيوعيون العرب ماركسيين فعلاً.. لا بالمعنى الأرثوذكسي بل بمعنى إخضاع المنظومة

الماركسية للمساءلة الدائمة.. وإلا فلماذا لم ينتج الشيوعيون رؤيتهم الخاصة؟ لماذا لم ينهمكوا في إنتاج فكر مدني أو علماني ملائم؟ لماذا تماهوا مع موسكو وهم يعرفون مقادير الخلل في الفكر والسلوك؟ لماذا لم يصغوا... إلى لوفيفر وغارودي وجورج مارشيه وتولياتي وكاريو.. وبرودون لماذا أهملوه بناء على مزاج ماركس صديقه الذي قطعه وقاطعه؟ وهل كانت البراءة من الستالينية بعد فوات الأوان بالوفاة وافية؟

وأصغي لـ "كريم مروة" وهو ينتقد بعمق استسهال اليسار وقوى الحداثة عموماً للمسألة الدينية، ما جعل العودة إلى الدين لدى كثير من اليساريين بلاء لكثير من المؤمنين.

هذا، ونحن الآن في لبنان على مفترق.. وأنا أدعو إلى اقتباس الجدلي الإشكالي المركب من مسلك جورج حاوي وتحويله إلى جزء من رؤيتنا للبنان التعددي الذي يحمّله تعدده وثقافته المجتمعية البينية الجامعة عبء الإصرار على تدوين رسالة إلى العرب.. وإذا ما كان الصراع المحكوم أو المغلب للخارج على الداخل قد جعل لبنان مريضاً بالقطيعة، فإن مآله الإنقاذي والنهضوي لن يتحقق إلا بالتصدي لهذه الرسالة. رسالة الحداثة اللبنانية كأمثولة لحداثة عربية متحررة من الإعاقة الإيديولوجية بالمعرفة ومن العقائدية الفتاكة بالبرنامجية المتحركة، وإلا فإن لبنان سوف يتحول من دواء إلى داء ومن نموذج لإنتاج المضادات الحيوية للتخلف ونقص الحرية والخراب والكفر والتكفير إلى جرثومة

سرطانية. لقد بيّأ أو وطّن جورج حاوي شيوعيته ووطنها بعدما اكتشف شرطها الوطني.. قام بذلك جهراً فأتاح لي أن أجاهر بالقول بأنه قتل في لحظة أصبحت فيها أميناً على إيماني من الابتذال الفلسفي كما أصبح فيها أميناً على مدنيته من الانغلاق الديني، ما يساعدنا على تليين ثنائية اليسار واليمين انطلاقاً إلى كل فروع نظام الثنائيات في الفكر والتاريخ. علنا نكتشف ونشغل العلاقة الجدلية بين التنوير والعدالة بدل المراوحة ومفاقمة الخسائر وتأبيد التخلف والاستبداد تحت شعارات يريد بعض القائلين بها على الرغم من وجاهتها أن يعطلوا الشرط الثقافي لها ويحولوا الامبريالية مرة ثانية إلى ذريعة للغوغائية.

سلاماً إلى جورج حاوي الذي ربما كان مصادراً أو ممنوعاً من قبل المركز الأممي الروسي في المحصلة من قول الوطني إلى أن طلق المركز أطرافه فأمكن لـ "جورج حاوي" أن يظهر مكنونه الذي سكت عنه بعدما تعرض للقتل المعنوي في الستينات جزاء ميله إلى وعي آخر لإشكالية الامبريالية والتحرر.

القسم الثاني

إقتباسات إمامية من الإمام موسى الصدر

كنت في صدد إنجاز معاملة سفري إلى النجف الأشرف طالباً في حوزتها صيف عام ١٩٦٣ فقال لي أحد أقاربي ممن كانوا يقرأون أخبار الجرائد اليومية في العاصمة بيروت: أريدك أن تعود من النجف عالِماً مثل السيد موسى الصدر..

ومرّت أعوام حتى فهمت ما كان يعني. كان يريدني أنيقاً من دون تكلّف، على شيء من الفوضى الجميلة أو النظام غير القاتل، عالِماً مستعلماً دائماً ينظر أمامه وحواليه ووراءه..

ويمشي، يعلّم الناس ويتعلم منهم، يذهب إليهم ليعود إليهم، ويذهبون إليه ليعودوا إليه، يستوعبهم جميعاً، يقرأ الوعود في عيون الصغار والعهود في عيون الكبار، يفهم ويتفهم ما بينهم من فوارق طبيعية على أساس من اختلاف مناشئهم ومشاربهم ومعارفهم وأوجاعهم وآمالهم وأشواقهم ومخالفاتهم وخطاياهم، يحبهم ويكره خطيئاتهم كما يكره خطيئاته، يحسّ بالفارق المعرفي بينه وبينهم ولا ينشغل

بمراكمة المسافة استعلاءً وانقطاعاً وامتيازاً.. يقصّر المسافة، يلمها يطويها، يخترع مكاناً موسعاً مشتركاً يجمعهم إليه ويجمعه إليهم، يؤثثه بعباءته وذاكرته، لا يهبط ولا يشعر الشركاء بالقصور، يفسح لهم مجال الاكتمال به، ويكتمل بهم، لا يقنّطهم من رحمة الله، لا يتركهم وحدهم يبحثون عن الرجاء، يخلط رجاءه برجائهم، ويذهبون معاً إلى دينهم ودنياهم، لا يفصلون بين الدين والدنيا ولا يطابقون.

الاختلاف ليس عيباً

حدثني قريبي وقتها عن رحلة السيد موسى الصدر إلى الفاتيكان ومقابلته للبابا.. وأنا كنت، لولا معلمي مارون الحاج، الذي علّمني مبادئ القراءة والكتابة والاجتماع اللبناني، كنت لولاه استصعبت أن أصدّق أن الآخر بشر مثلي! ولكان أي مسيحي في وعيي مختزلاً بالعرق ولحم الخنزير، ولم أتبين أني مسكون بالأوهام.. أوهام التنميط القاسي الكسول للناس والأفكار والأشياء والأوطان، ولم أفهم معنى زيارة السيد للفاتيكان حتى عام ١٩٧٧ عندما ذهبت إلى روما والفاتيكان لتهنئة المطران هيلاريون كبوجي بخروجه سالماً من سجن الاغتصاب.. وكنتُ تعرّفتُ إلى المطران جورج خضر والمطران سليم غزال فانجلى الغبار عن أفق مشرقي حافل بما لذ وطاب من أصول وفروع تتنوع على وحدة وتنزع إلى وحدة على أساس التوحيد، ولا تلغي أحداً.

ثم تعرّفت إلى المطران غريغوار حداد، كل ذلك جعلني أطمئن إلى صدق مشاعري وخوفي المتعاظم من تفاقم المسافة المفتعلة بين السماء والأرض، بين الدنيا والآخرة، بين الدين والحياة، بين الدين والدين، بين الدين والفن، بين الله والإنسان، بين الرسول والرسالة والمرسل إليه، بين الظاهر والباطن، بين اليقين والسؤال إلخ..

أدركتُ أن هناك إنساناً آخر ورأياً آخر وإيماناً آخر وقلقاً معرفياً ووجودياً آخر وأسئلة أخرى.. وأسئلة تولد من أسئلة وأجوبة لا تلبث أن تنقلب إلى أسئلة، وهذا الآخر.. يجب ويمكن التعرف اليه والتعارف معه واستكمال المعرفة والتعارف، بالحياة.. وفهمت أكثر عندما تعرفت إلى صورة السيد موسى الصدر ملونة بألوان لبنان والعروبة الحضارية، الوظيفية، والإيمان في عيون الاكليروس والعلمانيين المسيحيين على حد سواء.. وتعرفت متأخراً إلى الخوراسقف العالِم يواكيم مبارك، فأوجعتني مرارته من فقدانه جزءاً كبيراً من حلمه الحواري بسبب غياب كمال جنبلاط والإمام الصدر في صحراء الجهالة المشتعلة بالنفط، يزيدها الغرور بالفراغ والتباس الحق بالباطل والثورة بالثروة والثورة المضادة أواراً وأكلاً للوطن والمواطن والأرض والناس والخضرة والماء والحلم والذاكرة. وعندما قرأتُ خطاب السيد موسى الصدر في كنيسة الكبوشيين في بيروت لمناسبة بدء الصوم الكبير لدى المسيحيين.. فهمتُ لماذا تواضع أهل اللغة العربية على وضع مفردة الصيام لمعنى الارتفاع (صام

النهار إذا ارتفع) أي ارتفعت شمسه إلى أعلى منازلها فازدادت مساحة الكشف والانكشاف والمكاشفة.. الصائم كما شمس النهار المرتفعة يرى إلى الحقيقة بكل مكوناتها وتضاريسها ومناخاتها.. وعرفت أن الاعتراف بالآخر وقبوله كما هو، لا كما نشتهي له أن يكون، هو المدخل إلى أن نكون كما نحب أن نكون.. إذاً، نحبه كما هو فيتكاثف الإحساس بالوجود والحضور والجدوى..

من الحوار رأيت الاختلاف شأناً كونياً من دونه يعمّ السكون والخراب والبعد الواحد.. ولا تتمايز الألوان ولا تتكون، ولا يدخل اللون في كون اللون وكينونته، فلا تجد العين خيطاً بين اللون واللون يعلن الجمال والبهاء.. لا تجد لوحة تكراراً مملاً، كأنه الشمولية أو التمامية الفكرية والسياسية المدعاة والتي قتلت وتقتل الذات على قارعة الموضوع.

كان ينبغي لنا أن نرى الذات والذاتي أكثر إضاءة للمعرفة والحقيقة من الموضوع والموضوعي، أو مثله، إذ يكاد يستحيل أن نجد موضوعاً مستقلاً عن الذات، حتى الحجر فإنه تتفجر منه عيون الماء، وهو يكلم رسول الله ويسلم عليه.. والحجارة جاهزة في خطاب السيد المسيح لأن تصبح بدائل أفضل من أبناء إبراهيم لتكون أقرب من قلب إبراهيم وقلب الله.

مع السيد موسى الصدر ووراءه، وإلى جانبه أدركت أن الاختلاف ليس عيباً، حتى الاختلاف على الواحد هو تعميق

لوحدانية الواحد، غيباً كان هذا الواحد أو وطناً أو قضية أو فكرة أو قيمة، والعيب أن لا نسعى إلى اكتشاف الاختلاف وتحقيق الاتفاق، والعيب هو الاستقالة من جدل الاختلاف والإتفاق، ومن السعي الدائم إلى تضييق مساحة الاختلاف وتوسيع مساحة الاتفاق.. ونبقى على هذا الجدل الجميل، نعيد تشكيل جماليات المشهد الكوني، هكذا في منزلة بين الليل والنهار، بين الشمس والقمر، بين السماء والأرض، بين النهر والبحر، بين الجدول وقطرة الندى، بين الغرب والشرق، بين الرجل والمرأة، بين الشباب والشيخوخة، بين الوطن والعالم، بين الطائفة والدين، بين الأصالة والمعاصرة، بين الذات والموضوع، بين القلق والطمأنينة، بين العامل ورب العمل، بين الشك والإيمان.. رأيت السيد موسى الصدر مقيماً لا يبرح، رأيته يفتح بالحوار مغاليق ذاته فيستوي وعيه لذاته شرطاً لوعيه بالآخر ويستوي وعيه للآخر ووعي الآخر بذاته شرطاً لوعيه، وعي السيد بذاته، ويستوي الإيمان الكبير، التوحيد، نصاباً يدور عليه الحوار.. منه يصدر الصدر وإليه يعود.. ويقف الإمام بذاكرته المنقاة من الدغل والمنسوجة على نول فنان حاذق وموهوب ومجرب، يقف ممتلئاً بلحظته ويومه وشوقه المحتدم إلى استقبال غده على وعد ورجاء.. يقف أو يقوم في الموقف مؤشراً دالاً عالماً متعلماً ومعلماً، حوارياً جوارياً يؤثر الحسنى جدلاً.

الإرشاد حبر من حبره

وعندما قرأتُ الإرشاد الرسولي قراءة بريئة من الهوى،

على أناة لبنانية أصبحت من ضرورات سلمنا الأهلي المنشود، قراءة غير مجانبة للذات ومنازعها ومكوناتها، معنية، بموضوعية نسبية وازنة، بلبنان موقعاً ودوراً، وجدت في الإرشاد حبراً من حبر السيد موسى الصدر، واستقرت قناعتي على ما قالته وثائق بطاركة ومطارنة الشرق أكثر من مرة بأن الثقافة الإسلامية مكوّن مسيحي والثقافة المسيحية مكوّن إسلامي، في هذا الشرق الذي انبثقت من عروقه وأشواقه النبوات والأديان من منابعها، وما زالت تجري رهواً على وجهه وبين عينيه وفي شرايينه ولسانه وكأنها قد انبثقت لتوها.. قرأت السيد موسى الصدر في الثوابت الإسلامية العشر التي كانت تجميعاً لرؤياه واستباقاً للطائف الطائف، الذي ما زلنا ننتظر أن يكمل طوافه بلبنان.

مشهد أذهلني

بعد عام من سفري إلى النجف الأشرف، عدتُ وحضرتُ مع أحد الأصدقاء احتفالاً في صور لمناسبة مولد الرسول (ص)، تكلم فيه السيد الصدر كلاماً جميلاً تخللته أخطاء تعبيرية ولغوية زادته جمالاً وبهاء.. ورأيت الصدر في مشهد أذهلني، فقد ذهبتُ إلى النجف بريئاً من أي احتمال، ذهبتُ إلى ديني وربي وآخرتي.. وفي النجف سمعت همساً كثيراً عن مجد دنيوي ينتظرني إذا ما اشتهيته وأعددت له عدّته، وتعلمت جيداً كيف أرفل وأخطر في ثوبي الفضفاض.. واختلست نظرة إلى ظهر كفي اليمنى التي

تراءت لي كأنها معدة لأن تكون مسرحاً أو ملعباً لشفاه الفقراء ومزرعة لقبلهم تمسح عنها غبار الآخرة بوحل الدنيا. . رأيت الإمام الصدر يسحب يده من بين يدي فلاح كهل ويبعدها من فم الفلاح، ويرفع يده إلى شفتيه ويقبلها جهاراً أمام الحفل الكريم والمشايخ في مقدمته. شعرتُ كأني المندهش الوحيد، لأن الحاضرين كانوا يعرفون هذا المسلك في السيد. . كانوا يعرفون أن يده تتمنع عن التقبيل. . وإن كانت شفاه المؤمنين تزداد شوقاً إلى يده الناعمة كلما أوغلت العيون في عينيه.

كان العلامة المرحوم الشيخ محمد الغزالي يقول: "نحن في مصر نقول للرجل الشديد الذكاء والفطنة (زوج). . أما شيخكم هذا فهو أربعة. . "، إنها شهادة من عالِم مفكر مجرب. . وهي مصرية فيها قيمة إضافية.

"وتكاد تثمر بالعتاب أنملة

إن مرّ بالوجنات الساحر الخفر".

عادل عسيران في رعيله
بين الانطباع المنقوص والمعرفة المنصفة

أوائل الخمسينات أخذت أذني الطرية تلتقط أطرافاً من الكلام السياسي المحلي المتناثر والبسيط والمباشر، الذي كان يدور حولي على المصطبة أو البيدر أو في حقل الذرة أو منشر التبغ، كان الكلام السياسي الوطني والقومي، بعد النكبة وثورة تموز المصرية، يدور في أمكنة أخرى، في المدينة حيث ترتفع الأهلية إلى مستوى التعاطي مع القضايا الكبرى، يلتقط بعض أفراد من ضيعتنا يذهبون إلى المدينة ويعودون سراعاً، بعض هذا الكلام، ويصلنا عبرهم بعض من رذاذه أو بقاياه، وقد كان نصيبنا من المعرفة بالشأن العام شبه محصور في محيط جسدنا الجنوبي أو الشيعي (شق الطريق أو تعبيدها، رخص التبغ وأسعاره إلخ) ويضيق هذا الجسد حتى يصبح قضاءً من أقضية الجنوب.. ولا يبلغنا من الأحداث الوطنية والقومية الكبرى إلا بعض من صداها (كميل شمعون ورخص الطحين... وفلسطين اختزلت في المشهد اليومي للاجئين في مبنى المدرسة الرسمية يسدون نوافذها بالبلان... وبالمخيم الذي أخذ يتشكل على ربوة مطلة على

طريقنا إلى النبطية). ثم أخذ الكلام السياسي المحلي يترسب في داخلي من دون تصفية، تختلط فيه الوقائع والأحداث والأفكار مع أخيلة الأهل المتنزلة من عصبياتهم المضادة لعصبيات الآخرين من أهل الضيعة أو الحارة، ولأن القضايا كانت تقع في المرتبة الثانية أو الثالثة من الاهتمام بعد الأشخاص وبعد ضرورات التعصيب وموجباته، استوى عادل عسيران في مدى بصري وبصيرتي شخصاً يحتل مساحة واسعة من الأفق، طويلاً عريضاً على أبهة ومن دون ملامح محددة وعلى درجة عالية من التجريد، ولم يكن مخيالي مؤهلاً لإعطائه أي صفة سوى أنه ركن أول أو ثانٍ في ثنائية أو ثلاثية أو رباعية زعامية سياسية شيعية جنوبية، تسرح عائلتي وتمرح في محميتها الولائية، وكان يوسف الزين هو الركن الأول في تصنيف عائلتنا لأسباب تتصل بوشيجة من قرابة ورحم مع آل الزين، وكان الثاني بعد عادل عسيران في تصنيف العائلة الحليفة لنا، وكانت المقامات الأخرى مفتوحة لمن يختاره أحد الركنين أو هما معاً. وفي أول استحقاق انتخابي عشته على قدر من رغبة منفتحة لدي على تكوين وعيي، لاحظت فرقاً بين عادل عسيران وبين الزعماء الأبرز في رعيله، كان الفرق بالنسبة لي في حجم المفارقة، كان في الشكل فافترضت أن له مضموناً يشاكله، فالصور الدعائية على أحد حوائط المسجد (في الخارج طبعاً لأن صور الزعماء لم تكن قد وصلت إلى الجدران الداخلية لدور العبادة على قاعدة ٦ و٦ مكرر داخل الضيعة الواحدة) يظهر

فيها أي الصور أحمد الأسعد معتمرا طربوشه التركي معقوف الشاربين إلى أعلى، والى جانبه حليفه محمد الفضل معتمراً الطربوش إياه وشارباه مرسلان إلى أسفل، والى جانبه عادل عسيران حاسر الرأس بشاربين خفيفين على نسق مختلف، وسطي معتدل. وسألت والدي عن السبب فقال: لأن عادل عسيران تلقى، بخلاف الآخرين، علوماً عصرية عالية. وبعدما أدركت معنى العلوم العصرية ومعنى عالية عرفت انه يحمل إجازة جامعية. إذاً، فهذا الاختلاف في الشكل سببه الاختلاف في المضمون (أنا لا أرجح هنا شكلاً على شكل ولا مضموناً على مضمون)... وأنا أريد أن أتعلم، فاقم عادل عسيران من شهيتي إلى العلم.. أين كيف ومتى والى متى والى أين؟ لا أدري.. إذاً، أنحاز إلى المتعلم لعلي وإياه نصنع شيئاً، خيراً، وقد كان يدركني الضيق من الفقر الذي لا يبرح ومن الكدح الذي لا يثمر تغرق فيه الضيعة من دون جدوى... ربما كان العلم مخرجاً..

كان أهلي يحبون يوسف الزين وكنت أشاركهم هذا الحب، ولم أكن أكره أحمد الأسعد وقد سعدت برؤيته كثيراً تحت عريشة الجامع على ضوء اللوكس ولفتني ذكاء في عينيه، ولكني كنت أشعر بأن بعض أهل الضيعة ممن أحبهم ويبدون لي كرهاً لأن أهلي يحبون يوسف الزين ولا يحبون أحمد الأسعد، ثم اكتشفت أن أحداً لم يكن يكره أحمد الأسعد ولا يوسف الزين ولا عادل عسيران، بل كانوا يكرهون اليهود وبعضهم بعضاً لأسباب لا تتعدى منافسات

تأتي من الفراغ المعرفي والحياتي وانسداد الآفاق والسكون. وكان الأهل يقترعون ليوسف الزين ولائحته، فإن كان عادل عسيران حليفه اقترعوا لهما بارتياح تام، فإن اختلفا وكان كل منهما على لائحة مختلفة، وقفوا إلى جانب يوسف الزين وعينهم على عادل عسيران، ويلتقط بعض شبان العائلة هذا المؤشر فيدلون بأصواتهم ليوسف علناً ولعادل عسيران سراً، ولا يلبث السر أن ينكشف بالفرز، ولا يحاسبهم الأهل على مخالفتهم المرغوبة، ويشعر الشبان وكأنهم ينتخبون مؤشراً من مؤشرات غدهم من دون تجاهل لحاضرهم أو تنكر لأمسهم وأمس آبائهم.

وعندما جايلتني موجبات الفتوة وعوارضها ونوازعها أخذت أشبك يدي بطرف سترة أبي الداكنة وأصحبه إلى سهرة حول كراسي التبغ اليابس المنضد في دار أبي علي أخضر، الركن العسيراني، لم يكن يحسن القراءة والكتابة، كان يقرأ من غير كتاب وفي غير كتاب، كثيراً وبروية، ولا يكتب، يقول كلاماً قليلاً فينزل كلامه على الساهرين كتاباً، وكان حلفاؤه من وجهاء العائلات في الضيعة ينزلونه منزلة المستشار حتى عندما يكون على خلاف سياسي معهم تبعاً للعلاقة بين عادل عسيران والآخرين، يتربع أبو علي على طراحته العتيقة وتتواصل بين شفتيه لفافات التبغ البلدي، من دون أن يدخل الدخان صدره، ويفيض حديثاً عن علم عادل عسيران واحترام الزعماء المسلمين والمسيحيين له، وعن صلابته ومبدئيته وطموحاته السياسية الوطنية والإدارية

والتنظيمية والتنموية (الزراعية خصوصاً) وعن رؤيته الوازنة للصراعات الوطنية والقومية وعن شغفه بالديموقراطية والتصنيع الزراعي شرطاً ممكن التحقيق للنهوض الاقتصادي في لبنان، وعن اعتداله في لبنانيته وعروبته وإسلاميته وشيعيته وعن تمثله بعلي بن أبي طالب نصاً ونهجاً.

هذا تلخيصي الآن لما كنت أسمعه من أبي علي وغيره أحياناً، بلغة أبسط وأقدر على الوصول إلى فهم الساهرين الذين كان عادل عسيران على وقع الكلام وإيقاع الوقائع والمشاهد التي يرويها أبو علي، يطوف في عقولهم وخيالهم منقذاً وطنياً للجنوب والشيعة على قاعدة وطنية واسعة وعميقة، وتنتهي السهرة بتعبيرات مختلفة عن (الإحباط) لأن هذا البلد (لبنان) لا يقدر العقول المستنيرة بل يستهلكها ويقهر القادة النهضويين ويختزلهم في حالة من الزعامة الفردية التي يتساوى فيها الأكفاء مع الكسحاء، ولا يخلو الأمر من اعتراض معترض يحمّل عادل عسيران جزءاً من المسؤولية لأنه لم يتخلص من موروثه الإقطاعي كشرط للتواصل والفاعلية، ويؤكد المعترض حسن فهمه ونيته ويضيف: ليس المطلوب هو التخلي عن ملكياته العقارية، بل المطلوب هو المزيد من الاقتراب والإصغاء للطبقات الشعبية والاعتناء بالمشروعات النهضوية التي تحتاج إلى مبادرات من الدولة تحت ضغط القيادات كما تحتاج إلى شيء من التخلي من قبل القيادات عن بعض ما تملك تأسيساً للمستوى الشعبي والذاتي للتنمية.. ويرد آخر فيؤكد أن المشكلة فينا أيضاً، في

الشعب، لأننا تعودنا على خطاب مختلف، عصبي تعبوي تحريضي إلغائي إلهائي، من زعامات مختلفة، وهناك مسافة بيننا وبين الرجل (عادل عسيران) يجب عليه وعلينا أن نقصرها، ويوصي آخر بأن نعلم أولادنا، حتى لو بعنا بيوتنا، حتى يستطيعوا أن يكونوا في موقع المشاركة لأمثال عادل عسيران من أهل الكفاءة والطموح، في حمل همّ التنمية والشأن السياسي العام.

بعد عقود، حدث تغيير في العلاقات التحالفية بين الزعماء السياسيين في الجنوب بسبب أحداث عام ١٩٥٨ ثم بسبب رحيل البعض عن الدنيا والسياسة وبسبب ما حصل من تقلبات في الحياة السياسية العربية واللبنانية، وظلت مساحة الولاء لعادل عسيران على سعتها، ومن خلال المتابعة الميدانية يكتشف المتابع أن سبب ذلك هو أن العلاقة معه لم تكن منحصرة بعامل المصلحة الذاتية المباشرة (الزبائنية)، وقد ازداد بعض الموالين ثقة به عندما كان يصارحهم بموقفه من أمور تفصيلية ذات دلالات أخلاقية وطنية كبرى.. كان يرفض مثلاً التوسط لأحد محازبيه في الحصول على وظيفة يعلم أن المتقدم الآخر لها من أنصار خصومه أكثر كفاءة... كانت علاقة أنصاره به مبنية على أوليات وعي وطني واجتماعي مبدئي لا يستبعد المصلحة المباشرة ويركز على المصلحة العامة والموقف، ما كشف إمكانية الشروع المبكر في بناء مجتمع مدني، كان شرطه الأساس أن يكون عقل القائد السياسي مدنياً... كان عادل عسيران يأتينا من

المدينة. . وكان آخرون وما زالوا يأخذوننا إلى هوامشها، يريفون مدننا. . يذهب أهلنا إلى هناك لا يدخلون المدينة، لا يدخلون في نظامها القائم على العام واحترام الخصائص كشرط للتقدم من دون قطيعة مع الذات والذاكرة. وهنا نلمس الكثير من أسباب البطء في تقدمنا رغم أن معرفتنا قد ازدادت مساحة ولكنها ما تزال مسدودة الآفاق.

وهذا يعيدنا إلى الاستقلال اللبناني والكتلة التاريخية التي تشكلت من أجل إنجازه وجعله مشروعاً مفتوحاً يحتاج إلى تجديد في الرؤية واستمرارية في التحقيق والإنجاز، وقد كان عادل عسيران علماً من أعلام هذه الكتلة، التي كان آخر شهودها وشواهدها، وكانت لها إشكالياتها الكثيرة والطبيعية والمتوقعة، ولكن إشكاليتها الأهم هي أنها لم تعمل على كتلة مماثلة لها تخلفها وتأتي من سياقها لتستوعب تجربتها وتتجاوزها إلى الحاضر وتعقيداته والمستقبل واحتمالاته. . حتى وقفنا على باب الغد وكأنه لا غد لنا.

كان عليّ وعلى كثيرين من أمثالي، ممن كونوا ذاكرتهم عن الأشخاص من خلال حساسيات صغيرة أو من خلال تحليلات فكروية هجينة ومغلقة وملفقة ومفارقة، أن ننتظر الاجتياح الإسرائيلي للبنان لنعيد الاعتبار لكثير من الكبار ونكتشف المكونات العميقة، الوطنية والقومية في شخصية عادل عسيران، الذي بلغ من اعتزازه بانتمائه ومسؤوليته وموقعه ودوره وتاريخه أن صاح من على فراش مرضه لسعد حداد وهو يهمّ بالدخول إلى غرفته للسلام عليه أن: قف فأنا

لا أسلم عليك.. إني من بناة استقلال هذا البلد ولا ألوث كفي بكفك... وهكذا أخذ عادل عسيران على شيخوخته ومرضه ينتقل من حسينية إلى حسينية ومن جامع إلى كنيسة ومن نادٍ إلى ساحة ومن اعتصام إلى تظاهرة، ومن صمود إلى تحدٍّ ومن صمت جريح بليغ إلى كلام أبلغ معنى وجرحاً.. يقول للجميع ومن دون تمييز بين مقاوم ومقاوم، بين صامد وصامد، بين معاند ومعاند: ليست المستأجرة كالثكلى... وما كان ذلك منه بدعاً.. نجد جذوره في تاريخه لو كنا أحسنا قراءته وفهمه، لو كنا قرأنا النص كله من بدايته إلى نهايته ولم نجتزئ نصوصاً قد يكون فيها التباس أو خطأ، وكل ابن آدم خطّاء. في حين أننا كنا نخرج من التباس إلى التباس وما زلنا في حالة من الالتباس لا يعلم إلا الله متى نشفى منها.

كان كبيراً عادل عسيران عندما طوى كشحاً وصرف نظره ونسي أو تناسى إساءات وفهماً مقلوباً للأمور، وكنا بحاجة إلى منعطفات حادة لنرى عادل عسيران يشتعل وطنية وعروبة وينسى جراحه، والى متحولات في عقلنا وميل صادق ومنهجي إلى الاعتدال لنفهم عادل عسيران الموزون المتوازن الصبور في مفصل عام ١٩٥٨ في لبنان.

أواسط الثمانينات التقيته واتفقنا على استبعاد المجاملة وسألته أسئلة صريحة كنت أتوقع انها يمكن أن تحرجه بعض الشيء فأحرجني بتقبله واستيعابه لغايتي البريئة وأجرى معي مراجعة كاملة لمواقفه وللمفاصل الأساسية في تاريخه

وتاريخنا الحديث من سقوط الدولة العثمانية والحرب الكونية والتجزئة والانتداب ودولته إلى الاستقلال ودوله والحرب الثانية والنكبة وعبد الناصر والوحدة والحركة القومية العربية واليسار واليمين وسوريا وكميل شمعون وفؤاد شهاب والجلاء والفصل الجمركي (بين لبنان وسوريا) وحلف بغداد والسنتو والإسلام والشيعة وإيران الشاه والانفصال والنكسة والمقاومة والاحتلال والحرب الداخلية والحرب العراقية الإيرانية والتجربة السوفياتية.

وكان شجاعاً في تقييم تجربته وإعادة التدقيق في أفكاره ومواقفه، وأبدى إصراراً على ضرورة المواقف المبدئية والمرونة العملية، مصراً على ضرورة التعامل الوطني الصريح مع المسيحيين والموارنة منهم خصوصاً، ناقداً إلى حد النقمة لكثير من الزعامات الإسلامية والشيعية خاصة متهماً إياهم بغش المسيحيين لأنهم لم يقدموا أنفسهم للمسيحيين على حقيقتهم ولم يقدموا الصورة الحقيقية عن المسلمين فعمقوا الجهل المشترك وشوشوا العيش المشترك ومهدوا للحرب الداخلية الطويلة وقال لي: انتبهوا، اذهبوا إلى الآخرين كما أنتم، لا كما تتوهمون أن الآخرين يحبون أن يروكم عليه. . . كان جسده يرتجف ولا يتداعى، وعقله ثابت واثق وذاكرته حية مشرقة، وكان جسدي ثابتاً وقلبي يرتجف، وأخذت أفلي ذاكرتي وأنقيها من الشوائب والطفيليات. وسألته وهو المصنف ظلماً في موقف عربي غائم. . . من كان من جيلك ورعيلك أشد احتراماً وثقة لديك؟ قال: كثيرون في طليعتهم الشيخ

أحمد عارف الزين والسيد محسن الأمين. . ولماذا؟ قال: لأنهما كانا عروبيين وحدويين وطنيين صادقين مخلصين لقناعتهما من دون تردد أو مجاملة.

وخرجت من منزله أبحث عن ممحاة أمحو بها الكتابة الرديئة من لوح الذاكرة، فعدت إلى الوثائق والنصوص لأختبر، وكانت النتيجة أنه لا عادل عسيران ولا رعيله كان بالصورة المشوّهة التي ترسخت في أذهاننا عنهم. . كان رعيل عادل عسيران، وهو في طليعته، معرفة وطموحاً وموقفاً وسلوكاً، أقرب إلى طموحاتنا الآن. . وكانت قوى محلية وإقليمية ودولية لهذه الطموحات بالمرصاد. . لا نعفيها ولكن لن يكون المحسن والمسيء عندنا بمنزلة سواء.

لقد قرأت نصوصاً لعادل عسيران ألقاها أثناء مناقشات البيانات الوزارية في مجلس النواب اللبناني منذ الاستقلال تدل على علمه وإطلاعه وتطلعه وأحلامه ومواقفه وفهمه للبنان وموقعه ودوره ودور الدولة وإشكالياتها وعلاقتها بالمجتمع وبالدول وبالشروط الموضوعية لترسيخ الاستقلال واستكماله على قاعدة الوحدة الوطنية والنهوض الشامل على أساس التنوع والديموقراطية. . . مما نحن مشغولون به الآن على شك في أهليتنا أقوى بكثير من شك ذلك الرعيل بأهليته. . كأن مثالنا وراءنا لا أمامنا. . رغم الإنجازات الهائلة في مظاهر التمدن وفي العلم والمعلومات وغيرها.

الإمام الخميني العادي.. فوق العادة

بالغ أحدهم في مدح الإمام علي (ع) فقال له: "أنا فوق ما في نفسك ودون ما قلت". وعن الإمام الباقر (ع): "والله ما معنا - أي أئمة أهل البيت - براءة من الله، وما بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله حجة، ولا نتقرب إلى الله إلا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعاً نفعته ولايتنا، ومن كان منكم عاصياً لم تنفعه ولايتنا".

والإمام الخميني يعود في نسَبه إلى الإمام موسى بن جعفر بن الباقر (ع) ويقول في الستينات: "هؤلاء جماعة من البلهاء، يدعون بالمقدسين وهم ليسوا بمقدسين، بل يتكلفون القداسة، علينا أن نصلحهم، لأنهم يمنعوننا من الإصلاح والنهوض والتقدم".

عندما توثّقت العلاقة العملية بيني وبين فريق عمل الإمام الخميني أوائل السبعينات، أتيح لي أن أطلع، فلفتني إصراره على أن لا يحيط نفسه بالغموض، الذي يفسح المجال لإضافات، ومبالغات في صفاته وملكاته، وكانت إرادته أن يظلّ في الناس ومنهم، أن يكون عالِمهم الذي تعلّم وعلّم

من أجلهم أيضاً، فلا بدّ أن يقودهم، حتى لا يتحول العِلم إلى امتياز سهل وكسول، من هنا كان يصرّ على الاستشارة ويعمل بها، ولا يتوقف كثيراً عند من تأتيه منه، كبيراً كان أم صغيراً، وإذا لاحظ أن احداً ممن حوله، يحسن أن يلتزم، فقد كان يستفيد من فكره من دون أن يتحمّل أعباء أن يفكر بإضافته إلى إطاره من دون قطيعة، ريثما يدقّق الشخص في مسلكه، فينفصل أو يتصل، من دون ملامة.

ويأخذ نفسه ببساطة العيش واللغة، وروح النص، فيزيده ذلك شفافية وفراسة في الإفراد والجماعات. روى السيد محمود الطالقاني أنه ذهب إلى الإمام بصحبة ناشط كبير في حركة "مجاهدي خلق" إبان تأسيسها، طموحاً إلى دعم الإمام لها، وبعد سهرة طويلة مع الضيف على انفراد، آوى الإمام إلى فراشه، وفي الصباح أتاه السيد الطالقاني فاعتذر الإمام عن التعامل مع ذلك الرجل، الذي استمع إلى كلامه من دون أن يدلي برأي، واستوضح الطالقاني الإمام عن سرّ موقفه، فقال الإمام: "إنه عندما آوى إلى فراشه، لاحظ أن هذا الضيف قد استمر في الصلاة وقراءة القرآن والأوراد حتى الصباح، وأنه هو - الإمام - ملتزم بالعبادة الليلية وأوراد الفجر من دون انقطاع، ولكنه عندما قارن نفسه بضيفه، اغتمّ لشعوره بالتقصير قياساً على الضيف.. وعندما احتدم هذا الشعور، انتبه إلى إمكانية أن يكون هذا الضيف قد تعمّد المبالغة لإحراز ثقة الإمام، ولو أنه كان موضع ثقة فعلاً، لما لجأ إلى الحيلة والإغراء.. والإمام مطمئن إلى مسلكه

العبادي، يشعر بالتقصير، ضماناً للاستمرار والاستزادة.

وفجع السيد الطالقاني بهذه النتيجة، ولم تمرّ إلا أشهر معدودة حتى عاد السيد الطالقاني ليخبر الإمام بأن الرجل من ضباط "السافاك" المزروعين في الهيئات القيادية للحركة.

وكانت الأخبار في النجف، عن حركة الإمام، وحركة الشعب الإيراني وقياداته تأتينا لماماً وحسب الاهتمام، ولذا لم تكن تأتي إلى بعضنا أبداً، وأتته الأخبار بعد نجاح الثورة، وفي يوم من أيام الستينات، دبّ في المدينة والحوزة امتداداً إلى كربلاء والكوفة، نشاط غير عادي سببه مجيء أحد كبار خطباء الثورة في إيران إلى العراق، قادماً من مصر ومقابلة الرئيس عبد الناصر، آتياً من سجن طهران، وهو الخطيب المعروف (الشيخ بهلول) الذي كان الشعب الإيراني يتعامل معه وكأنه اسطورة المنبر.. ودخلنا الصحن العلوي ذات مساء لنجده محتشداً بالطلبة والأساتذة والمدنيين ورجال الأمن، يستمعون إلى الشيخ المجاهد الناحل الجهير الصوت المتدفق.. فأصابنا منه بعض فتون، ثم سمعنا في أوساط الخميني لغطاً ممزوجاً بالسؤال والدهشة والتعجب والحيرة، لأن الإمام لم يقبل أن يستقبل الشيخ بهلول!! وعاد الشيخ إلى طهران، وما هي إلا أيام حتى سمعنا من الإذاعة الإيرانية أن الشيخ بهلول قد تشرّف بزيارة العتبات الشاهنشاهية، وأعلن الولاء للشاهنشاه، وقدّم له تقريراً عن رحلته، ونال من حركة المعارضة وقياداتها وبخاصة الإمام الخميني!!.

في كل حياته وعمله، لم يكن الإمام يشير أو يوحي،

بأنه يعتمد على غير حدسه وحذره وعلمه، وحدسه يأتي من شفافية وما أخذ نفسه به من التدرّب الطويل على التبصّر بالأمور وعواقبها، وبكل نص يقرأه أو خبر يسمعه، أو حركة يشهدها. وحذره يأتي من التزامه الاحتياط وعدم الاستعجال.

آثر الصبر والروية والأناة ولم تكن تزدهيه اكتشافاته في الناس والأحداث، ولم يكن ينسب معرفته إلى عالم الغيب، ومن هنا كانت لغته سهلة واصلة، لا عوج فيها يتيح تفسيرها على قياس الأمزجة والنوازع والنوازغ.. لم يؤثر عنه انه تحدث عن أحلامه ومناماته، وكان يسبّح الله سراً، من دون تحريك شفتيه طالما أن في المجلس شخصاً آخر.. ولم يشر ولا إشارة خفيفة إلى أنه اختلى بأحد من خارج جماعته، وكان في ذروة تألقه وقراءاته للأحداث والوقائع والمؤشرات، يؤكد من حوله انه ليس بدعاً فيهم أو منفصلاً نوعياً عنهم، أو أنه يملك قابلية أو أسراراً خاصة، ويؤكد إمكانية ارتقاء كل أحد إلى المستوى الذي يطمح اليه إذا ما أخذ نفسه بالمعرفة والسلوك واليقظة.

هذا لم يمنع أن يذهب بعضهم في الإمام مذاهب.. لقد زارني أخ لا يشكو من جهل أو قلة تجربة بعدما زار مقرّ الإمام في جمران، وأهداني نتفة من قماش عتيق رجاء البركة، وقال: "إنها من طراحة الإمام الخميني"، وكنا مرة في جلسة شاي العصر في مقرّ عملنا في رئاسة الجمهورية، فدخل علينا صاحب لنا زائراً، وطلب إلينا أن نتمهل، لأنه يحمل قطعاً من سكر منزل الإمام فرجاه كبيرنا، النائب

وعضو مجلس الخبراء أن يحتفظ بالسكر لنفسه، وبركة الإمام تعمّنا من دون سكر.. وأذكر أننا كنا مع ضيوفنا في مهرجان الشعر العربي عام ١٩٨٣، الذي كان لي شرف الإسهام في تنظيمه، نصغي إلى خطاب الإمام في مقرّه في حسينية جَمَران وكنتُ أستحسن وأعبر عن ذلك، لكلام الإمام، فوكزني جاري الشيخ الشاب، وطلب مني بحسم أن اسكت لأن الاستحسان لا يناسب كلام الإمام، فهو حسن بقول مطلق واستحساني فضول!.. مضيت في استحساني.. أليس من إصرار على عاديته أصبح فوق العادة؟.

الشيخ حسين علي منتظري
الرجل القيمة أو القيمة رجلاً

بعد صلاة المغرب، في يوم صيفي حار، انتظرته مع سعود المولى وقيس العزاوي وصديقنا المناضل الجزائري الكبير العبسي موفداً من الرئيس أحمد بن بله، في حديقة منزله الصغيرة في قم.. كان هناك شخص يصلي في طرف الحديقة بلباس منزلي شديد التواضع والبساطة، وليس عليه شيء يدل عليه. انتهى من صلاته وتقدم نحونا مسلماً... قفز العبسي من مكانه ليسلم وشرع في البكاء مندهشاً بهذه البساطة وهذا الترفع عن الدنيا... وعاد بالذكرى إلى أيام النضال الجزائري الأولى.. وحكى لنا تفاصيل مدهشة وتأسفنا.. ومرة زاره عصر يوم رمضاني طبيبه الدكتور قارون الذي كان يعالجه من آثار التعذيب في سجن الشاه، واقترب موعد الإفطار، فاستأذن الطبيب ليخرج، فألح عليه أن يتناول الإفطار معه. وافق قارون وسأل: وما إفطارنا؟ قال الشيخ: زوجتي ليست في المنزل منذ أيام، وأمس حمست بالدهن، بعضاً من بيض الدجاج لإفطاري، كان كثيراً وبقي منه شيء وضعته في الثلاجة، والآن نستخرجه ونسخنه ونفطر..

فصرخ الطبيب: لا.. ولا أريد أن أبحث عمن يعشيني بعد الإفطار معك! وخرج. وقيل لي إن المرحوم السيد محمد حسين بهشتي كان مرة في زيارته وجاء وقت الغداء، فسأله عما يمكن أن يتناوله معه غداء، فقال: لديّ كمية من المخيض نبل بها خبزاً بائتاً.. فاعتذر السيد وخرج ضاحكاً باحثاً عن عشاء أقل تقشفاً!

ومرة كان في زيارته أحد الوزراء الخدماتيين.. ومعه حقيبة ضخمة.. قال له الشيخ: ما هذا؟ قال الوزير: هذه رسائل الشكر لي من الشعب على إنجازاتي.. كان الشيخ قد تناوله بالاسم وعلناً ناقداً تقصيره في شؤون الإسكان.. أجابه الشيخ: ولكن رسائل الاحتجاج الشعبي والشكوى عليك حجمها عندي أكبر بكثير من حقيبتك.. والحل هو ألا تأتيني رسائل الشكوى بعد هذا اليوم، وألا تبقى أنت بحاجة إلى زيارتي.

ومرة.. كنا في زيارته وكان يخطب في وفد كبير من قوات الحرس الثوري القادمة من مدينة سمنان.. قرّعهم بشدة على تصرفاتهم الأمنية غير الدقيقة وتغطيتهم لها بالشرع.. وقال: يمر بكم من يحمل قارورة فيها سائل ملون، أحمر مثلاً أو أبيض، وتعتقلونه على أساس أنه يحمل مسكرات، ويتبين العكس، فتتركونه وهو شاعر بالمهانة. أما الشرع فإنه لا يجيز لكم مثل هذا التصرف بأي حال من الأحوال، لماذا تهتكون أسرار الناس؟ يجب أن تكفوا عن تشويه الشريعة بأمزجتكم.

ومرة كان يزوره مسؤول كبير جداً.. وجرى الحديث عن الحرب العراقية الإيرانية - قبل سنوات من قبول إيران بقرار مجلس الأمن بإيقافها - وانفعل الشيخ مؤكداً أن الحرب مستمرة من أجل ترسيخ زعامة بعض الزعماء، وذكر بعضهم بالاسم ومنهم من كان يخاطبه، ونصحه بإصرار أن يبحثوا عن مخرج مشرف قبل أن تتراكم الخسائر وتصبح بحجم الفضيحة، ويظهر صدام حسين وكأنه قد حقق نصراً مجانياً علينا، خصوصاً أن إيران قد أثبتت قدرتها على الرد ولا داعي للغرور.

ولد في نجف آباد، المدينة المعروفة في محافظة أصفهان، مدينة الزراعة والكدح والعرق والعلم والنضال، قدمت ومنذ الأيام الأولى للحرب أكبر عدد من الشهداء، كما قدمت نسبة كبيرة من شهداء الثورة ومن العلماء والمناضلين والمشاركين في إدارة الثورة والدولة.. والده كان إماماً لمسجدها، وبقي مزارعاً وراعياً للناس علماً وعملاً حتى توفي بعد مئة سنة من عمره زاهداً.. لا يملك شيئاً.

ومرة بلغ أحد رجال الدين العرب أن الشيخ منتظري يفكر بزواج ولده سعيد من كريمة هذا العربي، وكان بيته مجمعاً على حب الشيخ أصولاً وفروعاً، ولكن كريمته استشاطت غضباً وقالت: لا أوافق، لأنني لا أستطيع أن أعيش كما يعيشون على بساطة عيشنا، ولكن بساطتهم استثنائية ولذلك فإن زواجي من ولده سوف يكون مشكلة لنا وله.

وأخبر والد الفتاة الشيخ بما قالته فأرسل لها معه تحية ودعاء بالتوفيق.

درس في الحوزة كما يدرس الآخرون. ومن دون أي امتياز أو ادعاء أو استعراض، كان تلميذاً نجيباً للمرجع المميز السيد حسين البروجردي، الذي تميز كذلك بانفتاحه على فقه المذاهب واحترم جهود علمائها وناقشهم في أبحاثه المعمقة مع تلاميذه، وتأثر به لهذه الناحية تلميذه المنتظري الذي صدرت مؤلفاته الفقهية في شبابه المبكر مميزة بلغتها العربية الصافية ودقتها وتأدبها الشديد أثناء نقاشها لآراء الفقهاء السنّة في المسائل الخلافية، وكانت مؤلفاته هي تقارير تمثل فهمه الشخصي لفقه أستاذه الذي توفي في أواخر الخمسينات من القرن الماضي.

وفي العادة أن الناضجين من تلامذة المراجع السابقين يلتحقون بالمراجع الجدد الذين يحفظون لهم تميزهم وتقدمهم العلمي على غيرهم، وهكذا اندمج الشيخ منتظري بالإمام الخميني حتى عد تلميذاً مشتركاً له يقترب من الزمالة، ما جعله يقترب في نشاطه وجهاده السياسي العنيد من موقع الرفقة للإمام الذي رآه مرة خلاصة له وصرح بذلك.

شارك بفعالية في بناء الدولة ونقد السلطة فأثار حنق أهل السلطة مبكراً، وتمادى ولده في معارضته للسلطات بعد الثورة، إلى حد أن أمره أبوه بالاعتزال فاعتزل، وعندما هدأ أعاده مجاهداً، بواقعية أوصلته إلى الشهادة، مات محمد منتظري شهيداً نظيفاً.

ومن موقع الراعي والتاريخي شارك الشيخ حسين منتظري في وضع الدستور، وكان من أهم مؤصلي مسألة ولاية الفقيه، ولكنه عالم أولاً وسياسي ثانياً أو ثالثاً، ومن هنا استمر ولم يكف عن إعادة النظر في المسألة شأن العلماء، وانتهى في آخر المطاف إلى الانحياز للتمييز بين الدين والسياسة وبين الدين والدولة، وكتب فقهاً متراجعاً عن الولاية المطلقة للفقيه، داعياً إلى (نظارة) الفقيه، أي تحويل الفقيه إلى رقيب وناظر والى موقعه الإرشادي لا المولوي في إدارة الدولة.

نضاله وأهليته العلمية رشحاه لأن يكون خليفة الإمام. ولكن الإمام الذي كان يمتدحه صراحة كتابة، لم يعيّنه ملتزماً بالمنطق السائد، ولكن التقارير التي وصلت إلى الإمام وضعته في سياق آخر، فتم قطع الطريق عليه وعزله في منزله، مع محطات أو جرعات من الحرية النسبية بين فترة وأخرى، لم ينقطع عن البحث والدرس وحده أو مع تلامذة على عدد أصابع اليد الواحدة، وعندما كانت الأمور تنفرج كان مجلسه العلمي يستقبل مئات الطلاب الذاهبين إلى الاجتهاد، ولم تتراجع شعبيته، وبرغم كل العوائق وكل العوامل المساعدة للآخرين، بقي المرجع الأكثر انتشاراً في مرجعيته في الوسط الشعبي وبين العلماء وحتى بين رجال الدولة من دون أن تؤثر في ذلك أخطاء أو ردود أفعال جرت حوله من قبل مقربين منه، وتمت المبالغة العظمى فيها للانتقام منه. وتجلت جرأته وشجاعته وانحيازه للإصلاح أكثر

ما تجلت في الفترة الأخيرة، حيث لم يعد الإصلاح فكرة، بل أصبح مساراً ومشروعاً تحمله قوى اجتماعية ودينية معنية بإيران ومستقبلها وتجربتها وما يقع على عاتقها من وظائف حضارية وسياسية، نموذجية تقوم على الحرية والديموقراطية والتوازن والاعتدال والإصلاح.

وغادرنا في هذه اللحظة الشديدة الحساسية، من دون أن يكون هاجسنا أن نبحث له عن خليفة في خطه، لأن ذلك كان صعباً دائماً فهؤلاء الرجال استثنائيون، غير أن الذي يعزينا هو أن تيار الإصلاح في إيران قد تحول إلى مؤسسة مركبة ومتكاملة. هناك فريق كبير من الإصلاحيين الذين وجدوا رأيهم وأولوياتهم، ينهضون بالعبء، ويصبرون إلى أن تنجز إيران كلها مخرجاً من أزمتها الحالية لتعود إلى دورها وحيويتها من دون أوهام أو مبالغات. وتعود التنمية والنهضة لتواصل حركتها في إيران بالشعب الإيراني، كله ومن أجل إيران كله، والتي تنعكس خبراتها على أعماقها من دون مصادرة أو استلحاق.

سنبقى نذكر له، حبه ومجاهرته بحبه للعرب وفلسطين من دون وصاية أو منة على أحد، ومع الإصرار على احترام من يختلفون في ما بينهم من العرب والفلسطينيين، ومتى يختلف هو معهم.

لقد كنت من الذين فرحوا قليلاً عندما تم إقصاؤه لأنه أنقذه، أنقذ العالم الذي يكون دوره السياسي أكثر فاعلية، من خارج العملية السياسية وآلياتها السلطوية، والذي أحزنني هو

القسوة التي ظهرت في سلوك بعض الذين استفادوا من قربهم منه ثم تحولوا إلى أعداء مستفيدين من بعدهم عنه، لقد آذتنا طريقة التعامل معه. وجعلتنا نكف عن التوكيد بأن الثورة أو الدولة إذا ما كانت محكومة بقيم روحية فهي تختلف عن غيرها. وفوجئنا، ولكن المنتظري بقي مرجعاً وأملاً كما كان يسمى، ومات مرجعاً في لحظة وجع وأمل.

من بحر الذكريات

قلت لصاحبي المدقق والمهذب إني ذاهب إلى الشيخ منتظري. فقال لي: قل له إنه لا يناسبه أن يتكلم عن رئيس دولة كبيرة ومحترمة بلغة السخرية وإن كان يخالفه. قلت له ذلك. فأرسل معي تحية إلى صديقي السيد محمد مرتضى، ولم يعد الشيخ إلى استعمال ألفاظ السخرية.

ومرة، في أوائل الثورة، ودعته فقام لي عن أرض غرفته العارية إلا من بساط مستهلك واقتادني إلى غرفة أخرى بعيداً عن رفيقي الأستاذ طلال سلمان الذي رشقني بابتسامة ذات معنى.. وقال الشيخ: أريد أن أزورك، قلت له: ليس لديّ منزل في قم، قال: أزوركم في منزلنا هنا، وسألني عما إذا كنت بحاجة إلى مال ومد يده إلى جيبه، كنت أعرف أنه سيعطيني ولكن ليس كثيراً، ولم أرفض لهذا السبب، بل لأني لم أكن بحاجة، قال لي: لمصروف رفاقك، قلت إنهم ميسورون (بسبب الأستاذ طلال) وقال لي العارفون إني لا أعرف قواعد السلوك مع المراجع.

فقد كان الرفض خطأ، سأعود إلى هذا الخطأ دائماً إذا كان المرجع مثل الشيخ منتظري لأني لا أخاف من ردة فعله، سوف يغضب عليّ بسبب الرفض ويثق أكثر بسبب هذا الرفض، هكذا تصبح القيمة رجلاً ويصبح الرجل قيمة.

ـ عندما حصلت فرجة في السياج المضروب حوله، كنت في قم وبعثت إليه من يقول له إني أنوي زيارته. فأرسل لي: لا داعي للعجلة، فهذه الزيارة لن تفيدني وقد تضرك، وبعد سنتين زرته، وجدته نحيفاً أكثر وناشطاً أكثر، وممتنعاً عن تذكر الأوجاع السالفة. سألني عن عائلتي وانتقل بسرعة إلى فلسطين، سألني عن ياسر عرفات وصحته، وأبلغني عتبه عليه سياسياً ودعاءه له بالتوفيق.

فلسطين التي جمعتنا
محجوب عمر ـ حكاية ورسالة

١ - الحكاية

لدي رسالة كتبتها ليحملها الفنان الكبير الصديق محي الدين اللباد والد مصطفى وأحمد، إلى صديقنا وحبيبنا المشترك ورفيقنا المميز وراهب من رهبان النضال الذين تدربوا ودربوا في دير شيخ الرهبان في فتح خليل الوزير، إلى الدكتور محجوب عمر أو رؤوف نظمي.. المقيم في منيرة السيدة، في شارع حلوان، حيث يمر قطار أنفاق القاهرة إلى ضواحيها، ولكنه قرب منزل محجوب، على أمتار منه، يخرج من النفق ليمتلئ دماغ محجوب بصوت عجلاته وزعيقه الذي لا يزعج الحكيم، بل يسليه في مرضه ويخفف آلامه، لأنه يقول له بأن فقراء المحروسة واصلون إلى منازلهم بكلفة وزمن أقل... ومحجوب قادم من أبو قرقاسٍ حيث لا تعرف لون وجوه أهلها ولا تميز بين قبطي ومسلم، بسبب الغبار المتراكم صيفاً، ولذا انتظر أهل الفتنة حتى خف

الغبار وبانت الوجوه، فعُرف وجه جرجس ومارية من وجه خضر ومريم.. وارتكب أهل الفتنة فتنتهم وسالت الدماء..

محجوب.. قبل سنوات.. ذهبت إلى زيارته في منزله فلم أجده... قالت منى: ذهب إلى أبو قرقاس، قلت: خير أن شاء الله ولماذا؟ قالت: قررت ثانوية البنات في المدينة تلك، من مدن أسيوط، أن تأخذ تلميذاتها في رحلة آثارية إلى الأقصر، إلى الكرنك ووادي الملوك ليلتقوا يآمون ويسمعوا صوت الراهب، ما جعل كل البنات يفكرن بلباس يناسب الرحلة، فاخترن بنطلونات الجينز.. وكانت ابنة شقيقة محجوب إحداهن فاختلفت العائلة بين قابل بارتداء الجينز للفتاة ورافض، لأنه لا يلائم تقاليد الأسرة، واتفق الجميع على تحكيم رؤوف - الخال - والقبول بفتواه، الذي هو محجوبنا. في منزله.. على مسافة أمتار من سور باطوني عال تتخلله فتحات تصعد إليها بسلالم حجرية لتدلف منها إلى حوارٍ تقودك إلى السيدة زينب.. زرته فقررت زوجته الصديقة الودود... أو أمه التي تصغره سناً.. أو ممرضته المريضة.. أن تغتنم الفرصة وتزور مصطحبة محجوب في فسحة روحية وبدنية إلى مقام السيدة، بقيادتي، وتكريماً لي تسمح للدكتور أن يتناول معنا وجبة من لحوم الرأس والحوايا في المطعم الشعبي الشهير الذي تتوقف على مدخله كل ليلة سيارات فارهة لميسورين يتذكرون جذورهم وأهلهم وبيوتهم وأيام فقرهم، عندما يتخففون من أعباء المجاملات على موائد المطعم البسيطة بين البسطاء.. مطعم الرفاعي.. ولم تفعل منى

شيئاً لتردع محجوب عن شيء، إلا أكل الألسنة، لغناها الشديد بالدهون والكوليسترول... ولأنها تخاف أن يعيد أكل الألسنة محجوب إلى عادته في الحديث الطويل والمتشعب والجذاب والذي تتخلله الحكايات والمفارقات وتسترعي البسمات والضحكات قالت يكفينا لسان واحد منه وإلا تعب وأتعبنا أضعاف ما يمتعنا ويثرينا، ويعترض محجوب بأنه هو الطبيب وهي دكتورة أو عالمة في العلوم الإنسانية والآداب ومترجمة ترجمة راقية لدومنيك شيفاليه.. ولا علم لها بالطب.. وإلا فإن كل لحوم مطعم الرفاعي، هي أكثر غنى بالدهون من غيرها على الإطلاق.. وتنتهي المشكلة والجدل بالاتفاق على لسان واحد لمحجوب.. خوفاً من محجوب على منى من أن يؤثر زعلها على الوضع الصعب لشريانها الأبهر.. وخوفاً من منى على محجوب من أن يؤثر المنع التام على قلبه الذي يتداول الجلطة مع دماغه.. وقد تزيد نسبة الشلل في جسده وتقل قدرته على الحركة والكلام والقراءة عن فلسطين والكتابة عنها، كما حصل أكثر من مرة واحتاج معه محجوب إلى خدمة تامة وتدليك يومي ومزيد من لطف منى ورعايتها وحنانها، وزيارات الأصدقاء في أوقات محددة، بعد وجبة التدليك أو بعد النوم عصراً أو قبله ليلاً...

كنت في فترة راحة بين جلسات أحد مؤتمرات الحوار في بهو فندق شبرد في القاهرة.. رأيته من بعيد... كنت عارفاً بالجلطة الأولى وقد زرته بعد سلامته منها وقررت أن أزوره في أول يوم لوصولي إلى القاهرة إن أمكن وإلا ففي آخر

ساعة أصالة ونيابة عمن يشتاقونه وهم عشرات في لبنان وعمان.. كان قادماً نحوي وكأنه شبح.. فوجئ بوجودي.. كان على موعد مع حافظ أبو سعدة... أخبرني أنه مستعجل.. قلت: لماذا قال: هي أخاف عليها أن تموت.. فأموت.. هي أمي وزوجتي وبنتي وملاكي الحارس.. هي كل شيء وهي نافذتي المتبقية على المشهد الفلسطيني والحياة والقاهرة. وأنا أبوها وأمها وأخوها وأختها وشرطي حزنها وفرحها، بعد أن جفاها من جفاها عقوبة على اقترافها لي... كان أبهرها قد بهره بانسداده غير التام، ولكنه عالي النسبة... فأودعها القسم الفرنسي من مستشفى القصر العيني.. وجاء مستعجلاً لأنه لا يستطيع التخلف عن الموعد.. كما كان دائماً وأخبرني ميشال نوفل الذي بدا عليه الحزن والخوف.

وكان يحب الصخب.. صخب الناس والأطفال خاصة، يجد نفسه في الناس، من الطريق الجديدة وأبي علي الحلونجي في شارع وفيق الطيبي، ومركز التخطيط، إلى أطفال وأمهات تل الزعتر.. وعندما نقلوا جرحى تل الزعتر إلى مستشفى مرتجل في الجامعة العربية عام ١٩٧٦... ذهبت معه ومعنا محمود درويش لزيارة الجرحى الناجين من المجزرة.. كتب محمود درويش لأحمد الزعتر، وكتبت افتتاحية لجريدة السفير.. أما محجوب فقد صفق بيديه وأطلق من فمه صفرة مميزة.. وصرخ بعبارة غير واضحة وبتركيب طفولي في مفرداتها وبنيتها الصرفية وما هي إلا دقائق دون الخمس حتى امتلأت ساحة الجامعة العربية في بيروت

بالأطفال... وانهمك محجوب برد تحياتهم والسلام عليهم ومصافحتهم فرداً فرداً والسؤال عن أحوالهم وأهلهم وهم حفاة على رموش أكثرهم بقية من آثار النوم التي لم يتوفر الماء الكافي لغسلها.. كانت قصيدة محجوب المؤلفة من طفولة متبادلة بينه وبينهم تضارع قصيدة محمود درويش جمالاً وبلاغة ووزناً وإيقاعاً داخلياً وخارجياً ووحدة عضوية بين الشكل والمضمون..

روى لي محجوب أنه كان مرة يتسلل ذاهباً إلى مقره في أحد أزقة مخيم تل الزعتر عام ١٩٧٦ قبل المجزرة وكان القصف شديداً والوقت ليل من دون ضوء فسمع فتاة صغيرة تغني على شباك بيتها "نطرني عالشباك تا قولو قلبي بيهواك" فسألها: "ومين نطَّرك؟" قالت: أبوي...

كنا عشنا مع محجوب سنوات وهو يمتعنا بالحكم المستنبطة من فكرة حرب الشعب طويلة الأمد!!! وكان يطبقها في طعامه وشرابه وعمله ومشيه ونومه وسهره وعلائقه وزواجه السري، ممن كان يقدمها لنا بأسماء متعددة ويضحك وتضحك عندما نذكرهما بالاسم السابق.. ولم نعرف أنهما متزوجان.. وهي لبنانية وهو مصري وهما معاً فلسطينيان حتى عام ١٩٨٢ لدى العودة إلى مصر مبتعدين عن العرقوب ومركز التخطيط وأبو علي الحلونجي والكتيبة الطلابية.. ابتعدا سابقاً عن الأغوار.. حيث روى لي الأخ محمد صبيح سفير فلسطين السابق في الجامعة العربية.. أنه كان بصحبة عدد من قيادات فتح بعد معركة الكرامة بأيام في الأغوار.. ووصلوا

إلى خيمة لفت نظرهم مستوى نظافتها وأناقتها البسيطة، أناقة الفراغ، ورجل فيها يحمل مكنسة من سعف النخل يكنس بقايا طعام وتراب من أمام الخيمة.. سألوه عن قائد الموقع.. فاصطحبهم بصمت إلى مكان بعيد بعد أن حضر لهم الشاي وسقاهم.. أوصلهم وعاد أدراجه.. فسألوا أبا جهاد من يكون هذا الذي أتى بنا إليك قال: هذا طبيب مصري ويساري كبير وله تجربة نضالية مع الثورة الجزائرية وقد التحق بحركة فتح منذ شهور واسمه الحركي محجوب عمر.. وقد أجرى مراجعة فكرية فناسبته فتح... في منزل محجوب عمر في منيرة السيدة زينب في مصر المحروسة.. تجد كهولاً مصريين أطباء ومهندسين وبسطاء متسامين.. أقباطاً ومسلمين من أسمائهم تعرفهم.. فإن كانت الأسماء مشتركة أو ملتبسة حرم ذلك غير العالم من العلم بدين من يحملها، من دون خسارة، لأن هذا النوع من العلم، إن لم يكن عفوياً وإنسانياً، كان أجهل من الجهل... وها أنا رجل دين مسلم وشيعي، أطلب تمكيني من الوضوء والصلاة في منزل محجوب فينهمك المنزل بي وتدلني منى (المارونية) على القبلة... ويصلي البيت.. جدرانه وأبوابه وشبابيكه وساكنوه وضيوفهم معي.. يذهبون في صمت يعادل الصلاة وصلاً... ما الذي جمعهم؟ كانت تجمعهم مصر... ويكفي في مصر لمن يريد اجتماعاً أن يسلم قياده وقلبه لمصر.. لذاكرتها وحلمها ونيلها، وإن كان حاضرها العصبي... الطائفي. بقطع الوصلة بين تلك الذاكرة وذلك الحلم... ولكنهما لم يتعودا على طول

الفراق وسوف يعودان بعد أن يذهب الزبد جفاء... إلى مصر كانت تجمعهم فلسطين.. أوه! هؤلاء مناضلون قبلنا وأكثر منا ومبتعدون من الأصل عن الأماكن والأشخاص الذين يبعثون فيك الألم والشك والخوف على نضالك من أن يذهب هدراً بسبب سوء سلوكهم وتفكيرهم... لولا أن فلسطين أقوى حتى من أهلها الأقوياء.. الجبارين - ومن هنا هذا الصفاء وهذا الإدمان على تذكر كل التفاصيل النضالية والمتابعة التفصيلية لتفاصيل الحياة والنضال والصمود اليومي في غزة والضفة.. والحب للجميع والرغبة في الوحدة والمصالحة. وما الداعي إلى الدهشة؟ وهم مصريون.. وها هم يكادون يعتبرونك مصرياً لأنك تأتي من مصر إلى فلسطين ومن فلسطين إلى مصر.. ثم يتذكرون أنك لبناني. وأنك جنوبي تنام على ذراع الجليل وتصحو على كتف الجولان وتقدم لفلسطين خير ما في منزلك من أرواح ودماء وكلام.. ويحبونك أكثر.. ويعتذرون منك.. ولا تدري لماذا؟ إنه الأدب المصري الذي يفسدونه شكلاً ومضموناً، ثياباً وكلاماً ولغة يومية.. بالعصبية النابذة والذميمة والقاتلة لصاحبها قبل الآخر، لأنها تقتل الآخر في صاحبها فتقتل صاحبها في الآخر... على أننا نقر بأن وطنية المصريين ضمانة لنا ولمصر... أما العصبية بين المصريين فهي لا تناسب مصر.

يوماً قررت زيارته قبل عودتي إلى لبنان.. لأقدم له وجبة أخرى من ذكرياتنا معه.. ومن الذكر الدائم لدى عائلتي لزيارته المنزلي في قريتي وحديثه الودود مع أطفالي وما

علمهم من حركات وأغانٍ طريفة علموها لأولادهم وعرفوهم على محجوب... وبدل ما كان يلزمني بالضحك في سياق الجد أحاول أن أصنع معه صنيعه معي فأوفق إلى حد ما ويرتاح.. فأودعه بقبلة في جبينه ويقبل طرف ثوبي الديني ويتغرغر الدمع في عينيه ولكنه لم يعتد على البكاء.. كان يبكي وحده كما وشى لنا أحمد سويدان روحه المنفصلة ويده التي كتب بها كثيراً... وها تفت العزيزة منى.. الأم تيريزا على حنان وفقر معادل لحنان تيريزا وفقرها.. وعلم وثقافة أوسع في اللاهوت والعلوم الأخرى... قالت نحن في مشكلة نعالجها الآن.. تفضل بعد الظهر... وذهبت بعد الظهر قلقاً.. دخلت.. أين محجوب؟ كان في غرفة النوم ممدداً على السرير الشعبي إياه منذ عقود وكأنه في العرقوب ربما ولكنه هذه المرة معمم بالأبيض... وكان في تجربتنا معه في مستوصف بلدة النميرية في الجنوب باسم جلال... لا يباشر مريضاً من دون البسملة.. وإذا احتاج الأمر قال ما يحفظه من آيات القرآن أو أحاديث الرسول.. فلا مانع من أن يتمشيخ وقد سبق له أيام ملاحقة الأمن لليساريين قبل دخوله السجن وصداقته لسيد قطب داخله.. أن تلبس بلباس الدراويش والمداحين ونظم قصيدة شعبية في مدح السيدة زينب وأخذ يداوم حول الضريح قارئاً مديحه بصوت شجي وكأنه قادم من كربلاء ماراً بالجلجلة ويتقبل بعض المليمات من الفقراء الذين يلفتهم بأنه يرضى بأي عطاء ولا يطلب المزيد... بل لا يطلب أبداً.. على عكس المداحين الآخرين، ما أثار شك رجال

الأمن.. فهرب. قالت منى... أراد أن يقوم وحده مع الفجر إلى الحمام.. غلبه بدنه فسقط وشبح رأسه الذي احتاج إلى عشرين غرزة وإلى عذاب شديد من الصباح الباكر حتى الظهر إلى أن وجد الطبيب الصديق الذي يتابعه لوازم العلاج خارج المستشفى... وقلت له سأغتنمها فرصة نادرة.. وأخذت معه صوراً عدة... هو بالعمامة وأنا من دونها.. أعتمر طاقية مغربية تخفيفاً للحرج في شوارع القاهرة.

طوال الحروب اللبنانية، وبين أطرافها المتعددة، المتعمدة للحرب أو المتورطة فيها إلى حد التعمد، لم يكن محجوب عمر متحمساً أوراغياً في الانتصار على أحد، من دون أن يكون متنصلاً من الموقف، غير أن موقفه لم يكن (دوغمائياً) كان هدفه وشاغله فلسطين والمقاومة الحقيقية لا الاستعراضية... كان كارهاً للقتل تحت أي ذريعة وشعاره الذي يردده يومياً (بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين) وعندما كان يسمع أن قاتلاً قد قتل يحزن ويقول: ألم أقل لكم؟ وخلال حرب السنتين ١٩٧٥ - ١٩٧٧ كان محجوب لا يكف عن إظهار حزنه وقلقه على فلسطين التي كاد ذكرها أن يغيب في خضم الكلام المجاني عن الحرب اللبنانية والانهماك فيها، وأسقط همومه على صبورة في حائط مكتبه المتواضع.. كانت صفحة نقدية مفتوحة يوقعها باسم (خدام اللطافة) ويكتب عليها نصوصاً قصيرة له تمتلئ نقداً أو مرارة أو تسجيلاً للمفارقات... ويعيد كتابة ما يسمعه من نصوص أخرى... وهكذا أسرع إلى كتابة مقطع من صلاح عبد الصبور

عندما ذكرته به في لحظة ضيق واختلاط للحق بالباطل والحرامي والقاتل بالمناضل فكتب في مجلة الجدارية:

"هذا زمن الحق الضائع.. لا يعرف فيه مقتول من قاتله
ومتى قتله
ورؤوس الحيوانات على جثث الناس
ورؤوس الناس على جثث الحيوانات
فتحسس رأسك.. فتحسس رأسك

أو:
قلتم لي لا تدسس أنفك فيما يعني جارك
لكني أسألكم أن تعطوني أنفي
وجهي في مرآتي مجدوع الأنف"

وعلى تلك الصبورة في الجدار قرأنا قصائد محجوب عن الحمار وصفاته الثورية: "أنا اسمي حمار معروف مشهور شيخ الشطار
شغيل وباشيل الحمل ثقيل
مصروفي قليل.. أنا اسمي حمار إلخ...

ومطلع قصيدته تعريضاً بالتقدميين الذين سرعان ما تحولوا إلى مخربين للحياة والعمران والأخلاق والسياسة:
"شفتلكو طريقة طريقة لِقْتَال الوحش الضاري
هاتولي رفيق ورفيقة ناخذهم عالأنطاري"

وقصيدته التي يكشف فيها مفارقات فاضحة بين

الاستخدام الممجوج للغة التقدمية والسلوك الطبقي المتهافت والتضليل اليومي للطبقات الكادحة "الجماهير"

"أنا اسمي جمهر.. مفرد جمهور.. مفرد جماهير

يعني لا ريس ولا بانكير

ولا في جدودي عبد أمير

شيء معروف وكتير مألوف.. على أشكالي ألوف وألوف

بيحكوا الكبر عني كتيروالكتيبة كتبو اكتير

بس يا عمي أنا مش فاهمليه بيحكوني بالفوازير

أميريالي وترو سكاتي بروتالوري

وحْروف واقفة جوا فْ زوري

على بال ما افهم بيروح دوري

واسأل يشْخَطْ فيِّ وينهر

واطلع جاهل علشان جمهر".

مرةً وجدناه فرحاً فوق العادة. وحزيناً إلى أم رأسه سألناه وما السر؟ قال: دلال... نجحت العملية واستشهدت دلال والشباب.. هذا إحياء للقضية بعد تغييبها لسنتين من ١٩٧٥، إلى ١٩٧٧.. كما ذكرنا...

وكان يفرح عندما يعلم بعد توجه الشباب إلى العملية يرى حمدي فيخبره أن الزرع أخضر.. أو يعود إليه حمدي ويحدثه عن الغلة.. فيشعر بالعافية ويطبع قبلة على خد أبي حسن.

٢ - الرسالة

(كما كُتبتْ في ٢٣/ ٤/ ١٩٩١ مع تعديل طفيف جداً)

عزيزي المرغوب محجوب... سلام على حاميتك الطاهرة السيدة زينب وعلى راعيتك النبيلة منى عبد الله... وعلى العزيزة بهية وعيون بهية ودموع بهية، وقبلاتي للفائض من سمرتك التي تفيض شرقاً وصعيداً وعروبة وتبقى دلالاتها أبعد منزعاً من دلالات المصطلحات الباردة وفائض القيمة وما شابه ذلك - ولهي السمرة التي تذكرني بقمح أهلي البلدي الذي نتذكر طعمه المميز ورائحته الجذابة التي تصاحبه من الحقل أخضر ويابساً إلى البيدر إلى (طشت العجين).. إلى الصاج إلى المائدة المكونة من الزيتون الأخضر والزعتر الرمادي والزيت الذهبي والفجل الأحمر واللبن الزبادي والبندورة (الأوطة) البعلية التي تشبه بحموضتها حلاوة البلح الزغلولي. وبعد... وقبل.. ومنذ التقينا وإلى آخر العمر.. كنت وما تزال وما نزال ولا زلت ولا زلنا بخير.. ألسنا قد بلغنا مبلغ الوعي مرة ومعاً؟ وقلوبنا ملآنة بالورد والضروري من الشوك... وذاكرتنا مطهرة من الدنس؟ إذن فنحن بخير وما علينا إلا أن نحمد الله على ما رزقنا من سداد وصواب في ما قلنا وفعلنا وأكلنا وشربنا وأحببنا وكرهنا وفرحنا وحزنا إلخ.. كنت منصرفاً إلى أمر يشغلني.. وأتى الحبيب محي الدين... اللباد اللا بد الملبَّد إياه.. فأشعل ذبالة منك في سراجي ففاض زيتي وقوداً لذكراك وميروناً لعمادتك على شاطئ البحر الميت قبالة أريحا وعلى مرمى عين أو أذن من حسن صالح

رئيس بلديتها... وتداعيت إليك أو نحوك أو تعاليت فأمسكت بي واقياً لي من سقطة أو سقطات راجياً أن أعاونك وأعينك وأصونك من أي سقطة... وهززتُ إليك بيراعي فاسَّاقطَّ حبراً شهياً وحباً بهياً.. كنت أكتب عن شاعر أحبه.. وعندما عاودتك إذ أرسلني إليك محيي - أنت في كثير من أواخر ليالي تعاودني وتعودني - وفي ليل المعنى تأتيني لغتك كنايات واستعارات وصراحات وبلاغات لا تنتهي.. عاودتك أو عاودتني - لا أدري - فوجدت أن الكتابة إليك أحلى وأجدى، من الشعر، وأعظم الشعراء هو الذي يمتلئ شعراً ولا يكتبه، يكتبه الشعر بدل أن يكتب الشعر... مرة أو مرات كتبت شعراً... أنت... فابتعدت قليلاً عن الشاعر المقيم فيك صامتاً وكأنه مطارد من رجال أمن العدو الذي تعرفه.. أما أنا فلم أحاوله لأبقى قريباً من أمثالك، نصنع شعراً يكتبه الشعراء ونطرب لهم... وها أنت أقرب إلي من نفسي أحياناً.. أليس في الحب ومض أو قبس من معنى الألوهة أو النبوة؟ عندما جئت من النيل والتقينا في الجليل وأسري بنا إلى القدس وعرجنا إلى السماء الثامنة، أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من بيسان... واتفقنا أن فلسطين كلما أوغلت بعداً عن العين أوغلت قرباً من القلب.. "إن القلوب مواطن الأوطانِ".. ولها الزمان... هي سوار معصمه وليس هو قيدها... إذن نصل نحن أو تصل هي.. والحلم ليس تعويضاً عن الواقع والعيان، بل العيان هو تعويض عن الحلم، لأن الحلم يمر بالواقعي أو العياني فيستوعبه ويتجاوزه إلى مثاله المنشود، وإن كان صعباً

فإن صعوبته تزيده ألقاً وجذباً... ما زال بإمكاننا أن نحلم..

هذا ما لا يستطيع أحد أن يمنعه أو يصادره أو يضبطنا متلبسين به.. لأنه متلبس بنا دائماً.. ولذا فهو خفي شديد الخفاء ظاهر شديد الظهور.

نحن الذين نحكي عن أحلامنا.. تماماً كما نحكي عن عيوبنا ونتوب منها.. وأنا اخترت في حلمي داراً لي بين (دورا الكرع ودورا الخليل) أزرعها كل شتاء عدساً.. ولكن - الجعفيل - النبات الطفيلي إياه الذي لا ينبت إلا في الأرض القوية، يأكل عدسي فماذا أفعل؟ أزرع ثانية وثالثة وألفاً وأنزع جذور الجعفيل على مهل.. جذراً جذراً... حبة حبة.. خطوة خطوة، شبراً شبراً.. حتة حتة... أليس أصل حوض السباحة قطرة.. والبحر كذلك. إذن من البحر إلى النهر قطرة قطرة... حفنة تراب وكفاً من حنطة وطاسة من زيت وغصناً من زيتون وكوباً من ميرون وإضمامة حبق وميرامية وباقة من زهر ليمون يافا ويفوح العطر ويتوقف المغص.. ويا حلالي يا مالي.. ويغني الحادي... يا حلالي يا مالي... ويتقاطر سلاف التين من كفر راعي ونعلين وسلاف العنب من الخليل ونابلس.. وسلاف الخوخ من برقين والرمان من الرملة وصفد والبابونج من فسوطة ومعليه.

ولي.. ولنا.. في دمشق قبر خليلٍ، قبرٌ خليلٌ، وفي بيروت الضريح المزار والمرمح لجواد ذي الشعر الناعم الغاصم كليل المخيم - تعرفه - وطوق لعلي يبدو من صورته المعلقة فوق ضريحه في غرفة ضيقة ومفتوحة أمام المارة في

شاتيلا وحكايات عن نبله وكرهه للدم المجاني والنضال الزراعي.. وأنا أواضب على الحراسة.. وأنوب عنك إذا ما احتاجوك وأنت بعيد وممنوع.. لم تعد ممنوعاً... ولكنك تؤثر إذا ما اشتقت إلى ذاتك أن تخص غزة بسفرك.. لأن لبيروت وشهدائها من يزورهم ويقرأ الفاتحة جهراً من دون خوف، هل تعلم يا محجوب أني عندما أذكر فلسطين بحب وحماس علني أتلفت يمنة ويسرة لأن حولي من كانوا يضطهدونني عقاباً لي على فلسطينيتي أي حبي لفلسطين التي أحبها من أجلها ومن أجل لبنان أيضاً.. ثم أنتبه إلى أن هؤلاء الآن يعلنون حبهم لفلسطين ولفتح وأبي عمار أحياناً... ولكني معقد لكثرة ما ضايقوني وحاصروني.. يا سبحان الله!. وإني لأخشى أن يقول لهم أحد ممن يأمرونهم بالحب أن ينهونهم عنه.. أن يكفوا.. يا ويلي ربما قتلوني هذه المرة.. إذن فلا بد من العودة إلى الحب السري والنضال السري.. وأنت كما نعرف رائد السرية.. في كل شيء.. هنيئاً لك... ومن مقبرة اليرموك إلى مرج عذرا لقراءة الفاتحة لحجر بن عدي وأعرج على ضريح ابن عربي أسمع وصيته في الحب المفتوح ثم أقرأ الأبانا على روح جول جمال.. وآخر المطاف يكون في ظل مقام الست.. زينب مستعيداً نجواك ومناجاتك لها أيام رعبك وأيام كان الكلام جميلاً وكان الصمت جميلاً.. وأرى معك كم أننا ماضويون؟ خاصة عندما نطنب في الحديث عن المستقبل!.. مثالنا وراءنا يا رؤوف ويا منى.. ويا محمد حمزة وسعد عبد الحكم ومحيي.. وليس أمامنا.. على الأقل ليس

في المدى المنظور.. واعذرني لهذا التقطع في الكلام، فنحن في طور إعادة إنتاج – (شايف ما أحلاها إعادة إنتاج، !!!) – سايكس بيكو.. أي تقسيم المقسَّم وتجزيء الجزئي أو الجزء إلى جزئيات أو جزيئات. بالنانوتكنولجي.. هذه المرة.. تجاوزاً للحاسوب لأن بؤسنا أسرع وتيرة من وتيرة نمونا المعرفي!!! هذه المرة لن يكون المواطن أقل شتاتاً من الوطن.. ويلي علينا وعلى هذه الأوطان التي نذهب إليها... نبحث عنها.. فنجدها تبحث عنا.. ولا نلتقي إلا في المنام أو المنفى أو السجن!

عفواً... تذكرت وسأذكر بالآية الكريمة [حتى إذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا]... إنني في محطة يمكن تسميتها مجازاً بأنها يأس كامل... والمجاز ابن الحقيقة يأتي بعدها وإن كان أحياناً أبلغ منها... ولكنه في المرتبة الثانية لا الأولى... ويا أخ محجوب أنت تعاقر النيل وتطالعه يومياً أو يطالعك... فلا ترفع عينيك عنه ومنه ولا ترفعه عن شفتيك... بلل بمائه روحك ما استطعت.. وتوضأ منه بكأس واغتسل بكأس أخرى... وهات يدك إلي امسحني، اغسلني.. فالليطاني ما زال مهدداً بالخطف..

يا أخ محجوب.. كنت.. عندما تضيق بي الدنيا في الجنوب الواسع، أرتدي ثيابي وهمومي وأخرج من بيتي وأهلي بلا كلام سوى السلام، يقدرون أني ذاهب إلى محجوب لأتخفف من الغم الذي يلحقني من الحياة أو من فلسطين التي كلما اقتربت إليها بدا وكأنها تبتعد... لا أظن أن

هذا دقيق.. ولعله أدق من تصوراتنا وأحلامنا.. ما يعني أننا سوف نموت ولا نراها... (رآها محجوب بعد أوسلو وحسدته).. وتطمئن زوجتي إلى أني سوف أعود أليفاً ألوفاً أكثر... وأعود من عندك بعد أن أمر بجواد، مستبشراً، ممتلئاً قلباً بالحب والرجاء.. أنت زيت الروح يا محجوب.. وأنا الآن أعيدك إلى وظيفتك في غسل الأحزان ومعالجة الإحباط، لأن غيوم الحزن تتكاثف فوق جبيني، آتية من الكويت ومن فوق بغداد، وأخشى أن تمطر... أنت الريح التي تبددها أو تحملها إلى مطارح أخرى... إلى تل أبيب مثلاً.. فكن أو ابق بحيث إذا ما احتجت إليك، وجدت صدرك كما عهدته رحباً كهذا الوطن العربي، عريضاً كهذا النيل (جارك) طاهراً نقياً كدماء الشهداء... خصوصاً دلال وحمدي وأبو حسن وعلي وسعد ونعيم وجواد ومروان وعبمطي ويونس... بهياً كفجر الحرية... الحرية؟ زكياً زاكياً كفمك، ذكياً كلسانك.. قوياً كجنانك.. وسلاماً سلاماً، قولاً من رب رحيم.

"إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرِبَ، كما أن البيت الذي لم يُسكَنْ يَخْرَبْ"... في آخر الحزن يا رؤوف محجوب شبر من أرض تشتهي البذور - على ما كان يقول أبي وجدي وجدتي - تُطْلع عشباً يزهر فرحاً أبيض، ونحن نزرع في أرضك، نحرثها فتحرثنا، تُعَشِّبها فتعشبنا، فابقَ.. أو كن ناطور كرمنا وكرمك.. أنطر كرمك أيضاً، وافرح بسمرتك الغامقة.. وإلا فمن أين نأتي بالخبز - ولوزلُّوطي - وبالخمر؟

خمرنا نحن المثلث كدموعنا ودمائنا؟

"رويداً رويداً موكب السكارى يصلون.. رويداً رويداً عُبَّاد الخمرة يصلون" - يقول (حافظ شيرازي).. فلا تستعجلْ.. لا نستعجلْ.. "ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع في غير أرضه" يقول علي بن أبي طالب... يا محجوب نظمي، أيها الفتى الذي كلما انتشر بياض الشيب على رأسه... كلما زاد شيبه اشتعالاً.. تألق وشب.. إني أخاطبك بصيغة المتكلم الجمع... لأنك نحن... لأنك أنت فأنت نحن.. ولأننا نحن نحنُ فنحن أنت.. نعم كل الذين عرفوك وعاينوك وعانوك وعاقروك ما زلت فيهم.. وأنا أنوب عنهم في مخاطبتك... فهل تسمع.. هل تسمعني تسمعنا؟ نحن على السمع دائماً.. خانك شريانك.. لقد أتعبته.. قل له أن لك في كل منا شرياناً منا احتياطياً مدخراً ليوم وجعك... عفواً.. خذ من هذا الكلام حباً ودع غيره. حافظ على شرايينك وأوردتك ووردك.. كرمى لعيونها.. تعرف من؟ وعيوننا، وإني لأود أن توافقني على ما قلته لي تكراراً من أن الحياة تستأهل أن تُعاش... يبقى السؤال: كيف؟ إنك خير من يملك الجواب قولاً وعملاً... رجائي أن تبقى طليعتنا في مراودة هذه الحياة عن حلالها وجمالها... بعفة وتقوى كما يليق بأشباه الأنبياء، أو من يتشبهون بهم، لا كما يناسب الأنبياء الكذبة، الكذبة، أشباه الرجال.. أشباه المناضلين.

سلام عليك يا محجوب... سلام على النيل وعلى المنْيَل، وعلى الفقراء في منابت الشيخ وملاعب الريح في

سيوه وسوهاج والمقطم والهرم وطريق الاسكندرية الصحراوي... وحلايب والشلاتين، وعلى الناس في الأقصر وأسوان ووكالة البلح وعزبة السكاكيني... سلام على رأس الدلتا حيث يفترق الواحد ليجتمع الجميع في حضنه بين الفرعين... سلام على زهران وعرابي ومصطفى كامل والأفغاني والساهرين في مقهى (متاتيا) ينتظرون نصيبهم من (عطوس) السيد جمال وفكره العابر للحدود متلفتاً قلبه دائماً إلى مصر موصولاً بالنيل وسور الأزبكية. وشارع الفجالة مكتبة القاهرة القديمة... سلام على ذاكرة الشعرية والجبرتي والحفر الأليفة في زقاق المدق وخان الخليلي ورائحة الحلبا في الفيشاوى، وعلى المتشبث بشباك الحسين وبائع الأحراز على باب السيدة... سلام على كنانة الله كلها وعلى أعوادها، على باب الحرمين، على المحروسة، أم الدنيا... سلام إلى الراهب المتبتل الساطع كضمير الشهداء، سلام إلى محيي الدين اللباد من صلعته إلى ريشته، إلى الدرش، الذي فتح لي، لقلبي شباكاً عليك وأعارني ريشته وألوانه وقرطاسه لأرسم وجهي في وجهك.. ما أجمل وجهي في وجهك!

وتعال نتبادل الأعمار يا محجوب، خذ عمري وامنحني عمرك، املأ عمري من عمرك حكمة وصبراً، ودعني أملأ عمرك من عمري رجاءً... "وعندما يصير الزمان إلى خلود سوف نراك من جديد لأنك صائر إلى هناك، حيث الكل في واحد".

محجوب.. أعلم أنك تعجبك تفاصيل الحياة اليومية

ومفارقاتها.. ها إني أسمع الآن أذان الفجر... وبعد قليل ينتشر النور الأزرق الذي كان يحيه محمود درويش حتى أنه ألغى سفره معنا إلى طهران مرة لأنه سهر الليل كعادته.. فأنجب مقطعاً من قصيدته.. وبحث عمن يكافئه.. فلم يجده، فقرر أن يستمتع بالنور الأزرق ويلغي السفر.. اسمح لي أن أصلي، وسوف أدعو لك بالجنة والرضوان، على أساس من قناعتي التي تعرفها في أن الخلاص الأخروي فردي... وغيره إخلال بمفهوم العدل الذي يكتمل به التوحيد.. فأنا رجل الدين المسلم الشيعي أرجو أن تكون رفيقي في الجنة.. لا من أجل الحور العين بل من أجل فلسطين، لعلنا نراها هناك إن لم نرها هنا.. فلا تقلق لأن دعائي إلى الله مستجاب لأنه خال من الأنانية... ها أنا قد صليت ودعوت لك ومررت في الطريق إلى غرفة (المونة) وعلى إبهامي بقايا دم من فأر اصطدته على عجل.. لقد عاثت الفئران فساداً في مؤونتنا وثيابنا ووصلت إلى أوراقي وذكرياتي المصورة أو ما تبقى منها بعدما دفنت أمي معظمها في التراب عندما وصل الصهاينة إلى قريتنا وغمز العميل لأبي بطرف عينه قائلاً: أتى وقت الحساب.. واستنفر الأولاد لصيد الفئران... تعلموا الصيد من الشباب الذين ربيناهم بعيوننا... وتصيدوا الصهاينة من دون أجر يومي أو شهري.. كانت حصيلتنا من الفئران القتلى هذه الليلة أربعة أزواج والحبل على الجرار.

وأعدك أن لا نتراجع، حتى لو بدا أننا ملنا إلى السلم مع الفئران، لن نتراجع حتى ينسحبوا من البيت إلى الحقل

الذي استباحوه قبل أن نأتي إلى الدنيا... وعندما ننتهي من مرحلة الفئران سوف نتفرغ للجرذان... وعندما يستيقظ ولدي صديقك حسن غداً.. سأدخل معه في مشادة عندما أدعي أني اصطدت عدداً أكثر من العدد الذي اصطاده، وأتراجع في النهاية متوعداً بأني سوف أتفوق عليه وأتجاوز كل أمجاده، وإن اقتضى الأمر صادرتها.. حسن مثلي يا حجوب.. لو خلفت ولداً لكان مثلك ولبى حاجة أحفادنا إلى محجوب آخر وضروري.. طبع حسن كطبعي.. يحب بكثرة وعندما يخيب أمله يُفجع ويختنق ويخنقني ولا محجوب له..

أم حسن.. وحسن وزيد وريا وبادية ومصطفى يذكرونك بخير.. ويسلمون عليك.. ريا لها بنتان ديمة وعدن وبادية لها نوار وعاصم وعزة وزيد عندما رأى - كما حدثتك - مسيرة المتدربين على القتال في معسكر فتح قرب قريتنا... نزع ثيابه كلها وقرر أن يذهب إلى المعسكر ليتدرب.. الآن اختلف معه في كثير من الأمور ويصالحني عندما أواعده في فلسطين. ومصطفى عمره أربعة وثلاثون سنة وطوله ١٩٧ سنتم.. وقد قرر يوماً أن يصطاد العصافير بالدبق.. فلم يفلح.. فدهن ذراعيه وساقيه بالدبق وصعد إلى سطح المنزل وانتظر أن تحط العصافير على بدنه.. ولم تحط.. فحط هو على أرض الحمام للعلاج. ثم ذهب إلى جنين وتزوج من بنان التي تحب الميرامية من حقول برقين.

أم حسن ما زالت تشكو من آلام في صدرها وقرحة في أمعائها.. ولكنها توزع حبها وحكمتها وتعلم النساء الصبر

وتضحك ملء قلبها وروحها... وتحزن وتبكي ملء عيني وروحي..

وأنا إذا لم يأتني الوجع أفتقده وأبتأس.. يا محجوب ضع أذنك على صدري واعتن بقلبك وافرح.. لتتيح لهذا القلب أن يعمل لمدة أطول.. قلبك ليس لك.. إنه مشاعنا الذي لا ينقسم.. ولا شرط لنا عليه إلا نبضه، نحن لا نشترط على مصر أو فلسطين.. هما شرطنا.

أكاد أن لا أمل الكتابة إليك... أخبرك أني قرأت الأناجيل بعد ثلاثة ختمات للقرآن في الأسبوع الأول من شهر رمضان.. بحثت عن المشترك فوجدته.. وأعلنت الإيمان الكبير والتوحيد الإبراهيمي جامعاً.. وتذكرت أني طالبتك بالجزية بعد غداء من البيض المسلوق، أمام لوح خدام اللطافة ومحمد البطل يداري نعاسه بلطف اعتدنا عليه.. وقلت لي بأنك قد أسلمت.. فألزمتك بالختان.. وطلبت مني أن أسكت حتى لا تفاجئني بواقع إذا كشفت عنه أخجلني.. وضحكنا كديكين روميين ونمتَ أنت على البطانية متوسداً سترتك وذهبت أنا إلى أهلي راضياً راوياً... إن حواراتي الدائمة مع الرهبان والراهبات تثمر حباً يومياً ومعرفة وتعارفاً نوعياً... هذا يسرك قطعاً.. يسرك أن أتحرر بالآخر أو من أجله وأغريه بالحرية والالتباس بي من دون مغادرة أو تنصل من محدداته ومعيناته... ولا أنا.. ولكني وإياه نكتسب خاصية نوعية عندما نتعارف ونتآلف إلى حد الالتباس... التباس كل منا بالآخر. من دون تلبس أو تلبيس.. أقول لك بملء فمي:

أن الزرع الذي سقيته يوماً بعصارة عقلك وروحك وتجربتك.. ما زال على وعده بالثمر السائغ فافرح... وإليك هذا الخبر.. نوار، حفيدتي، بنت بادية، ولدت ليلة الانتفاضة... قالت لي علمني أغنية (زغيرة) قلت لها: قولي: أنا، اسمي حمار... قصيدتك الشهيرة.. عبست في وجهي، سدت فمي بيدها. قالت: بس.. عيب... وشكتني إلى أمها قالت: جدو بلا أدب.

ومرة أخرى حاولت أن أعلمها ما كتبه توفيق الحكيم في مقدمة مسرحيته (يا طالع الشجرة).. فقلت لها قولي معي: يا طالع الشجرة.. قالتها.. فأكملت: هاتْ لي معك بقرة.. قالت.. أنت فعلاً مثل ما قلت لي عن اسمك.. البقرة ما بتطلع على الشجرة يا جدو... العصفور بيطلع على الشجرة.. ليش ما بتفهم؟ أرأيت كيف نذكرك؟ ما زال أولادي الذين أصبح لهم أولاد يذكرون كيف أكلت معنا المجدرة الحمرا في قريتنا جبشيت.. وأنت ترتدي قميصك الزيتي وبنطالك الأسود.. ووجهك الأسمر وظرفك الذي لا ينفد... وما زالوا يرددون الأغاني التي علمتهم إياها كما علمتها.. ويأخذون بيد أولادهم ويعلمونهم لعبة بالأصابع علمتها لهم وأدهشتهم.. ومن استطاع أن يستحوذ على قلوب الأطفال لا بد أن فيه طفلاً مثلهم.. دير بالك على هذا الطفل... قل لمنى أن تعتني به لأنه سلواها وسلوانا.. أعلم أنها لا تحتاج إلى توصية لأنها تحب الأطفال الذين يشبهونك ولذلك اختارتك فاخترناها سيدة لجمالك وعروساً للنيل من لبنان... ما زالت أم حسن

عندما يتأزم وضعها الصحي وأعدها بأن آتي بطبيب صديق ليعاينها تصرخ مذكرة إياي بمعايناتك لها حيث يختلط الحب بالطب والسياسة بالعلم والدين بالدنيا وتقول: يمكن هذا محجوب آخر دعني من الأطباء أصدقائك الذين صارت علاقتهم بالطب تشبه علاقتك بالفقه.

أقبلك ريثما أراك... يا محجوب أثار حسن.. ابني صديقك غيرتي وحسدي له عندما كتب عنك قبل أكثر من عشر سنوات وسبقني.

جعفر شرف الدين(*)

الجبة والعمة والعباءة هي المحددات الشكلية لرجل الدين الشيعي... أما المضمون فلكل مضمونه، أي فرادته. ومن فرادات السيد جعفر أن عمته كانت في قلبه وكانت بيضاء بحكم المشاكلة مع القلب... من هنا كانت متعبة له ولأصدقائه وخصومه عفويته وصراحته في زمن الباطنية التي سرعان ما تنكشف عن مخزون من الكيد والضغينة. بناء على ذلك يدخل السيد جعفر في صنف رجال الدين الشيعة، وقد أعفانا شاعرنا العربي المحب من الالتباس أو أدخلنا فيه إذ قال:

"أرى الإزار على لبنى فأحسده أن الإزار على ما ضمّ محسودُ"

أما دراسته فإن شهراً من تلمذة على الإمام شرف الدين في معيار التحصيل العلمي يعادل دهراً. والعام الواحد عيشاً

(*) نائب صور ١٩٦٠ - ١٩٧٢ نجل الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين وهذه مساهمة في مناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيله - تموز ٢٠٠٢.

في كنفه، بين مجلسه ومنبره ومحرابه ودفاتره، يعادل عمراً. إلى ذلك فسنواته في الكلية الشرعية تلميذاً مؤسَّساً على المساءلة والنقد، ملحاحاً، تكفي لأن تراكم مخزوناً إضافياً إلى مخزونه النوعي، فإذا ما استكملت في اليسوعية انخرط الكم في الكيف. والعصاميون في بلادنا ممن تتلمذوا على الجرائد التي يبيعونها، كثر... فالعقاد لم يتجاوز التعليم الأساسي ومحمود درويش وطلال سلمان لم يبلغا التعليم الثانوي، وزكريا تامر وحنا مينه لم يبلغا نهاية الدراسة الابتدائية... والمظنون أن محمد علي باشا مؤسس النهضة المصرية في العلم والعمران والإدارة والانتاج، كان أمياً. أما الذين ارتادوا الحوزات الدينية العلمية من علمائنا ومن يشبهونهم، فمنهم من قضى عمراً لم يعمره، ومنهم من قضى عمراً عامراً، ومنهم من قضى سنوات معدودة وأدركه شعور بالامتلاء فعاد إلى أهله مكتفياً منقطعاً عن أي تحصيل يحاول أن يدخل دنيا العلم والدين في بيضة حمام أو عصفور. ومنهم من كان جادا، ولكن مصاعب الحياة ألجأته على العودة وعلى مضض... فحول بيته الصغير إلى حوزة... سمعت من الشيخ محمد جواد مغنية أنه اجتهد في لبنان مع ثلة ممن تبادل العلم معهم، السيد هاشم معروف والشيخ عبدالله نعمة. على هذا الأساس أسلك السيد جعفر شرف الدين في سلك العلماء، ولا أتجاهل سؤالاً عن تخصصه ولكني اتساءل عن عدد المختصين في علمائنا من جيله عامة ومن جيلنا خاصة ومن الجيل التالي لنا بصورة أخص؟ وقد تعلمنا

في الحوزات أن نفرق من دون أن نهوّن، بين الفقيه والمتفقه، بين الفقيه والخطيب والأديب. دعونا نخرج من الجدل ونسلم بأن السيد جعفر لم يكن من العلماء قياساً على السيد الإمام والده، أما على غيره فبلى... وحتى هذه المشاكسة لا مانع من تجاوزها إلى القول بأن السيد جعفر كان مثقفاً إسلامياً عربياً شيعياً لبنانياً موسوعياً. بدءاً من حساسيته اللغوية المركزة والمتوهجة قراءة وكتابة، ومروراً بذاكرته الأدبية، وانتهاء إلى تثميره لهذه الثقافة في موسوعة قرآنية، وضعته في مصاف أهل الاختصاص وضمته إلى رعيل العلماء من جيله الذي كان عدد المشايخ فيه لا يتجاوز العشرات ولكنهم انتجوا كثيراً من المؤلفات السمينة والقليل من الغث، في حين أن أعدادنا الآن بالآلاف ولم ننتج إلا الكثير من الغث والنزر اليسير من السمين، مع أن النعمة أوفر والتحديات أكبر. إذاً فالعبرة في المضمون لا في الشكل وإن كانت: "ملأى السنابل تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخُ" كنت في أول عهدي بالشكل، وما زلت أشعر أني في أول عهدي بالمضمون، ويعتريني قلق المعرفة كأنه مرض عضال لا علاج له إلا بالحبر. واستقرت جبتي على بدني وعمتي على رأسي بسبب الأحكام في التدوير والتفصيل... أما العباءة أي القشرة، فما زالت قلقة، وحتى لا تسقط عن كتفي أحملها على ساعدي... في أول لقاء لي بالسيد جعفر لاحظ هذا القلق في شكلي... فسألني عما إذا كنت وريثاً لأحد علماء أسرتي، فأكدت له فلاحية منبتي... وراقت له

رائحة التراب المشتاق إلى الحُبّ والحَبّ والخِصب. فاحت من كلامي وصمتي... وكان يؤثر في ألقاب علي (ع) أبا تراب. وأوسع لي مكاناً في عينيه، لم ابارحه واوسعت له في صدري حيزاً مقصوراً على الأساتذة الأصدقاء أو الأصدقاء الأساتذة. الذين كيفما تعاطيت معهم تعلمت منهم... ما التقيته يوماً إلا وتبادلنا المعارف والأسئلة والاختلاف والاتفاق والجدل الجميل والنكتة عند كل مفارقة في الأدب أو السياسة أو الاجتماع، وكان يضحك حتى آخر موجة على شاطئ صور تعانق موجة على شاطئ حيفا. أما أنا فكنت أضحك بمقدار متسمراً عند مفارقة أن رفيقي في عمر أبي ومع ذلك يبدو وكأنه تربي.. بعد إنجاز موسوعته القرآنية ثم وفاته انتبهت أنه يكبرني بربع قرن... وأنه بقي إلى آخر ساعة يستفزه الشعر الجميل اكثر مما يستفزه المرض، أما الغزل فيقوم له من مكانه وكأن العافية قد فاجأته من عُقار نادر، أو كأن الغواني قدمن عليه أفواجاً رافلة بعطرها... ويوم كتبتُ عن غزل العلماء وخمر الأتقياء، هاتفني قائلاً: شكر الله سعيك، لأنك تلامس في عملك مستوى راقياً ومهملاً في مكونات علماء جبل عامل الكبار... وقد كان همي أو همه أن أقول بأن العلم والتقوى لا يحلان في الخشب وأن الذوق الرفيع شرط للعلم والعلم شرطه... دلوني الآن على شواهد هذا الذوق الذي هو من خصائص النجف وإذا لم تدلوني فإنكم ترتابون في كون الذي نراه علماً! أيها الأحبة: إن اللغة العربية هي الاحتياطي الذهبي لعلمنا وثقافتنا وهويتنا وعلاقتنا.

والسنة ومنهج البلاغة والقرآن الذي يأبى ونأبى أن يتحول إلى نص سياسي حَرْفي وحِرَفي فانتبهوا. وقدروا لهذا البيت البستان من النخل والفسائل (بيت شرف الدين)، ولرصفائه من بيوت العلم والأدب في جبل عامل تماهيها مع اللغة كأنها مادة حياتها في الدنيا وفي الآخرة... ولا تنسوا أن المدرسة الجعفرية كانت في الزمن الصعب مصنعاً للأدباء والشعراء. قرأت كمّاً كبيراً من محاضر جلسات مجلس النواب اللبناني منذ التأسيس في عهد الانتداب إلى دورة عام ١٩٧٢. واكتشفت أن الأزلام شوهوا في ذهننا صورة خصوم متبوعيهم. قرأت نصوصاً جميلة للأجيال القديمة، غير أن جعفر شرف الدين وعلي بدر الدين كانا الأشد تميزاً في جمال التعبير في نواب الجنوب، حيث يتحول الأدب إلى مصدر حيوية في النص السياسي... وكلنا نذكر لعلي بدر الدين المعادلة التي صاغها والتي لا يمكن أن يصوغها إلا أديب حساس (كرامة بلا نيابة خير من نيابة بلا كرامة). من ثقافة السيد جعفر ومن قلقه الفني والأدبي جاء ما يمكن اعتباره قلقاً سياسياً... لأن المثقف الحقيقي أقرب إلى أن يكون فرداً خاصاً أو أقل عمومية من السياسي المحترف، فردانيته أو فرادته أو خصوصيته، تأتي من قلقه المعرفي (كأن الريح تحته) ولذا فهو ينزع إلى عدم الإقامة على اليقين السياسي ولا يغريه اليقين إلا بالمزيد من الشك من أجل مزيد من اليقين، حتى يظن السطحيون أنه كل يوم في حال بينما هو في حاله وعلى حاله التي لا تستقر على حال، إلا إذا

كانت الحال مفتوحة على الاحتمال لتصبح أحوالاً في حال... وعلى الطريق بين قول وقول وموقف وموقف، يجري وراء الأسئلة ويغري الأنصار والأصدقاء والخصوم بالأسئلة والحوار، ويتماهى مع المتغيرات على مقدار من الثبات على المبادئ العامة، محمولة من موروث أسري وأبوي ملتبس بالتجربة ومضمون بالإيمان والفقاهة. من هنا لم يكن السيد جعفر شرف الدين بعثياً أو قومياً عربياً متطرفاً لكي يتخشب، لم يكن عروبياً مفرطاً لكي يتعنصر، ولم يكن شيعياً مفرطاً لكي ينعزل، ولم يكن مسلماً متطرفاً لكي يُفرّط، ولم يكن لبنانياً مفرطاً لكي يكون وثنياً، ولم يكن جنوبياً حصرياً أو صورياً حصرياً أو فئوياً بما فيه الكفاية ليعادي من يختلف معه في السياسة حتى لو عاداه ذلك المختلف... إذاً، لم يكن هناك مطلق في حياته وسلوكه سوى الله... كأنه كان في السياسة يريد أن يقول إنه ابن الجميع.. أي ليس أبناً لأحد، من دون تنكر لأحد.. كان يحب من يتفق معه وإن لم يرق له فعله. كان يكره الخطيئة دون الخاطئ، جاهزاً للتسامح والتفهم والعفو والاعتذار. ورغم انتمائه إلى الطبقة السياسية، في الحكم وخارجه، لم يستطع أو لم نستطع إلا أن نرى فيه المثقف الشعبي الطليعي الذي يتعلم ممن يعلمهم...كان طُلَعَةً موصولاً برهطه، غير منقطع على طريقة النخبة، أو من يظنون أنهم نخبة، حتى يبلغوا السبة تحت القبة أو خارج القبة. على أن انضمام السيد جعفر نجل السيد عبد الحسين شرف الدين إلى الطبقة السياسية في الدولة الوطنية اللبنانية،

أي في دولة الكيان اللبناني، أمر يدعو إلى التأمل والاعتبار، فهذا البيت كان ركناً بركنه من أركان المعارضة للانتداب ودولته ومعارضة الكيان أصلاً، وحمل الإمام شرف الدين رسالة إلى فيصل في دمشق مع رفاقه الأكرمين، متمسكاً بسوريا في حدودها الطبيعية رافضاً الدويلة الشيعية في جبل عامل، على مقتضى الانتماء العربي والعقيدة التوحيدية الوحدوية. ثم يدخل السيد محمد جواد (مفتي صور ووالد الوزير السابق جعفر) في المعركة الانتخابية لمجلس نواب الكيان تحت عباءة الإمام وفي ظل عمامته... ولم يفز... وتلاه أخوه السيد صدر الدين ثم استأنف السيد جعفر المسير على المسار نفسه... فما عدا مما بدا؟ إنه الوعي الوطني المسؤول الموصول بالإيمان المستند إلى شرع مقاصدي معياري اجتهادي متحرك يأخذ الأحوال والأزمان ومتحولاتها المعرفية، في جملة أو أساس قراءته النسبية المنهجية للنصوص وتشخيصه للموضوعات واستنباطه للأحكام أو تعيينه للوظائف العملية للفرد والجماعة... لقد ترسخ الكيان اللبناني الذي اصطنع، اذن فهناك تبدل لحق بالموضوع السياسي الوطني، فلا بد أن يتبدل الحكم تبعاً له، أي من المقاطعة إلى المشاركة، من دون أن يعني ذلك تنصلاً أو تبروءاً من الهم القومي والالتزام العربي. ما أريد قوله باختصار هو أن هذا السلوك يؤصل لنا وطنيتنا اللبنانية التي لا سبيل إلى حفظها إلا بالوفاق والوحدة الوطنية، التي عندما تتحقق تكون قهراً وضمناً أحد أهم مؤهلاتنا للإسهام في

تحقيق الأماني العربية وفي طليعتها تحرير فلسطين. وإذا لم تكن الدولة مقتنعة حتى الآن بدورها إلا كلاماً سجالياً، ولم تتعمق في قراءة خلفيات الطائف الميثاقية، أي الأعمق والأبعد من الدستورية، لتكف عن دورها في تقسيم اللبنانيين، فإن مجتمعنا الأهلي، الذي اندمج فيه السيد جعفر، مع نواة مجتمعنا المدني المنشود والمحاصر بالمصادرة، مكلفة وقادرة على أن تنجز وحدتها لتلزم الدولة بها وتضبط صراعاتها، من دون وقوع في المحذور الذي وقعنا فيه فأوقعنا في الحرب، أي استقواء المجتمع على الدولة في مقابل استقواء أو انفصال الدولة عن المجتمع. إن دخول السيد جعفر بعد السيد صدر الدين في المعترك النيابي، هو دلالة على أن فكرة الدولة الوطنية قائمة في الوعي الشيعي وأن استقطاب الشيعة هو الاندماج في وطنهم وجماعاته المكونة. لأن التمايز الشيعي وكل تمايز طائفي أو مذهبي إنما هو مقدمة للتلاشي والغياب. إن الذين أنجزوا التحرير أو تميزوا في عملية إنجازه، أنجزوا أهم أسباب الوحدة الوطنية، ولم يبقَ إلا أن يتشبثوا بها حفظاً لمداد العلماء ولدماء الشهداء، وإسهاماً في معركة المصير في فلسطين التي يجترح معجزتها الآن شعب فلسطين جميلاً وحيداً ممتنّاً للبنان امثولته. مرّ الإمام شرف الدين بقرى الجليل في طريقه إلى منفاه الجميل في قاهرة المعز وجمال عبد الناصر واحتفى به فلاحو الجليل وعندما هجروا كان لهم ملجأ وذماراً. من هنا ورث أنجاله وأحفاده وتلامذته في صور

والجنوب هذا الانحياز لفلسطين وشعبها... ما رأيت السيد جعفر فرحاً إلا عندما كانت تلوح بارقة أمل بالتحرير وما رأيته كئيباً إلا عندما كانت تتعثر مسيرة التحرير... نسأل الله في ذكراه أن تكون الوحدة الوطنية الفلسطينية راسخة رسوخ فلسطين في وجدانه ووعيه وشوقه إلى القدس والحرية.

شكيب أرسلان

(١)

إشكالية تتعدى صاحبها(*)

في أواخر أيامه روى لنا المرحوم عجاج نويهض أنه شاهد الأمير شكيب أرسلان في رأس المتن، بين أهله وجماعته الأصلية بالمعنى الطائفي اللبناني(١) وبصرف النظر عن المتغير الفكري، الذي يتغير به من ينشد التغيير، وكان الأمير وقتها يستحث القوم على التطوع والزحف من أجل مناصرة ليبيا تحت وطأة الهجوم الايطالي عليها.. وبكى

(*) تعقيباً على ندوة عن نتاج وعطاء الأمير عُقدت بدعوة من المعهد العالي للدراسات الإسلامية (المقاصد) أواخر تموز ٢٠٠٢، وكانت ورقة الكاتب فيها حول علاقة الأمير بالقضية الفلسطينية.

(١) من ذروته الإسلامية والعربية يتكلم الأمير عن جماعته منهم يقول "فأبناء معروف لا يخرجون عن الجامعة العربية ولا عن الجامعة الإسلامية ولن يقدر أحد أن يخل بهذه القاعدة". والتزاماً بالجوامع التي لا تمنع التعدد يقول: "وأهم قرار يجب أن يتخذوه (العرب) بعد إقرار الاستقلال التام هو قرار المساواة التامة بين الأهالي من جميع الطوائف والمذاهب، وأن البلاد هي لأهلها وحدهم، ومن كل فريق منهم".

الأمير، بكى خوفاً ورجاءً، ولو كان قد استقبل ما استقبلنا، لبكى خوفاً وخوفاً. إذاً، فالأمير لم يتنصل من جماعته وأصر على أن يكونوا عونه ورهطه في الملمات العظمى، التي تطال الجميع وإن لم يستشعر مخاطرها الجميع.. فلماذا هذا الحضور الممعن في الضمور، في ذاكرة الجماعة ووعيها للأمير شكيب؟ هل النقلة أو العودة إلى المشترك والجذور من دون تنصل أو تنكر هي التي أدت إلى العناية المترددة والمتقطعة به؟ وبالأمس القريب سمعنا سبطه الأستاذ وليد جنبلاط، يجهر بعروبته ويرفعها إلى مستوى العقيدة ويطل بها على آفاقها ومكوناتها في الثقافة والحضارة الإسلامية، غير متنصل من درزيته، التي لم يتنصل منها مرة، ولكن يعتبرها إحدى الطرق المعرفية إلى عروبة وإسلامية تغتني بمتعدداتها وتزداد حيوية وإبداعاً (مقابلة في المنار). ولا يؤثر ذلك في موقع وليد جنبلاط في جماعته وزعامته.. بينما، وهنا تكمن المفارقة، يعاني كمال جنبلاط من اطراد عكسي بين حضوره حياً وحضوره ميتاً، أعني جسداً، المفارقة أن كمال جنبلاط، شأن شكيب أرسلان في حياته، لم يكن ينقصه أو يعوزه تأكيد حضوره، لأنه كان ساطعاً وكان شاغل الناس والدنيا، ولعله برحيله، رحل الزعيم، وبقي المفكر، وما كان حاضراً منه هو الزعامة التي تحولها الذاكرة المحكومة بالذواء المتدرج إلى ذكرى... بينما المفكر فيه، وفي شكيب، هو مشروع عبرة، أي معرفة متجددة، أي مجددة بفعل فاعل.. لا بد أن يفعل.

في ذكرى كمال جنبلاط لهذه السنة، حفلت من دون غرور، بالمستوى الفكري من شخصيته ومسلكه وتراثه، من دون أن أتجاهل المستوى السياسي، وقال فيه آخرون، قريبون وبعيدون، كلاماً يمكن أن يُقال في أي سياسي آخر ومن دون أي خصوصية، ومن هنا لم أفاجأ بأن إعلامنا لم يتوقف عند كلامي، كأني لم أقل شيئاً، وكأن الآخرين قالوا كل شيء... وهنا يأخذني كمال جنبلاط إلى الشيخ عبد الله العلايلي.. الذي، على مدى سنوات من رحيله، أشبعناه موتاً، كأنه لم يمت، أي كأنه لم يكن حيّاً داعية حياة فينا، أحيا الأسئلة والنقد تدعيماً للإيمان وترسيخاً للإسلام.. لعل السؤال ولعل النقد، لعل الاجتهاد اقتراف في نادينا! وأكثر من هذا مضضاً، أن الواحد منا عندما يكبر، أي يستوعب جماعته ويتجاوزها، من دون أن يهجرها، تنفيه جماعته، لا إلى جماعة اخرى، فإذا عطفت عليه جماعة أخرى، لسبب بريء أو مدخول، فإنها لعنة اللعنات(٢).. وإن كانت طوائفنا لم تعودنا على احتضان من يستوعب ويتجاوز في اتجاه المشتركات العظمى، فإنها أحياناً تميل إلى النكاية بالعطف المشبوب والمشبوه أحيانا، على نماذج معينة من أهل القول إذا ما قالوا في طوائفهم ما لا يروق لأهل السلطة فيها... ولا أعمم هنا، فهناك شواهد كثيرة على أن هذا المسلك ليس

---

(٢) لشكيب أرسلان حكاية مع الوظيفة وحكاية مع من كانوا يدعمونه مالياً وقطعوا عندما طلبوا منه ما لا يرضاه الله منه ولا يرضاه هو لنفسه. ومعروف ما آل إليه العلايلي بعد انتخابه مفتياً للجمهورية.

القاعدة الحاكمة، ونمط من العلائق التي جمعت العلايلي إلى علي شلق والأب طانيوس المنعم وجورج جرداق وميشال سليمان وميشال عاصي. يعيد إلينا النمط الودود والعميق والجريء والعابر للعقائد والمذاهب، الذي جمع بين أبدال شوامخ في تاريخنا.. ومن الأمثلة الساطعة على ذلك، علاقة المسلم الشيعي الفقيه الشاعر نقيب الهاشميين في بغداد في العصر البويهي، الشريف الرضي، مع الصابئي الذي رفض الوزارة عندما اشترطوا عليه الإسلام من أجلها، أبي اسحاق الصابي الذي رثاه الشريف بقصيدة ما زالت تقطر حزناً على طولها.. واستهلها بالقول:

أرأيت من حملوا على الأعواد

أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟

وقيل، ولعله افتئات على أخيه الأعلم منه، وهو أشعر من أخيه، الشريف المرتضى، بأن أخاه (المرتضى) أجابه بالقول: والله ما حملوا إلا كلباً.. فخاصمه عليها طويلاً.. وإن كان دارسو المرتضى ينفون هذه التهمة المغايرة لعلمه وأخلاقه ومرونته مع المختلف، حتى اتهم بالاعتزال، فإن الرواية توكيد لعمق علاقة الرضى بأبي إسحاق، وهذا من الشواهد على أن الوضع في الأخبار قد لا يخلو من جمال لأنه يحكي أحياناً عن قيم أثيرة ومرعية في تراثنا. وقبل أكثر من سنة بقليل دعيت إلى المشاركة في تكريم شامخ من شوامخ الجبل من بني معروف (فندي الشعار) بعدما شاركت قبل سنوات في تكريم دن من دنان العربية والعروبة في

الجبل (الشيخ نديم ناصر الدين) فاستحسنت أن أبحث عن سلف لي في هذا النهج التواصلي.. فعثرت على خطاب الإمام السيد موسى الصدر في تكريم عارف النكدي بعيد وفاته.. وقرأت كلاماً لا مجاملة فيه، صادراً من القلب ومن العقل معاً.

إذاً، ليست قاعدة.. أو هي قاعدة في التعاطي مع الذين يكبرون، في السياسة وفي الفكر، فوق ما يطيق كلامنا الوطني ومدعانا اللاطائفي!!!... ولا أكتم القارئ الكريم أني أعاني وأخاف من نظرات وكلمات تحمل تشجيعاً لي على طريقتي في التعاطي مع الآخرين، ومع المبدعين من الآخرين، أي اللبنانيين الآخرين، ولكن في عمق تلك النظرات وفي تلافيف الكلام إخطارات وإنذارات بعقوبة شديدة، أخذت علاماتها تظهر تباعاً...

بعد وفاته بأسابيع، دعينا إلى لقاء وطني على معيارية علمية وأدبية، من أجل تشكيل لجنة لإحياء تراث العلايلي... وكان لقاء يتيماً.. برغم أنه كان بمبادرة من طرف تجمعه بالعلايلي جامعة مذهبية أيضاً..

رغم ذلك، أو لذلك، أرى أن نجدد اللقاء من دون مبادرة من قبل أحد إلا قراء العلايلي وعارفي فضله، لعلنا نكمل المشوار حتى نصل إلى شكيب أرسلان وأمثاله، وهم قليل، مروراً بأحمد عارف الزين وأحمد رضا.. شكيب أرسلان قرأت عنه كتابين لمؤلفين مصري وعراقي، وهذا

فخر له ولهما، وأعرف مكانته في وعي وذاكرة المغاربة عموماً، وهذا فخر لهم وله، فأين فخرنا اللبناني؟ من هنا، ربما يحق لي أن أستبشر خيراً بمبادرة المعهد العالي للدراسات الإسلامية (المقاصد) إلى مؤتمر حول شكيب أرسلان، كلنا بحاجة إلى الأمير الأمير، الغني الفقير، لكن أجيال بني معروف أحوج منا إليه.. لأنه لم يكن، شأن العلايلي، زعيماً لطائفته، من دون أن يجافيها أو يتهاون في أمرها، لا يجد من يبحث عنه فينا، أو يبحث عنا فيه، إلا بشكل متقطع، أو موسمي، من دون أن يكون اهتمامنا به أو استعادتنا له، مجالاً لمراكمة معرفة به وباللحظة المكثفة التي جهد أن يستوعبها علماً ومعرفة وتوحيداً ووحدة ومرونة ومبدئية وحركة متعددة الآفاق، من دون كلل أو ملل لينتهي على ظهر الباخرة عائداً من المنافي، مستشرفاً غدنا العربي والإسلامي والوطني، مكثفاً في فلسطين.. للمرة المئة أو الألف نؤكد أن حاضرنا في الرجال فقير ومدقع، ومستقبلنا يكاد يخلو من الوعود... اذن فمثالنا خلفنا. كيف نستعيده لا لنجمده ونتجمد فيه وعليه، بل لنجدده ونتجدد به ومن خلاله. هذا هو السؤال الذي يفتح عليه استحضارنا لشكيب أرسلان.. الذي نجده موزعاً على كل الهموم العربية وفي الأساس من هذه الهموم فلسطين...

(٢)

الأمير وأميرته فلسطين

الوحدة شرط التحرير، أم التحرير شرط الوحدة؟ وعلى الطريق بينهما، كل خطوة هنا لها معادلها هناك، والقول بالتأثير المتبادل بين قضايا متفرعة من أصل، ينسجم نظرياً مع المنهج التوحيدي، والمشكلة ليست هنا، بل في التاريخ، وفي حركتنا إلى تحقيق الوقائع، بصرف النظر عن النيات، أو المستوى النظري الذي يحكم، أو لا يحكم، حراكنا وحركتنا... باعتبار أن التاريخ وقائع أولاً... وربما أخيراً... من هنا قد لا نكون في التاريخ الآن، لولا هذا الفعل الفلسطيني الإشكالي، الذي نكاد بانسحابنا من التاريخ، أن ندفعه إلى خارج التاريخ. افتتح بهذا الكلام لأني وجدت في شكيب أرسلان مثالاً توحيدياً، يتأبى أن يخضع عقله وعمله وسياسته لثنائية حادة، معطلة ومرسخة للانقسام والتقابل الحاد، من هنا جاء دوره الوازن في المؤتمر السوري الفلسطيني عام ١٩٢١ عندما وُفّق إلى التوفيق بين استقطابين، استقطاب وحدوي سوري، متأتٍ من وجع سوريا من التجزئة، وإعلاء الوحدة إلى مقام الرافعة للمستقبل، بما فيه فلسطين، واستقطاب وطني فلسطيني ملتبس بالقطرية، متأتٍ من وجع فلسطين بسبب الاغتصاب المفتوح على نهايات قصوى من خلال الاستيطان. وبسبب أن اغتصاب فلسطين وتبديدها هو رفع للتجزئة إلى مستوى الاقتطاع والفصل النهائي، الذي

تصبح معه الوحدة بما تعني من عودة فلسطين إلى رعيلها، أمراً لاحقاً وأشد تعقيداً من حال الأقطار الأخرى، ما جعل الفلسطينيين، من وقتها وحتى الآن مشغولين بتركيب أطراف المعادلة بين الوحدة والتحرير، مسلمين بأن الوحدة هي العربة وأن التحرير هو الحصان. يقول الأمير: "إن قضية فلسطين ستكون باب الاتحاد الذي يجمع تحت لوائه سبعين مليونا من العرب" وأكد "أن فلسطين تجمع وتفرق، وأن العرب لا ينالون الحرية إلا بانقاذ فلسطين". وإن بقاء فلسطين قطراً عربياً أو تحويلها يهودية وطرد العرب منها "منوط بالعرب الفلسطينيين أنفسهم قبل سائر العرب". اذاً، فالمؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف بدل "المؤتمر السوري" وكأنه ايذان بتثبيت الخصوصية الفلسطينية على اللوحة العربية، ما كان من المنطقي أن تنبني عليه خصوصية في الوعي الوطني الفلسطيني، مؤداها أن التجزئة وإن لم تكن مسلمة أو نهائية، فإنها رتبت على أهل أقطارها وظائف متمايزة، وإن كان يمكن أن تتكامل في المحصلة، ففلسطين هي شأن الفلسطيني أولاً، وهذا ليس إقالة لسائر الأقطار أو استقالة من أعباء التحرير، بل كان ولا يزال ممكناً القول بأن أي خطوة على طريق النهوض والتحرر والوحدة الداخلية في أي بلد عربي، وعلى الأخص بلدان الطوق حول فلسطين، من شأنها أن تثمر خطوة أو خطوات على طريق التحرير، ولعل هذا هو ما أغرى جمال عبد الناصر بمحاولة النهوض بمصر وبسرعة وتسرّع، ما تنبهت اليه الصهيونية فعجلت

بحرب حزيران، وفي المقابل فإن أي إنجاز فلسطيني لا يمكن أن يكون فلسطينياً محضاً، لا في معداته ولا في نتائجه، أي أن الإنجاز الفلسطيني، لا بد أن يكون على مستوى من الشراكة العربية، فهو اذن يؤشر إلى حال الوحدة أو التضامن، ويصب في مسار الوحدة والتضامن والنهوض والتحرر العربي، في كل بلد عربي بمقدار مساهمته ومقدار استعداده لتلقي النتائج... يؤكد الأمير أنه إذا انتصر الشعب الفلسطيني "فان العرب هم المنتصرون في النهاية... وأن فلسطين الباسلة في كفاحها، ضربت المثل الأعلى للبلاد في البطولة والرجولة، وأن العرب لا ينالون الحرية إلا بانقاذ فلسطين، وطريقة إنجادها لا تكون إلا بعمل حازم من الدول العربية". لعل هذا الأمر هو الذي دفع الحركة الوطنية الفلسطينية الناشئة على موجبات وطنية لا تقع بالضرورة على الضد من المسار القومي، ومنذ سبعينات القرن الماضي، تظهيراً لما كان قبلها، إلى نهاية إشكالية، فأصبح شعار القرار الوطني الفلسطيني المستقل، مطروحاً بحدة، منطوياً على إيجاب وسلب، وهناك من يستطيع، إذا ما استعرض لوحة العلاقات العربية الفلسطينية، بعد النكسة ومع المقاومة، أن يقدر أن الفلسطيني ذاتاً وموضوعاً وقراراً، كان تحت خطر المصادرة وطائلتها، أي أن القومي المتمثل في فلسطين دخل في القطري بمفعول قطري لا قومي، وفي مقابل القطرية، هنا وهناك لا بد أن تستيقظ الوطنية الفلسطينية على حالها ووظيفتها، وهي حافلة بذاكرة النكبة، التي لم تشارك فيها

أكثر الأقطار العربية من اقتناع بخطورة المشروع الصهيوني وحق الشعب الفلسطيني، بل لأنها دول متكونة حديثاً، فاقدة لصدقيتها فأرادت أن تثبت أنها دولة تتخذ قرارات كبرى وصعبة بصرف النظر عن الجدوى. بعد تثبيت التميز السوري في هذا المستوى، وبدليل المؤتمر السوري الفلسطيني وبعده مؤتمر بلودان، وبدليل شراكة إحسان الجابري مع أرسلان في حركة دائبة حول سوريا وفلسطين... لا بد أن تقف عند الألم والدهشة التي عقدت لسان أمير البيان الذي لا يعقد ولا ينعقد إلا إذا كان الألم بالغا بليغاً... لم يعقد لسانه ولم ينعقد بل واجه الحاكم العربي المتخاذل الداعي إلى التخاذل بالرفض، فقد بذل الخديوي عباس حلمي جهداً للضغط على الأمير مستغلاً تدهور أوضاعه المالية بعد الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣٠، مهدداً بقطع المعونة المالية الشهرية، التي كان يتلقاها منه، إذا لم يستجب طلبه بشأن نشر الدعوة إلى التصالح بين العرب واليهود وإقناع العرب بالنزوح من فلسطين إلى شرق الأردن، وأن يسعى لإقناع الزعماء الفلسطينيين بأن لا قبل لهم بمقاومة اليهود، فكان رد شكيب بالرفض حاسماً وغاضباً على الخديوي الذي كان ضيفاً عليه في منزله في جنيف وقال مستهجناً: "كيف يؤمل من أمير مسلم أن يسعى إلى إخراج المسلمين من فلسطين؟ ابهذه المبادئ يرجو أفندينا أن يكون له شأن في بلاد الإسلام؟". ولم يلتقيا بعدها أبداً... كما أن هناك من يستطيع أن يرى أن الشأن الفلسطيني مختلف، وأن جدلية القطري والقومي، أو

العربي والإسلامي، في المثال الفلسطيني، ليست مسألة وعي، أي تعيها أو لا تعيها، أو مسألة ضرورات تقدر بظروفها، بل إن موقع فلسطين الذي يتعدى القطر أو الشعب الفلسطيني، ثابت لا يؤثر في ثباته أي سلوك عربي متعارض معه، مما يعني أن القرار الوطني الفلسطيني المستقل قد يؤدي إلى فصال وينتهي إلى ذرائعية قطرية ضارة بهدف التحرير. إذاً، فالجمع بين العنوانين، السوري والفلسطيني، كان تلافياً توحيدياً وحدوياً، لتنصلين محتملين، هما التنصل من الإلزامات العربية، في القرار وفي المسار، على الجانب الفلسطيني، والتنصل من مترتبات الخصوصية الفلسطينية على الجانب العربي، أي احتمال المصادرة. إذاً، فشكيب كموحّد كان ينطلق من رؤية تركيبية ترى المستويات المتعددة في القضايا الجامعة، من هنا كانت درزيته بوابة إلى إسلاميته وكانت إسلاميته أفقاً لدرزيته، ومن هنا كانت عروبته مسؤولية حضارية وإضافية في الإسلام، وكانت وحدويته المبرأة من العنصرية، بشهادة التباسها بالإسلام في خطابه، مشروطة ضمناً بالإسلام، الذي يتسع للعرب وللعروبة والعربي أياً كانت عقيدته، إذا ما كان آتياً إلى انتمائه العربي، بوعي معضود بمعتقد توحيدي وثقافة بينية تجسد الشراكة بين الإسلام والمسيحية في تكوين الذات العربية أو المشرقية، كان أرسلان يعمل لاستقلال العرب ويؤكد أن "اهم قرار يجب أن يتخذوه بعد قرار الاستقلال التام هو قرار المساواة التامة بين الاهالي من جميع الطوائف والمذاهب، وأن البلاد

هي لأهلها وحدهم ومن كل فريق منهم" ، من دون أن يفوته التنويه بحالة الوحدة بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين، ما جعلهم يقفون موقفاً واحداً من التحدي الصهيوني ومخاطر الصهيونية. وجعل الخطر المشترك عليهم حصانة لهم من التنازع. وكان من الطبيعي أن يكون شكيب أرسلان مقتنعاً بأن الإسلام بهذه السعة في معناه الإيماني والحضاري، هو أهم المضامين الثقافية للوحدة العربية، ومقتنعاً بأن الوحدة العربية، البانية أو المبنية على الايجاب، والمتدرجة بلحاظ سيرة الأقطار العربية في النمو غير المتكافئ، لا المتعجلة ولا المبنية على العصبية النافية، آيلة في النهاية إلى إحياء إسلامي توحيدي. ونصوصه في هذا المجال تكاد تكون الأكثر والأعمق والأدل. ولعله من هنا جمع بين عثمانيته وعروبته حتى عرضه ذلك للتهمة، ولم ييأس، فسعى بعد انهيار الدولة العثمانية إلى حفظ التواصل بين الدولة الوطنية العربية المتولدة من الرحم العثماني بفعل التجزئة التي سببها السلوك العثماني أو الاتحادي المستأثر والجزء العربي المتوتر، واستثمرها الأوروبي المبيِّت منذ أصبح مرض الرجل المريض عضالاً. تمسك باللواء جزءاً من سوريا وسعى لمنع ضمه إلى تركيا الكمالية طمعاً بأن يكون ذلك وصلة بينها وبين سوريا والعرب. إلى ما قبل وفاته عام ١٩٤٦ لم تكن فلسطين قد استأثرت تماماً بالهم العربي، كان لها موقعها المميز على خريطة هذا الهم وفي ما بعد أصبحت المحور والقضية المركزية، من دون أن يعني ذلك ثانوية القضايا على المستوى

القومي أو على مستوى كل قطر أو دولة بمفردها. من هنا كانت همسته للمرحوم عبدالله المشنوق، على باخرة العودة إلى الوطن تمهيداً للرحيل إلى كنف الله، قبيل النكبة، أي قبيل أن يتحول العجز إلى كساح "أوصيكم بفلسطين" متحدراً من اقتناع غير مستجد عليه بأنها قضية القضايا. قبل ذلك كان مشغولاً بها وبغيرها، بها من أجلها ومن أجل غيرها، وبغيرها من أجله ومن أجلها، من هنا يمم وجهه شطر ليبيا. وهنا يستوقفني كلام له حول الوضع في ليبيا، عن العدوان الايطالي عليها، وحاجتها الماسة إلى الدعم العربي والإسلامي، مادياً ومعنوياً، ويجعلني أرى في ليبيا في مرآة الأمير، صورة الانتفاضة، حيث تحول العطف العربي والتعاطف الرسمي والشعبي إلى قنبلة دخانية عظيمة، ثم إلى حصار إضافي، إلى الحصار الذي كان المال ولا يزال أحد أهم شروط الصمود في وجهه، من دون إسقاط للشروط الأخرى أو التهوين منها، ما جعله في رسالته إلى السيد رشيد رضا يتحدث وكأنه يتحدث عن حال فلسطين الآن يقول: "ونحن الآن في خطب مستعجل الرأب، لا يفيدنا فيه تعنيف مفرط ولا لوم مقصر ولا جزاء خائف أو مستهتر... انه لم يبق إلا طريق البر - للإغاثة - ومهما كان شاقاً وصعباً طويلاً معطشاً، فإنه هو الوصلة الوحيدة فإن لم تساعد السياسة على إمرار جنود منظمة فلا أقل من متطوعة، وإن لم يمكن نهوض متطوعة، فلا أقل من تسريب ذخائر وأرزاق على ظهور الجمال... فإن في طرابلس وبنغازي والصحراء ومن

قوم السنوسي رجالاً يشاغلون ايطاليا سنين طوالاً، لو جرى مسألة معيشتهم إذ ذاك... أن هناك رجالاً كثيرة وفروسية ونجدة وبغضاء للعدو ولدى الدولة عدة آلاف من الجند وأسلحة وعدة، إنما يُخشى على أولئك من الجوع وقلة الطعام، افلا ينهض الإسلام في كل المسائل إلى إغاثتهم بما يمسك أرماقهم على الأقل! حتى تطول الحرب ويستمر الدفاع، فإن طول أجل الحرب يستدعي تدخل الدول ويفت في عضد تجارة ايطاليا ويثير عليها ناكر سكانها". سبحان الله!... ولم يقل الامير هذا الكلام ليقعد بعده متفرجاً... بل سار على رأس متطوعة إلى ليبيا... وشارك في الجهاد ميدانياً. في تعاطيه مع القضايا التي بذل كل ما يملك في سبيلها، كان يجمع بين بعدين يقومان مقام المكونين في شخصيته، هما المبدئية والذرائعية المضبوطة بغائية عالية منضبطة بالعقيدة والشريعة. من هنا ومن أجل استقلال سوريا وفلسطين، قرر أن لا يقلل من شأن أحد، وكأنه كان يراهن على اختراق في عقل الخصم، ملتفتاً من الأساس، إلى أهمية الشرعية الدولية في عصبة الأمم. كأنه كان يريد مراكمة مؤثرات وتخزين معلومات، وأن يجعل من حراكه وحواراته ومباحثاته وسجالاته عاملاً تعبوياً، يبقي القضايا الأساسية شاغلاً للآخرين، ومصدراً دائماً للتوتر والحيوية والوعي في حياة العرب والمسلمين. أما حركته المتنوعة المتخصصة بفلسطين فشواهدها كثيرة... منها: أنه تصدى للمشروع الصهيوني مبكراً فكتب في جريدة "الشورى" مقالاً فند فيه مزاعم اليهود

وايزمن وتساءل: "إذا كان قد حكم الله على اليهود بالتشتت، أفيكون العرب مسؤولين عن ذلك؟ أيجب أن يعاد شمل هذه الملة على حساب العرب؟ يقول: "كان أولى بالأوروبيين الذين يعطفون على اليهود أن يعيدوا عليهم حقهم الضائع من كيسهم لا "من كيس" غيرهم". يسترعي الانتباه أن الولايات المتحدة الأميركية لا تذكر في سياق الكلام عن فلسطين، وإنما التركيز على أوروبا، هل لأن أميركا كانت بلا دور دولي طوال هذه الفترة؟ أم أن دورها كان ضعيفاً ومتأخراً عن دور أوروبا عموماً؟ وإذا كان كذلك فإنه لا داعي لإهماله، وفي تقديري، وهنا يجب أن نقرأ بتأنٍ، حتى نكتشف مسؤوليتنا عن مآسينا، بدل أن نلقي المسؤولية على ظهور الآخرين، الذين يغريهم تخلفنا عن قضايانا بالسلبية البالغة تجاهنا، لأننا لا نقدم وقاية لمرض ولا نعالجه إذا استحكم... من هنا الفارق الذي نسجله بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، عندما رفعت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ وقبله السوفيات، وعندما أُقر، رفعت الولايات المتحدة مذكرة شاجبة فعارضها السوفيات، وبعد الخامس عشر من أيار كان الاتحاد السوفياتي ثاني الولايات المتحدة في الاعتراف بالكيان الصهيوني، لكن الأميركيين اعترفوا من دون فذلكة نظرية، بينما كانت فذلكة غروميكو السوفياتية أقرب شيء إلى روح الصهيونية وعقلها... اذاً، ما فعلنا؟ من أجلنا ومن أجل فلسطين بهذه البدايات؟ لماذا خسرنا من كان يمكن أن يكون صديقاً وهو الآن أعدى

الأعداء. لم تتأسس إسرائيل على الإرادة الأميركية ولكنها الآن تعيد التأسيس على هذه الإرادة... إذاً أوروبا التي تغير حال أكثرها الآن بآليات وضرورات داخلية، وفي مقابل إرادة الاستحواذ الأميركي، أوروبا والشيوعية التي ركز عليها الأمير شكيب وعلى شدة تعاطفها مع الأماني الصهيونية، انطلاقاً من النظرية القائلة بأن تحقيق الشيوعية سيقضي على كل الفوارق الدينية والعرقية بين العرب واليهود والمسيحيين، ويرى أن "هناك ترابطاً قوياً بين الحركة الشيوعية والحركة الصهيونية لا سيما في عدائهما المشترك للإسلام"... وهاجم الصهيونية عندما تصدى الاشتراكي فندرنالد للدفاع عن المشروع الصهيوني منسجماً مع أمثاله من منديس فرانس إلى غي موليه. وكل ما يذكر بالشراكة بين المؤسسين الصهاينة بأكثريتهم الاشتراكية والاشتراكية الدولية أو الأممية الثانية. والتقط المفارقة... ولا أدري إذا كانت مفارقة حقاً... بين الحركة الصهيونية والنازية اللتين وصل التعاون بينهما إلى حد قول بن غوريون بأن هتلر هو واضع الحجر الأساس لدولة إسرائيل... أرسل الأمير رسالة إلى الحكومة الألمانية يطالبها بالحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين... وفي جولته سبعين يوماً في اوروبا، ركز على ألمانيا وحضها على الالتزام بمنع الهجرة عام ١٩٣٤... وحذر من الهجرة اليهودية وقال: "فلا يجوز لهم - أي العرب - بعد الآن أن يضيعوا الفرص لا سيما أن فلسطين في فم الحوت، والأعداء - يضيف شكيب - محيطون من كل جهة بالأمة العربية يريدون منع

نهضتها"... ماذا كان يصف شكيب للأمة غير الجهاد لكي تنهض؟ إنه يبعثنا على التساؤل عن المستوى العسكري في المواجهة إذا ما استأثر بجهادنا ضد إسرائيل سوف يكون ناجعاً أو فاجعاً، أم أنه لا بد من قاعدة ما يثمر المستوى العسكري ثمراته السائغة إذا ما استند اليها... أي التنمية بالعلم وتنمية العلم، شكيب أرسلان أبدى حماسه لإنشاء الجامعة الإسلامية انسجاماً مع موقفه من ربطه بين قضية العلم وقضية التحرير قائلاً: "إن العلم والذل للأجنبي لا يتساكنان والمعرفة والاستقلال توأمان". بعد الحادي عشر من أيلول. هل لا يزال في نيتنا تفريغ المسيحية للغرب غير المسيحي أم أننا لا بد أن نفرق بين كنيسة وكنيسة مسيحية من دون يأس من أحد، كما أن هناك فرقاً بين فئة مسلمة هنا وفئة هناك، في الموقف من الصهيونية وفلسطين. ولا داعي للإحصاء... شكيب أرسلان أدرك الخطر وقرر أن لا يدع فرصة للوقاية منه. وفي مؤتمر بلودان ١٩٣٧ طلب إرسال نداء إلى رؤساء الطوائف المسيحية في العالم لحضهم على الدفاع عن فلسطين، ويطل الأمير على المشهد الفلسطيني الذي لا تضمنه إلا الوحدة والحوار المفتوح بين مكوناته جميعاً. من دون مبالغة في القلق على وحدة الشعب الفلسطيني الذي عودنا أن يبدع عندما نخاف نحن عليه أو نيأس. حذر الأمير من الانشقاق الفلسطيني تحقيقاً لمراهنة المندوب السامي البريطاني ومراهنة وايزمان في تحقيق الأماني الصهيونية على هذا الانشقاق الذي يمكنه أن ينشأ بين الفلسطينيين. أقترح أن

نرسل رسالة باسم الأمير شكيب أرسلان إلى الشعب الفلسطيني نعزيه ونقويه لنعتز به ونعز ونقوى... بشرط التقوى... أي أن نكون معه لا مظاهرة بل مناصرة... ونلح على هذا الشعب الجميل، أن يشد على وحدته ونذكره بقول هرتزل: "كل شعب ينقسم إلى شعبين يصبح في قبضتنا"... يروي ابن الأثير أنه في فترة احتدام الصراع بين مصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان أتى حكماء الروم إلى ملكهم وحسنوا له الإغارة على العرب اغتناماً للفرصة. فأبى فلم يقتنعوا برأيه وألحوا فأتى بكلبين، أرش بينهما فاعتركا، وأثناء عراكهما أتى بثعلب وأطلقه فتركا عراكهما ولحقا بالثعلب... ففهموا وحسنوا رأيه... اذاً فالواحد عندما يتجزأ يخالف الفطرة التي فطره الله عليها... حذار أيها الفلسطينيون من هذه التجزئة المدمرة!.

ختاماً على طريقة المؤمن الذي لا يزايله الاحتياط في أمر، كان باحثاً عن اليقين والتخفف من أي احتمال مهما يكن ضئيلاً، من هنا لبى طلب موسى العلمي واجتمع إلى ديفيد بن غوريون، أي مع العقل المؤسس للكيان فبلغ يقينه بأن المشروع غير متردد ولا يقيم اعتباراً للعرب والمسلمين فمضى في سبيله مقارعاً بقاطعية لا تقبل مراءً وإغراءً بقدرة اليهود على مساعدة العرب في الحصول على استقلالهم وتقديم القروض لهم وخص بن غوريون العراق بالذكر هنا... وكان رفض الأمير باتاً وخوفه من المستقبل عظيماً... وتحققت مخاوفه سريعاً عام ١٩٣٥ عندما أصبح السؤال:

"هل من الممكن إبقاء عرب فلسطين كرعايا للمملكة اليهودية أم يجب إجلاؤهم"؟. كما جاء في تعقيب أكرم زعيتر على رسالة له من الأمير بعد لقائه مع بن غوريون.

إعتذار وشكوى معرفية
الى أنطون سعاده

سأبدأ مع أنطون سعاده من بيت همومه فأقترح أن نتفق على أننا ما زلنا عند أسئلة عصر النهضة، هذا لا يعني أن نبسطها كلها كما هي، وننكبّ على تدبير الإجابات عليها كما لو كنا في امتحان مدرسي، لنعود بعد الامتحان إلى نسيان ما قرأنا وما كتبنا، إذن فلا بد من إعادة طرح تلك الأسئلة وتفليتها لنحذف ما تجاوزته الأحداث والمعارف منها، ونثبت ما لم تتجاوزه، ونضيف ما طرحته، على أن نتفق أيضاً على أن كثيراً من الأسئلة، وحتى الأطاريح التي أعقبت فترة الإقفال على تلك الأسئلة، بسقوط الدولة العثمانية، والمشهد الذي كان يتشكّل بها وحولها ويثير الأسئلة، هذه الأسئلة المستجدة، كانت موصولة منهجياً بالكثير من أسئلة النهضة، وكثير منها، سواء ما بقي طابعه استبيانياً أو بيانياً، أي ما كان استفهاماً أو كان شروعاً في الإجابة، إنما تأتي في ما تأتي من تحدٍ ذي بعدين، البعد الأول هو تأسيس الدولة الوطنية، في

بلاد الشام أو سوريا خصوصاً (لبنان - سورية - فلسطين - والأردن) وبصرف النظر عن ملابسات هذا التأسيس وغاياته وآلياته، والبعد الآخر هو الحداثة على المثال الغربي، الذي أنتج بذاته تحدياً آخر تمثّل في إمكان استيعابنا لهذه الحداثة وتوطينها، أي عرضها على خصوصياتنا المشرقية عموماً، وإبداع صيغة توائم بين العام والخاص، أو الاقتصار على وعينا لها في شكلها من دون مضمونها وتاريخها وتعقيدات هذا التاريخ منذ عصر الأنوار إلى النهضة الأوروبية المعروفة، أي أننا كنا في خيار بين التقليد والتجديد، والذي حصل حتى الآن، يؤكد قصورنا وتقصيرنا حتى عن التقليد، الذي لم يكن ضاراً في المثال الياباني، فاستبدلنا التحديث بمعناه المادي والمباشر، بالحداثة بمعناها الثقافي والحضاري، الذي يبلغ الأعماق ويتمظهر في تعبيرات مختلفة، وعلى أي حال، فقد كانت الفكرة القومية العربية أو السورية، صيغة مقترحة لتجاوز إشكالية الدولة الوطنية السياسية، والجمع بين العروبة أو السورية وبين مسارات ومؤشرات الحداثة على النسق الغربي.. من هنا جاء أنطون سعاده، ومن هنا كتب "نشوء الأمم" تأسيساً لعلم اجتماع عربي أو سوري، ملتزم بعموميات المؤسس الغربي وجدالاتها، مستشرفاً، بعد قراءة المكونات التاريخية، لمستقبل أكثر وحدة وأوثق تواصلاً مع الآخر، على قاعدة السيادة والاستقلال وحوار المجتمع والدولة.. ومن هنا كتب "الإسلام في رسالتيه" مجتهداً في فهم الدين، بما اقتضى الاجتهاد لديه من الخروج كثيراً على

القواعد المسلمة في قراءة النص والتاريخ الديني، ذلك أنه كان مبكراً في ميله إلى التعامل مع الدين كظاهرة اجتماعية، لا مانع، إن لم يكن هناك داعٍ، لقراءتها على موجب (الإناسة) أو (الإنتربولوجيا)، وإنً كان هناك ثابت غير جدالي في رؤيته، فهو انهماكه بتحرير الساحة المشتركة بين الإسلام والمسيحية باعتبارهما دينين توحيديين، ولم يكتفِ بذلك، بل اقترح المدرحية مكاناً فلسفياً للاجتماع الديني والاجتماع المدني، وللبعد المادي والبعد الروحي في الكون والإنسان والحياة.

قدمت هذه المقدمة لأقول بأن ما نعانيه الآن من فقر بعد عصر النهضة وامتداداتها حتى أواخر الأربعينات من القرن الماضي، يلزمنا بالانكباب على هذه الفترة وشواخصها الفكرية، أي الذين يتفق معهم سعاده والذين يختلف معهم على حد سواء، نقرأها، نقرأ ذاتنا فيها باعتبارها نوافد على البدايات التي لم تكتمل، وشرفات على المستقبل الذي نطلّ عليه أو يطلّ علينا الآن، من فراغ فينا وفيه.

وهذا يعني أن نحرّر كثيراً ممن يعتبرون مؤسسين، من حصار المؤسسات التي تأسست عليهم، وإذا ما كان جمال الدين الأفغاني مثلاً، قد حرّر نفسه وتقدّم إلينا حراً، بسبب مزاجه الشخصي وحيويته وحساسياته الكوسموبوليتية، فإن الكواكبي ومحمد عبده وخير الدين التونسي وطه حسين وعلي عبد الرازق والميرزا محمد حسين النائيني، بحاجة إلى تحريرهم من السياق الذي حاولوا تعديله فأعيدوا اليه قسراً أو

ابتلعوا كثيراً من أفكارهم التي ما زالت بحاجة وما زلنا بحاجة إلى أحيائها، وعلى الطريق لا بد من تحرير أنطون سعاده من حزبه، خصوصاً الآن، أي بعد أن تراجع نجم الأحزاب العقائدية، وعاد إلى السطوع نجم الأحزاب البرنامجية، ما يعني أن الحساسيات التي كانت منتشرة ضد الأحزاب قد تراجعت كمّاً وكيفاً، وأن المساحة بين الأحزاب أصبحت أقل سعة، ذلك أن البرنامجية من شأنها أن تحول التقابل الحاد إلى مجرد اختلاف تكاملي، ولعل النقد هو شرط هذا التحرير، بالنقد يتمكن الواحد منا أن يقرأ أنطون سعاده بمحبة أكثر وخوف ومجاملة أقلّ، لأنه يرتفع من فوق رأسه وقلمه عصاب التعب والزعل والغضب الحزبي الذي يذهب في حبّه للزعيم حتى حصاره واحتكاره ومنعه من الآخرين ومنع الآخرين منه.. وهذا ظلم لا يرفعه إلا الاتفاق على التجديد.

ما قد يساعدنا على تحقيق الحزب مزيداً من التحرّر، على أساس الإتباع، من المؤسس، ما يرقى إلى مستوى الضرورة أحياناً ويشكل حالة حقيقية من الوفاء للزعيم من شبهة الإلغاء المتبادل، إذاً، وإنصافاً لأنطوان سعاده، وللذين لا أحزاب لهم تنصفهم، وإنصافاً لنا ولأجيالنا فاقدة المثال والقدوة في حاضرها وماضيها القريب، إلا من رحم ربك، وهم قليل، أدعو إلى مؤسسة، إلى مكان ثقافي دراسي نقرأ فيه المشتركات بيننا قراءة مشتركة، لأن المشتركات متكاملة، والقراءة المشتركة هي تسديد وتصويب متبادل، وأشد قدرة على النقد، نقد الحاضر والمستقبل، وشرطه نقد الماضي،

على أن لا يتوهم متسرع بأن المقصود بالنقد هو النقض، على العكس فالنقد هو كشف للجذور ومعرفة بخواص التربة التي زرعت فيها البذور، ومعرفة ما هو باقٍ على أهميته للحياة، وما هو منقطع أو مستنفد لا يستدعي الوفاء له إحياءه، بل الوفاء له هو في أحياء الحي منه وتحويل الميت إلى سماد في تربته.

هنا، ومع سعاده، يسترعي انتباهي إلحاحه على النقد، وعلى النقد الفاتك أحياناً، ومن دون مجاملة، وأحياناً من دون رحمة، كما في نقده الذي بنى عليه كتابه "الإسلام في رسالتيه" على الشاعر القروي رشيد سليم الخوري.. وإذا ما أتحنا للزعيم أن يبلغ في النقد منتهاه، وحظرنا على أنفسنا ملامسته بنقد ما فإننا نكون قد ظلمناه وظلمنا أنفسنا بحرمانه وحرماننا من نعمة النقد.. ودعونا ممن يتجرأون يومياً على المسّ بالمقدسات الحقيقية، ويوسعون مساحة المقدس غير المقدس في الدين والفكر، تحت إملاء السياسة بمعناها الاستبدادي والتزويري، مستذكرين أن الزعيم يلحّ على تهمة من يتمسكون بالإطلاقات والتعميمات بالاستبداد، ملتمساً جذور الاستبداد السياسي في الاستبداد المعرفي (التقديس).. دعونا.. ولنرَ معاً إلى أن هناك فكراً نقدياً دينياً، يجري مجرى الدين والتاريخ، يضيّق المقدس باستمرار، ولولاه لتحوّل الفكر الديني والإسلامي إلى شمولية قاتلة ومعطلة من زمان، وإذا ما كان أهل النقد قد خافوا أحياناً بعدما خوّفوا فإن عودهم قد أصبح أقوى وأكثر صلابة، ثم من قال إن التاريخ

الجميل يمكن أن يُبنى من دون تضحيات؟ من دون تضحيات أهل الحق والحقيقة من أجل الحق والحقيقة؟ وأين نضع شهادة الزعيم، التي قد نختلف، لا كثيراً، على البعد السياسي فيها، ولكننا نتفق، من دون مكابرة أو مجاملة، على جمالها وحيويتها ووهجها الذي لولاه، لما كان هذا الحزب النابع من شهادته مرة يزيدها ألقاً ويضيف إليها، ومرة يعيش عليها.

هذا الكلام الذي قلته حتى الآن، مردّه أو سببه المباشر والعميق أيضاً، هو أنني تكلّفت بعدما كلفت شاكراً، أن أكتب في فكر أنطون سعاده، واخترت كتابه "نشوء الأمم" لأحاول التماس طموحاته المبكرة في علم اجتماع عربي أو مشرقي أو سوري على مفصل تاريخي حسّاس، لم يكن مجدياً مقاربته من دون رؤية حركته في الشأن المعرفي والسياسي.

غير أني انتهيت إلى ضرورة الاعتذار رفقاً بالكتاب وفكرته والجهد المبذول فيه، ورفقاً بنفسي وسمعتي العلمية، فالكتاب والزعيم وأنا، لا يناسبنا أن نكتب بعجالة في أمر لم يتعجّل فيه صاحبه، أما المزاج الصحافي فيردّ علي بالقول: قد أعطيت مهلة شهر أو أكثر فلماذا لم تستعد؟.

وأحيل من يؤاخذني على الزعيم، في كتابه (الصراع الفكري في الأدب السوري) حيث إشرأبت نفسه كأديب وناقد عالم إلى ممارسة النقد الأدبي، مدللاً على أن الموهبة الحقيقية والشعور بالمسؤولية لا يتوقفان على حقل معرفي

معين بل ينزعان إلى التجوال في كل المعارف ويتحركان على المشترك العميق بين حقولها المختلفة، ومن هنا يرتفع الزعيم في اهتمامه بالأدب والشعر والنقد والفن، إلى مستوى العارف الحقيقي، الذي لا يفرّق بين حقل وحقل، ويرتفع بالفن إلى مستواه المعرفي العميق، في مقابل الذين أصرّوا على اعتباره فائضاً عن حاجة المعرفة وأهلها، وتعاطوه أو تعاملوا معه كشكل من أشكال التسلية في أوقات الفراغ الأكاديمي أو السياسي أو التجاري. شاهدي أن أنطوان سعاده يندفع ساخناً إلى حلبة النقد الأدبي، ويمارسه ممارسة مختصّ ملحّ على التفاصيل، وفي مقدمات كلامه وأثنائه، يشكو، فمم يشكو؟ يشكو مما يشكو منه بعضنا ممن تورّطوا في اقتراف المعرفة والثقافة ومتابعتها قراءة ونقداً، وهم في نفس الوقت آتون اليها، لا من مدرسة، بل من الأرض، من الناس من الهموم، من القضايا، من الذاكرة ومن الأحلام المفتوحة على اليأس والأمل معاً.. ما يجعلهم مطالَبين بكل شيء، من دون أن يكون لهم حق في شيء، حتى الوقت، في حين أن الزمان العربي واللبناني، والإمكانيات العربية واللبنانية، كلها تُسفح وتُسفك على مذبح البطالة والإنتاج الذي لا يجلب إلا الإحباط والغثيان، وإلا فلماذا نحن في ما نحن فيه من بؤس وانسداد، لو لم نكن نعيد انتاج التافه قبل الجيد والمفيد؟.

هو في أمريكا الجنوبية، مشغولاً بتفاصيل التفاصيل في حياته وأمنه، في المنفى، يشتغل في كل شيء، وعلى كل شيء في المعرفة والعمل والسياسة، وآخرون هنا الآن وفي

كل زمان، يشتغلون في كل شيء وعلى كل شيء، مع شعور متكاثف بالمنفى في الوطن، وآخرون لا يشتغلون بشيء ولا علي شيء، ويختزلون الوطن بهم حتى يبدو أنهم يحاصرونه وهو يبحث عن تحرّره منهم، في حين أنهم يدعون أنهم يبحثون عن حريتهم فيه!!.

يقول الزعيم(*) في مقدمة الكتاب الذي ينقد فيه نصوصاً نقدية على قصيدة شعرية لأمين الريحاني ويوسف نعمان معلوف وشفيق معلوف صاحب القصيدة "بيونس ايرس ١٩٤٢م" : فشعرت بالنقص الفكري الكبير الذي مثلته الكتب الثلاث في هذا الموضوع وبالحاجة إلى درس يتناول موضوع الأدب في أساسه ويجلو الغوامض الكثيرة التي استوت فيها سهام الرماة وضاعت مجهودات الكتاب على أني لم أجد منفسحاً من الوقت للقيام بهذا الدرس على الوجه الذي أريده. فحاجات صحيفة الزوبعة (التي كان لا بد لي من قيامي على إدارتها وكتابة أهم مواضيعها السياسية والاجتماعية والفلسفية "مضافة إلى حاجة إدارة فروع الحزب السوري القومي الاجتماعي عبر الحدود ومعالجة المسائل والقضايا الكثيرة التي تعرّض لها، إلى حاجات الإذاعة القومية الاجتماعية في أوساط السوريين عبر الحدود، فضلاً عن الاهتمام بتتبّع السياسة الإنترنسيونية وعلاقتها بالأمة السورية ونهضتها القومية والاجتماعية، كانت أكثر مما يمكنني وحدي سدّ ثغراته،

(*) لست متحمساً لايتعمال مصطلح "الزهيم" بل أنا مجامل.

فكيف أعمد إلى توسيع دائرة الأعمال وزيادة القضايا التي تشغل فكري من غير إلحاق عجز كبير بشؤون كثيرة".

هذا الاعتذار الطويل والشديد والمفهوم جداً، لم يمنعه أن يبادر إلى كتابة نقده الأدبي كتابة متخصّص، بالإضافة إلى ما يرشح في كلامه من دلالة على ذوق أدبي خاص وثقافة موسوعية.

هذا على أننا الآن، وعلى العكس من حال الزعيم، ربما نكون مشغولين، لا ببناء أحزابنا في ظروف صعبة، بل إلى معالجة الأعطاب والإشكاليات الحزبية في ظروف هينة!!.

أكرّر كلامه: ".. أني لم أجد منفسحاً من الوقت للقيام بهذا الدرس على الوجه الذي أريده"، فكانت هذه العجالة.

حسين مروة أسئلة وأجوبة

كيف تنظرون إلى الدكتور حسين مروة كمفكر وإنسان؟

ـ قرأت معظم كتاب حسين مروة (النزعات المادية) مبكراً وقبل أن يصدر، قرأته مقالات في مجلة الطريق التي كان يشرف عليها وأهم ما توقفت عنده بإعجاب هو قراءته للشروط الاجتماعية والسياسية التي رافقت أو كانت أهم أو من أهم العوامل المؤسسة للتعدد الفلسفي الكلامي في الفكر الإسلامي، أي المقدمات التاريخية للمدرسة الأشعرية والمدرسة الاعتزالية والوسطية الشيعية.

وعلى ميله الطبيعي إلى المدرسة الاعتزالية، بسبب كونه قد اتخذ الجدلية منهجاً في التفكير والتحليل من ضمن نظام المعرفة الماركسية.. لم تخلُ قراءته المنحازة للمعتزلة من نقد (مادي) للنزوع العقلاني المقيَّد أو المتقيِّد بالمثالية الدينية والدائر في فضاء الغيب والوحي وضرورات التأويل للنص الديني التأسيسي الذي لم يكن ظاهره كافياً لالتماس العقلانية المحببة لدى أمثال حسين مروة من ابن رشد حتى الآن وإن

كان يرى أنه لو تم البناء على التأسيس المعتزلي في البحث الفلسفي لكان الفكر الإسلامي قد تجنب الوقوع فريسة الجبرية الأشعرية التي تتناسب مع النقل مصدراً حصرياً للعقيدة والشريعة.. في كل ذلك كان حسين مروة ملتزماً بشكل أرثوذكسي بالمادية التاريخية. ومن هنا جاءت إضاءته للمنطقة المظلمة أو المتروكة لدى الكلاسيكيين، بين نظام الأفكار والواقع الاجتماعي (الطبقي) السلطوي في النهاية والذي لم يكن يناسبه (في العصر الأموي أساساً وأولاً) إلا الجبرية عقدياً لأنه قرر أن لا يكون أمام المساءلة عن استبداده وجوره وفتكه بالمال العام.. والمفارقة التي التقطها حسين مروة هي أن مأثوراً نبوياً كان قد شاع مضمونه أو نصه التبرؤ من قَدْرية الأمة الإسلامية ولعنهم.. وهنا كان لا بد من التحريف في التفسير فتم تطبيق السلطة للمصطلح على الأوائل من أهل النظر والنزوع إلى الحرية والمسائلة، تمهيداً للفتك بهم على أساس كفرهم وقد حصل.. بينما رأى حسين مروة أن هذا المصطلح ينطبق على الاتجاه الآخر الذي يقول بالقدر، خيره وشرّه، حتى الآن.

في تقديري أن إنسانية حسين مروة تظهر في هذا المجال إذا قررنا أن لا نبسط مفهوم الإنسان والإنسانية، بل نرفعه إلى مستوى الانشغال المعرفي بالإنسان والشغل عليه من خلال البحث الدائم عن جدلية الضرورة والحرية وجدلية الفكر والواقع من دون اختزال قاسٍ تجرأ على نقده أرنست فيشر في (ضرورة الفن) فأعاد للفكر دوره كفاعل مؤسس وجوهر

لا عرض للمادة.

الى هذا، كان يسعى حسين مروة مقيداً بصرامة المنهج المادي الذي تأخذه الضرورة على حساب الحرية إلى أن يشتغل في حركة تفكيره تكوين ثقافي مختلف، هو ما حصل لدى حسين مروة عندما تسربت ثقافته الكلاسيكية والمفاهيم العلمية الحوزوية التي تلقاها في النجف معطوفة على حساسية وجدانية وشفافية روحية جعلته يتميز عن جيله من الماركسيين الأحاديين.. وهنا وفي نمط علاقته الموصولة بماضيه النجفي، إلى لغته، إلى سلوكياته الشخصية، إلى كتاباته.. كانت هناك لمحة حسينية شيعية تلون النص وتثبت أن الرجل كان يتمتع بقلق معرفي ربما كان هو الكامن وراء إبداعاته في كتابه في النقد الأدبي على ضوء المنهج المادي الذي رغم عنوانه المادي بقي فيه مكان للروح التي تقوم مقام الضرورة في القصيدة. من ناظم حكمت إلى حمزاتوف إلى نيرودا، ولم يستطع أن يبرر تماماً الواقعية الاشتراكية لوقوعها كنظرية نقدية في سياق الإيديولوجيا الشمولية والتبسيطية.

هذا، ولعل في تاريخ تحول حسين مروة من شيخ معمم يقرأ الفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والبلاغة والتاريخ بعمق وتدبر وحساسية عالية يشهد لها كل زملائه من المعممين الذين أصروا على الاستمرار في محبته وصداقته ومجادلته، لعل في هذا التاريخ ما يؤكد أن إنسانيته كانت من أهم أسباب قلقه وتحولاته.. فهو لم ينتقل من المشيخة مباشرة إلى الشيوعية، بل كانت هناك مرحلة امتدت حوالى عشرين سنة

أي إلى سنة ١٩٥٣ حيث أصبح عضواً في الحزب الشيوعي.. قبلها كان معلماً في مدن العراق وريفه.. مدنياً بذاكرة دينية وحلم بالعدالة، وجد وصفاً له ربما - في (رأس المال) وغيره، فما الذي دفعه إلى هذه النقلة؟ في سيرته على لسانه ولسان معاصريه أنهم وإياه قد اكتشفوا تناقضات بين الخطاب الديني الحوزوي والمسلك، واكتشفوا أن خطاب التقوى والزهد والطلاق مع الدنيا هو في الأعم الأغلب من أدوات الشغل وتحصيل المكاسب على حساب المؤمنين.. وتطور حسين مروة من اكتشافه لمفارقة التباين بين النص والفعل إلى احتمال أن يكون النص هو المسؤول الأول على غير ما نرى مع إصرارنا على النسبية في قراءة النص. وهكذا تحول.. ولكنه لم يكفّ عن النظر إلى صدره باحثاً عن الصواب.

ما هي برأيكم المساهمة الفكرية التي قدمها للثقافة العربية وللدراسات التراثية؟

ـ قناعاتي أنهم قلة أولئك الذين يصح تسميتهم حقيقة ماركسيين من العرب. وقد اكتشفوا أن أكثرهم، وأكثر المثقفين فيهم، كانوا ينقضون بالمعاول لا بالأقلام وبالتعميم لا بالتدقيق عمارات فكرية مؤسسة في تاريخنا من الإسلام وغيره. وكانوا يقرأون الماركسية والتجربة الشيوعية على أنها وصفة مجربة بصرف النظر عن الخصوصيات المكونة لأي مجتمع وطني مختلف.. وقد سيطرت عليهم شواهق البنيان الستاليني وما بني عليها لاحقاً وإن معدلاً، من دون أن يدققوا

في نوعية وجمالية الأثاث والعلاقات الداخلية لساكني العمارة، بالعمارة وجيرانهم فيها حتى أصبحت العدالة ضد العدالة.. فكانت دورة الإنتاج تدور على المنتج وتستلبه وتدعي أنها تخلصه من الاستلاب.. وقمعت كل الاعتراضات وسميت انشقاقات من موسكو إلى بودابست وبراغ وبوخارست جيرك وغومولكا.. بناء على الأساس في كومونة كرونشتاد وغيرها.

لم نقرأ جيداً، أو لم يقرأ الماركسيون العرب جيداً، أو لم يقرأوا تحولات مجتمعاتنا الوطنية في العصور التاريخية المختلفة.. وعندما كتبوا لم يكتبوا إلا قليلاً من العلم.. وقضوا أكثر من ستين سنة وهم يسبون الدين والفكر الديني من دون أن يقدموا نصوصاً نقدية عميقة وفعالة.. قليلون من فعلوها.. في مقدمتهم حسين مروة الذي أعتبره أحد المؤسسين في نقد الفكر الديني سواء وافقتُ عليه أو لم أوافق، لأن نقده نشط فينا حاسة النقد من دون إغرائنا بالنقض.. وهو لم يكن همّه نقض الفكر الديني.. لماذا كان ذلك؟ رأيي أن الذين قدموا على مدى التاريخ نقداً للفكر الديني حقيقياً هم علماء دين في حقول مختلفة عملوا وكأن نقد الفكر الديني ضرورة دينية؛ وعليه فإن حوزوية حسين مروة جعلته ناقداً حقيقياً.. وهذا أهم ما أسهم به في تعاطيه مع المنجز الإسلامي الذي لا بد أن نحمله ونعمل على التخفيف من مفرداته التي تعيقنا بدل أن تثرينا.

ماذا بقي من فكره في العالم الثقافي العربي في أيامنا هذه؟

ـ رأيي أن فكره كله يبقى.. لا بما هو نص كامل وناجز، بل بما هو نص مفتوح وقابل للزيادة والنقيصة والقبض والبسط. وعلينا أن نقرأه بروح نقدية كما هو يريد قطعاً. أما القراءة الإيديولوجية أو العقدية فإنها تؤذيه وتؤذينا.. وإشكالية حسين مروة ليست في ما عمل وقال وكتب، بل إشكاليته في أن التجربة التي قامت على الماركسية فشلت عملياً وانكشفت مراوغاتها وإطلاقاتها وتعميماتها التعسفية جراء مصادرة السياسي للثقافي ومصادرة المركزية للديموقراطية وإلغاء الذاتية بمادية مبتذلة في الفن والعلم والسياسة والفلسفة والأدب.

ومن هنا تعرض فكر حسين مروة ومهدي عامل والطيب تيزيني للهجر كما هجرت كتب لينين وكبار الشيوعيين.. كأن حسين مروة وأمثاله كانوا مسؤولين عن الانكشافات والخلل في نظام المعرفة وأدوات التحليل والتجربة العملية. بلى.. كان حسين مروة مسؤولاً.. وكان ينتقد التجربة سراً.. خطيئتهم أنهم لم يجاهروا، حتى سقط الهيكل على رؤوس الجميع.

لقد كنا في البلاد العربية بحاجة إلى شجاعة وعمق كالذي وجدناه لدى غرامشي ولوفيفر وغارودي وإرنست فيشر وهربرت ماركوز وأسئلة الطلاب والشباب في فرنسا عام ١٩٦٨ والى قراءة الانعطافات الجريئة التي قرأت المتغيرات في أوروبا والصراع الطبقي مع جورج مارشيه ورفاقه في السبعينات ومع تولياتي.. وكاريو وغيرهم.. بينما كانت

مجموعة من العقائديين الماويين فضلاً عن الغوغائيين القوميين تقرأ لنا تجربة الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية من دون أن تقول لنا كلمة واحدة عن الانسدادات الصينية التي تراكمت حتى أصبحت فضائحية عندما انكشفت الثورة الثقافية عن تاريخ من الجرائم البشعة والتزييف الدميم..

أكثر نقادنا من الشيوعيين العرب تسمروا على عتبة النقد ولم يدخلوا الدهاليز المظلمة ليكشفوا ما فيها من جثث. هناك من تلاميذ حسين مروة من يمارس النقد الآن.. حسناً ولكن بعد فوات الأوان.

مصطفى عزّ الدين
يومك بوابة على العمر

في ذكرى الراحلين من الدنيا إلى الديّان، يجتمع المختلفون، تجمعهم قيمة حاشدة بالمعنى الإنساني. يعود كل منا إلى ذاته، يحاسبها، يميز السلب عن الإيجاب في علاقاته وسلوكه وردود فعله، ويأخذ نفسه بتصحيح مساره، ويشعر بضرورة التراحم، أي رحمته للآخرين ورحمتهم له، أي التسامح والاستيعاب والتجاوز وقبول الآخر كما هو، والتركيز على الإيجابيات وعدم تضخيم السلبيات أو اختراعها، على أساس عيّنه الرسول ﷺ بقوله: "كل ابن آدم خطاء". لقد فتح عيني على قلبي شيخ قديم في ضيعة عاملية، بلغه خبر وفاة فلان من ضيعته، فامتقع وجهه وقال: لقد خسرت واستغفر الله... لأن معلوماتي عن الرجل أنه لم يكن متديناً، فكان عليّ أن أبادر إلى نصحه وخلاصه، ولكني سوّفت فخسرت من دون أن يكون المتوفى خاسراً بالضرورة، لأن الله غفور رحيم ولا يعمل بقوانيننا. هذا طبعاً، في ما يعود

إلى تقصير العبد في شؤونه الخاصة، أما إذا كانت الخطيئة تطاول مصالح الناس وكرامتهم، فإنه أشد المعاقبين. مصطفى عزالدين، لم يقل أحد من محبي حزبه أو شخصه أو عائلته، أو مبغضيهم، الذين لا أعرفهم، إن الرجل ارتكب عدواناً على أحد، قد يكون قد اقترف خطأ، ولا بدّ، ولكن جلّ ما في الأمر أنه كان يختلف مع هذا أو ذاك داخل الحزب أو خارجه، داخل العائلة أو الضيعة أو خارجهما. وأئمة الدين، بل وأهل التقوى يختلفون. يبدو أن مصطفى عزالدين قد اكتفى بموقعه السياسي فأنفق ولم يكسب فاكتسب. اغتنى بذاته فلم يسعَ إلى الغنى، وأنا هنا لا أمجد الفقر بل أحب الفقراء، ولا أكره الغنى، بل اشترط على الأغنياء أن يكونوا أذكياء وشرفاء وأن لا يعتبرونا أغبياء. إذاً، فأنا عندما أشارك في تكريمه، إنما أكرم نفسي فيه... وتشدني اليه قيمة، دونها، تصبح القيم الأخرى تفاصيل أو نوافل. نظافة الكف التي تأتي من نظافة العقل والقلب، إلى ذلك كان فقيدنا نظيف اللسان. والله يولي هذا الأمر عناية فائقة في نصّه الموحى. وأنا من قراء النص القرآني والإنجيلي، وأحشر نفسي في أهل الله طمعاً في أن أكون منهم، ولكني أختار الإنسان طريقاً إلى الله. ولا أبالغ في المناسبة، إذا ما اعتبرت أنها ميزة لمصطفى عزالدين أن يكون الاحتفاء بهذا الأسلوب الهادئ الوقور، المدني، الذي يأخذنا إلى المضمون من دون إهمال للشكل، ومن دون إفراغ للأشكال من مضامينها، أي الاكتفاء بالقشور، والتمادي في مراكمتها حتى بتنا في خطر طرد الدين من

الجوامع والحسينيات وقلوب الناس وتحويله ممارسات مقيتة لا روح فيها. في مثل هذه المناسبات، أتعمد أن أمزج بين الخاص والعام، تودداً أو طلباً للإيلاف، وطمعاً بتحويل الخطاب شهادة للمحتفى به على أمل أن يكون لي نصيب فيها... أقول: رغم كل الذي كتبته وقلته نقداً، أو نقضاً، للفكر الماركسي والتجربة الشيوعية، تمسكت الأجهزة الرسمية، والأجهزة الأهلية التابعة لها، وأرباب المصالح غير المشروعة، والتي تلخص المصلحة العامة بمنافعها الذاتية، تمسكت قوى تعويق التقدم والنهوض والحرية والعدالة، باتهامي بالشيوعية، وأصرت على ذلك حتى في أقصى لحظات الصدام بيني وبين الشيوعيين في الفضاء الوطني، مع يقيني أني لم أتعرض لحساب عسير إلا بسبب مركزية فلسطين في وعيي وهمي وأحلامي. علماً بأن الشيوعية في تقارير الأجهزة وتعليماتها كانت تلتبس بالقومية والبعثية والناصرية وغيرها جهلاً مرة وخبثاً دائماً. إذاً، فهناك شبهة يسارية وتهمة شيوعية في سجلي الشخصي. والبارحة بالذات، كنت شرعت بنشر قراءة نقدية للأحزب اللبنانية، مبتدئاً بالحزب الشيوعي من دون تردد وبشيء من قسوة لا تخلو من غيرة أو محبة. وبعد ساعات من انتشار الصحيفة الناشرة، هاتفني عضو في قيادة الحزب في الجنوب، ناعياً إليّ خصمي الحميم القيادي الشيوعي علي العبد، ودعاني باسم القيادة والعائلة إلى الصلاة على جنازته. حزنت واعتذرت صادقاً بمشاغل وظروف لا سبيل إلى تجاوزها. ولو افترضنا

أني ذهبت وصليت على جنازة الصديق. فسوف أتعرض لمساءلة، لن يتعرض لها غيري من رجال الدين الأقل مرونة أو الأكثر تشدداً أو الأضيق صدراً مني. أما أنا فسوف يضاف دليل آخر على شيوعيتي بعد انفضاض الشيوعية، وتحميلي مسؤولية الضغط على خازن الجنة رضوان، من أجل إدخال علي العبد إلى الجنة. ولو كنت أعرف أن صلاتي على الجنائز تؤدي إلى غفران ذنوبهم وتدخلهم الجنة لاغتنمتها فرصة لغفران ذنوبي بالصلاة على الخطاة، متسلحاً بمسلمات في ديننا أهمها أن الله أرحم الراحمين، لا يؤوده ذنب، وأن رحمته لا تقاس برحمة الرحماء من البشر، فضلاً عن القساة، الذين يحبون الخطيئة ويكرهون الخاطئ، وإن الله ينظر إلى الداخل والحال لا إلى الخارج والمقال وحده، ويلزمنا الأخذ بالظواهر، لأنه وحده العالم بالبواطن، ولا يرضى أن نملي عليه ويلزمنا الاسترشاد به... أما أنه يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يُشرك به... أي الكفر، فهذا قوله عز من قائل... والكفر المقصود هو الكفر الصراح، أي الموصوف، أي الواضح كالشمس، لا الكفر السياسي الذي نرفعه إلى المستوى الإيدلوجي بناء على الطلب أو بناء على انطباعات سريعة أو متسرعة يمليها المزاج من دون خبرة أو فحص. ومن بإمكانه أن يكون مؤمناً وخلوقاً ومسؤولاً، ويدعي أن بإمكانه أن يفحص الضمائر؟ هذا شأن الله وحده، وفي ذاكرتنا ذلك المشرك الذي فرّ فتبعه المسلم الصحابي المقاتل حتى علاه بالسيف في إحدى المعارك فقرأ الشهادتين فقتله... ونمي ذلك

إلى رسول الرحمة، فقرّع الرسول القاتل الذي أصر على صحة تصرفه بحجة أن الرجل مشرك، وإنما قرأ الشهادتين نفاقاً وتخلصاً من القتل، فوضع الرسول ﷺ في رده معياراً من شأننا لو تأملناه أن نعود إلى صوابنا قال ﷺ "وهل شققت عن قلبه؟"... إذاً، فالقلب هو مكان الإيمان، وقد يعانده العقل ولكنه في النهاية يمتثل له. وهنا في هذا المشرق، المجبول بالروح، لا أصدق إلحاد كثير ممن يجاهرون بإلحادهم، حتى إذا ما تعرضوا للتجربة كشفوا مكنونهم الإيماني. وأنا أفهم الإيمان والتوحيد أوسع من أي حصرية. وأرى خلاص المؤمنين رهناً بذاتهم، بفرديتهم، وأن الطائفة أو المذهب، لا تعدو أن تكون طريقاً من الطرق. غاية الأمر أن هناك، حسب الاقتناع، طريقاً أضمن من طريق، وهنا يصبح مسوّغاً اختبار الأفراد طريقهم إلى خالقهم والتي تتعدد بتعدد أنفاس الخلق. إن كلامي عن المرحوم مصطفى عزالدين، أشد راحة علي، ولي، من كلامي في مكان آخر أو في ذكرى حزبي آخر. لأن حزبه مارس الكفر السياسي، وأنا مجبول بهذا الكفر، ولكني كافر هادئ غير موتور ولا متوتر، حواري. لأن التجربة والعمر والميل إلى فهم الآخر، حتى الخاطئ، عملاً بقول علي (ع) "ارحموا أهل المعاصي" قد روضت هذا الكفر (السياسي) وجعلته أقل حدة واستبعاداً للآخر الذي يعوّق الوطن والمواطن. ولا يبدو أن أحداً سوف يستفيد مني لأن أمثالي لم يعودوا موعودين بالظفر، لأنهم لا سلاح لهم إلا أظافرهم أو أسلاء يراعهم.

والظافرون هم القساة الذين يقتلون من أجل أن يعيشوا، أما نحن فإننا نموت أو نحيا ليحيا الوطن والمواطن، أي نحيا بالآخرين وفيهم، في الأحياء إذن موقع محفوظ لمصطفى عزالدين.

لعل أهم مطارح السجال بين أهل التوحيد الديني والحزب القومي، هو المدرحية، التي توخى من خلالها، من خلال التوليف أو التركيب الفلسفي، حل إشكال المادي والروحي، الذي حلّه فيورباخ وتابعه ماركس بالأحادية فابتلي الشيوعيون لاحقاً بميتافيزيقا، أملاها عليهم وجود الروح الكونية، وخالطها المؤسس أو الأمين العام للحزب الذي رفعته الإيديولوجيا المرضية إلى مقام غيبي، لتنكشف الأزمة أخيراً، عن ميتافيزيقا كامنة أتاحت للكنيسة الروسية وغيرها أن تسترد كل ما صودر منها من فكر وحجر وبشر بفوائد مركبة. غير أننا نجد أنفسنا، على قاعدة التوحيد، ورؤية المادي والروحي تعبيرين مكتملين مختلفين عن الواحد الكوني، أي الداخل في نظام الكون جاعلاً الوحدة تعبيراً عن التوحيد ومعادلاً موضوعياً له، وتقديري أن سيطرة فكرة الثنائية التقابلية هي التي جعلت المؤسس سعادة يقع في شراك فيورباخ. غاية الأمر أن فيورباخ فكك وألغى، وسعادة ألف فألغى. وقد يكون ذلك كله من إملاءات الفكرة القومية في جانب من محمولها الاجتماعي الذي لا يتسع للتعدد ليبحث عن نصاب الوحدة فيه. وما يمكن أن يكون تعديلاً منهجياً لهذه الأحادية في القومية، هو أن التعدد المحكوم بالاتصال،

قد استقر نظرياً وعملياً كأطروحة تتكفل بما يكفي للاحتياط من مخاطر الاختزال والاستيلاء والإقصاء أو الإلغاء. أقول هذا الكلام النقدي الذي يتضمن إقراراً بعدم التناقض الرؤيوي مع الحزب، وإنما هناك تعارض أصلي منهجي ولكنه يأتي ثانياً بالنسبة للمسألة الأولى في نظام إيماننا بالغيب. أقول هذا الكلام لأؤكد أن مشاركتي في تكريم الراحل خالية من أي مجاملة أو تساهل ديني، ما يعني أن كلامي مقصود بمعناه الظاهر ومن دون داعٍ إلى التأويل السياسي، خصوصاً أن مقدار الاختلاف السياسي مع الحزب يعادل مقدار الاتفاق. وقد يزيد عليه مقداراً. إذاً، فهناك فرصة للقاء تأتي من حزب مصطفى عزالدين، وهناك فرصة تأتي من شخص مصطفى عزالدين. قد يكون مفهوماً أن يتنصل شاب في ريعان شبابه وتفتحه وبحثه عن ذاته، من موروثاته وكثير من مكوناته، وحتى من رحمه وأقرب الناس إليه، والآن يزداد هذا النزوع مع أولادنا وأحفادنا اتساعاً وعمقاً وتوتراً وإثارة للأسئلة وبحثاً عن الحوار معهم، من أجلنا ومن أجلهم، من أجل غدهم وغدنا فيهم. ولا يلبث العمر أن يتقدم والمعرفة أن تتسع وتتعمق والعصبية أن تتراجع، ليعود السيف إلى قرابه، ويعود الوعي إلى الذاكرة، ويبدأ المنفصل عن رهطه بالبحث عن طرق الوصل والتعويض عن الماضي. هذا وعي عظيم، قد يتأخر وقد يتقدم، وفي كلٍ خير، وأسباب ذلك كثيرة، ولكن، أليس من أسبابه، أنّ الفكري والإيماني والسلوكي والقيمي والذهني والوجداني والفني، لكثرة تكراره والاجتماع

به وعليه في السلالة الواحدة، يتحول إلى مورث ثم إلى موروث طبيعي أي أنه يدخل في مكونات الجينات وخريطتها. وينتمي إلى فئة المتراكم الخفي الذي يظهر ساطعاً في المتحولات والامتحانات ومواسم التحديات. من هنا، مثلاً، ليس خطأ أن نعترض أو نستدل على متراكم فينيقي في تكويننا اللبناني أو الشامي أو العربي، على أن لا نعاند التاريخ اللاحق ومتغيراته، حتى لا نرفع هذا المكون الخفي إلى مقام المشروع السياسي الذي يلغي المكونات الأخرى والأكثر كثافة وحضوراً وظهوراً وجمعاً لمستويات اجتماعنا العام. التقيت مصطفى عزالدين في مستشفى الجامعة الأميركية ملازماً لأخيه، واستدعى وجع أخيه مع وجع شريكتي قرينتي، أن نلتقي يومياً وعلى مدى أيام وليالٍ ساعات طويلة، كانت كفيلة بكسر الحواجز تمهيداً لألفة، بدأت من الحديث عن الإخوة والأخوات والأُخوّة وصولاً إلى العائلة، من دون نسيان الحزب والثورة الإيرانية حيث كنت عائداً من طهران، وتعدينا الأحياء إلى الأموات، فعلمني مصطفى عزالدين فصولاً من تاريخ العلم الديني والمسلك الديني في جبل عامل، عندما كان علماؤنا أكثر علماً منا الآن، وكان أهلنا أقل علماً من أهلنا الآن، ولكن الدين والمسؤولية الروحية والمعرفية كانت تقصر المسافة بين الجميع. كان التوحيد يصب في الوحدة، وكان الدين سلوكاً مطابقاً قبل أن يصبح معرفة مفارقة بالأحكام الفرعية من دون عناية بمقاصد الشريعة، وفهمت أن لقب عزالدين وشمس الدين وخير الدين

وشرف الدين ونور الدين وأمثالهم ليست ألقاباً تشريفية، بل هي استحقاقات علمية ومسلكية. ولشدة استحضاره لهذا الجانب من تراثه مازحته بأنه إذا ما كان طامعاً بعمتي فهي سوداء وعمة أهله بيضاء، أما جبتي فإني أنزل له عنها، ولكني لا أضمن له بأن يكون موفقاً في دنياه إذا ما ارتدى جبتي، لأنها تضيق علي وعليه كثيراً، وإن كنت لا أضيق بها ولا أضيّق عليها حباً للناس والتزاماً بصحيح الدين. وأعطاني فرصة لأحدثه عن رهطي فأخبرته أنهم أخبروني، وقرأت في بعض الكتب، أن جداً من أجدادي كان وجيهاً وفهيماً وميسوراً أنفق جزءاً من ثروته على الشأن العام، ثم انتبه إلى أمر العلم والدين، فذهب إلى الحوزة الدينية في جباع، واختار شيخاً للضيعة زوّجه ابنته بعدما خصها بخواص أرضه... وهكذا أنعم جدي الأعلى علينا بخؤولة آل الزين العلمية والأدبية فشعرنا نحوه بالامتنان. وذكرت له جدي الأدنى الذي لم أره، وقالوا لي إنه كان عفيفاً صريحاً قوياً في قول الحق، وربما، لذلك، مات مبكراً، وربما قهراً من الباطل، فخفت أن أموت مبكراً، وما زلت خائفاً وإن كان الخوف من الموت الفردي والجماعي قهراً على لبنان وفلسطين والأمة، قد أصبح عاماً، فإننا قد نموت ونحن أحياء، أي أحياء أموات. لأننا هجرنا وآثرنا الذل قاعدين أو جاهلين أو متجاهلين. على العزة ووقفة العز. سلاماً على مصطفى عزالدين وله في ذكراه، ومن دون قسوة، أقول له: هنيئاً لك، لأن الأيام المرة التي نقطعها الآن وتُقطّعنا، ربما

أتى يوم نتحسر فيه عليها. وقبل أيام بلغ بي الضيق مداه فقلت: ربما كان التفاؤل قلة أخلاق. لولا أننا ملزمون باختراع التفاؤل وصنعه من دون افتعال أو مكابرة. أليس قهراً لنا أن نظامنا العربي لا يرقى في تنازلاته إلى مستوى الخيانة والخونة الذي ينظمون خيانتهم ويقبضون أثمانها؟ هكذا بالمجان وبالتقسيط من دون خفض في الأسعار، نمارس الخيانة في الخيانة. والأمرّ من ذلك ما يبدو، وأرجو ألا يكون إلا عابراً، من استعداد شعوبنا للاستقالة من وظيفة التغيير وشرفه، واستنفاد الاعتراض والاحتجاج بالانفعال ثم العودة إلى تبرير الفاسد والفاسدين والمفسدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ايامي القليلة مع مصطفى عزالدين، كانت مملوءة أدباً وشعراً وذاكرة جميلة. دعونا نسلم لهذه البيوتات العلمية العاملية أنها ساهمت في حفظ لغتنا العربية مكوّننا الجميل، أي حفظت القرآن، لا بما هو نص إلهي وحسب، ويكفيه ويكفينا أن يكون نصاً، ولكنه مكون للذاكرة والرؤية وموحد على قاعدة التوحيد لأهل التوحيد. ودعونا نذكر للحزب السوري القومي الاجتماعي أنه أولى هذه اللغة كما اولى فلسطين، عناية خاصة ظهرت آثارها في كل أدبياته. كان لقائي بمصطفى عزالدين مناسبة للتعارف والتثاقف عن قرب مع شوامخ من سنديانات الحزب، شكراً له الذي عرفني بالدكتور عبد الله سعادة الذي تحولت اللغة العربية في خطابه إلى بنية أخلاقية وسياسية متماسكة ورحبة وحنونة، وباذخة، كانت أياماً تعادل سنوات، إذن فماذا يقول عنه من عايشه

سنوات مرّة وحلوة. كان كما لاحظته، يؤثر الصمت وفي الصمت نحو وصرف آخر وبلاغة وفصاحة أخرى. أيها الفقيد العزيز آه لو يسكت كثير من المتكلمين عن كلامهم الحرام من أهل الجعجعة بلا طحن ولا طحين، إنهم يطحنون عظامنا وحجارة الوطن، يحولونها غباراً وكلساً... آه لو يتكلم لبنان، أو فلسطين، أو بغداد، عفواً كان يومك هذا بوابة على العمر، ما ذهب وما بقي، فسلام عليك.

أيقونتنا الحية ...
ما أجمل وجهي في وجهك!

ما أسهل أن تكتب عن الماء وعن الهواء، عن الحياة، هنا يرقى السهل إلى مقام الامتناع، وفي الامتناع يلتمس ويتلمّس العارفون سر الإبداع... قياساً على الماء والهواء، أي الحياة، أي الجمال الذي يضارع الوجود سطوعاً، تستطيع أن تضيف أو تبدأ بالقول: ما أسهل أن تكتب عن المطران جورج خضر! لأنك إذ تكتب كأنك لا تكتب، لأنك تكتب ذاتك فيه، أو تكتبه فيك... هذا الالتباس، أي أن ألتبس به ويلتبس بي، مع بقاء كل منا على خصوصياته، كان شاغلي منذ التقيته، في كنيسته (المدمرة لاحقاً) في الحدث، عام ١٩٧٣ شاكياً له حال مزارعي التبغ والمعلمين المصروفين، مبشراً بأني وبعض أحبائه من أهل الموهبة من شعراء الجنوب قد تحولنا إلى ورشة...

مع المطران خضر، أنت تقرأ لا تكتب. عندما تكتب نصك يصبح ما تكتبه وكأنه حرام عليك، يصبح مشاعاً. أما

عندما تقرأ نصاً، فإنه يقرأك كلما قرأته، يتلون بلحظتك، بمشاعرك، تجد فيه ذاتك، ذاكرتك وحلمك، فرحك وحزنك. وهذا الرجل كتاب، فهل هو نص؟ بل هو نص ضد النص، تقرأه قراءة جديدة كل يوم، من دون أن تكون القراءة التالية نقضاً للأولى، أي أنه مساحة للتأويل، مجازه أو مجازيته أسطع حقيقة من حقائقه الظاهرة، فأين تذهب؟

ليس نصاً، لأنه يشرع في ما يمكن أن يكون نصاً، أي فرضية ما يستدل عليها ويثبتها أو ينفيها، فكرة، موقف، رؤية، إلخ. ثم يأتيه القلق كما يأتيه الحب، أو يأتي المطر الأرض فتزهو وتربو، ويشرع وهو على باب نصه، يشرع في نقده أو نقضه، كأن الحقيقة عندما يراودها أو تراوده تدله على حقيقة أخرى أو يدلها. من هنا، فهو لا يذهب بك، أو لا تذهب معه إلا إلى الأسئلة...

وأين الأجوبة يا سيادة المطران؟

إن السؤال إذا ما انتهى إلى جواب انتهى، توقفت المعرفة. إذاً، فالجواب الجواب هو معبر السؤال إلى السؤال، هو السؤال المولود من السؤال، هو السؤال الجواب.

"مكلف بفضاء الله أذرعه   على قلق كأن الريح تحتي"
(المتنبي)

من هنا إيمان المطران خضر، إيمانه يتدفق كنهر،له ضفتان، الله والإنسان، كلما عاينته أو عانيته بدا لك كأنك تراه لأول مرة. إذاً، فجرب السباحة فيه، إنه قلق مضطرب

فياض، هائج. إذاً، فاغطس، هذه علامات الأمن والأمان والوصول، فهل تصل إلى سر الماء وحوار الماء مع المجرى، وحوار الضفاف، وصدى النبع في المصب؟ يقول لي المطران، من دون أن يقول: لا... كل وصول هو وهم، وكل وهم بالوصول هو نكوص وانتكاس، والمعرفة لا تتجدد، أي لا تكون، إلا بالسفر الدائم وفي السفر الدائم.

"ينبغي أن أسافر، أن أستريح في جنة الرماد... بين أشجارها الخفية" (أدونيس)

هلم، إذن، يا رفيق ولنرتحل معاً هذه الهابّات اللواقح، لنتعارف ونتثاقف، ويكتشف كل ذاته وشرطه في الآخر، أي آخر هذا!!! إنه مكوّن للذات، ومَن كان بلا آخر فهو عدم أو ميت أو سوف يموت غداً، أو ذات موعد حِواري حَواري (الحَوَر هو البياض) والحَوار حجر أبيض. عفواً، مَن لم يكن له آخر يقع من وعيه موقع الضرورة الوجودية والمعرفية، أي مَن لا يحاور آخر في ذاته أو ذاته في آخر، فهو ناقص، متكلس، لا نريد أن نقيم عليه حداً نقول له ويقول له المطران: اذهب وابحث عن ذاتك حتى لا تتلاشى، اندمج حتى لا تذوب، وإلا فلماذا يستحم المتوحد أو الوحيد (والوحيد ليس هو الفريد أي اليتيم)، المتوحد والوحيد هو المنفصل، هو الذي يجد جسده أو روحه أو عقله أو مذهبه أو رأيه اختزالاً للحق والحقيقة. إذاً، فلماذا يتزين أو يتعطر طالما أنه لا يرى إلا بعينه؟

ليبق مَن يستشعر كمالاً أو اكتمالاً لذاته بذاته، ليبق في

منزله الفكري والقيمي، في بيته الديني أو المذهبي أو الحزبي، في كتابه، أو في كهفه، أو في رحم أمه، لأنه ليس بحاجة إلى الآخر، وإن كان الآخر بحاجة إليه... هو ليس بحاجة إلى الشمس، لأن الشمس هي الآخر، هي التي تسطع عليك فتسطع، تشرق عليك فتشرق، فإذا ما غربتَ معها إلى شروق على مكان آخر، على آخر. إذاً، فالآخر، الشمس، هو الذي يفقأ دماملك ليخرج قيحك، هو الذي يغريك ويساعدك على الخلاص من الزوائد في بدنك وعقلك وإيمانك. فيستوي إيمانك عندها باب خلاص، وهل في الإيمان زوائد؟ يقول المطران خضر وأمثاله، بالكلمة والصمت والعلاقة والقطيعة والحوار والسجال، يقول: ليس في الإيمان زوائد، فإذا ما رأيت زائدة في مدّع إيماناً، فقل هذا الإيمان، إيمان ما، ولكنه ليس إيماناً، ولاً تحرمن أحداً من شعوره بنعمة الإيمان، لا تكفر، ولكن قل له: تعال إليّ، تعال إلى ما عندي من حق وحقيقة، لتزيد رصيدك من الحقيقة، تحفظ إيمانك إذن من الفساد، يصبح إيمانك أقرب إلى الإيمان.

وما أصعب أن تكتب عن المطران خضر، تحتاج أن تنساه وينساك لتكتب عنه. فهو أفصح وأبلغ من أي نص تكتبه عنه، وحتى من نص يكتبه. ولو سلمنا جدلاً أنك تناسيته فنسيته، أي نسيت يمينك، فهل ينساك؟ إنه يعشق طلاب المعرفة، أتقياء الدنيا وعرسان الآخرة، الخرفان الضالة، ولا يتوقف عن الحديث عنهم، كأنه راعيهم الذي لم ينصبه

أحد، حتى البطريرك، ولا يتوقف عن الحديث عنهم، حتى في قداسه وزياحه، وكأنه يتحدث عن أولاده وبناته الذين واللواتي تركهن في بيت الحكمة وخيمة الاجتماع، أو الجامع، عطاشى إلى البر يعرفون ولا يعرفون أنهم سوف يشبعون... إلى هذا الحد يصبح الراهب أباً! ويخدش مصداقية الأبوة والبنوة البيولوجية! إنه يكاد يرغبني في محال جميل، وهو أن أستقبل ما استدبرته من حياتي وفعلي، لأعيد تشكيله على مقتضى التحرر من الشواغل الخاصة إلا في حدود الضرورة، أي أن لا أتزوج وأنجب، على حبي لأهلي كما أوصاني رسولي ﷺ وعلمني بالمثال قائلاً: "وأنا خيركم لأهلي"... غير أني، وعلى مثال المطران لا أنشد عقماً، بل أنشد كثرة العيال، وأرى في المطران خضر، الذي له إخوة لم تلدهم أمه، أرى فيه مسلكاً محققاً بالملموس اليومي لكلام الرسول ﷺ: "الخلق كلهم عيال الله"... ولا مرة تخيلت المطران خضر الأرثوذكسي واقفاً على باب الجنة، جنة الله، لا جنة أحد من خلقه، يطرد منها مؤمناً آخر على غير مذهبه، كأنه عاين سعة الجنة التي عرضُها كعرض السموات والأرض، من مذبح بيعة. وأبى عليه ذوقه وقلبه وعقله ولسانه، أن يتخيل جنة الله الرحمن الرحيم، المطلق، في مساحة كنيسة أو جامع أو كنيس أو نادٍ حزبي أو قصر سلطان. وربما رآها بسعة بيت فقير يعمره قلب الله... من هنا، فهو يغضب عليك، لا لإسلامك، بل لإسلاميتك، لتقصيرك أو قصورك في معرفة إسلامك معرفة تقلل من

حضور الله فيه، في الإسلام، وفيك. أما إذا كنت مسيحياً قليل المسيحية، أي موغلاً في مسيحيتك مزايداً فيها على المسيح، فإنه يصبح مريضاً بغضبه وحزنه، منك وعليك... إذاً، فهو طالع من خصوصيته إلى العام الجامع، يعطي نفسه حقاً في نقد الإسلام كما هو متموضع في ثقافة المسلمين وسلوكهم، وهو عائد إلى خصوصيته مظنة للإبداع... ومن هنا شكا لي يوماً، من سيدات بالغن في الكشف حتى ظن أنهن مسيحيات مستمرات في تحميل المسيحية ما لا تتحمل، ثم فوجئ بأنهن شيعيات يقلدن بعض المسيحيات، فتفاقمت مرارته وكاشفهن برأيه... لقد حاورني، استدرجني إلى الحوار عندما كنت في ريعان شبابي، وهو في ريعان نضجه، وكنت أقدم رِجلاً وأؤخر أخرى، أخاف من أن تؤدي الوصلة مع الآخر المختلف إلى قطيعة مع المؤتلف. وفي النهاية كان المطران خضر من أهم مَن ورطوني بالحوار وقيدوني، كما تقيد الحسناء المذواقة معصمها بسوار جميل يزيده بهاء ولا يمنعه، بل يحرره من رتابة الجمال بالتعدد...

منذ ثلاثة عقود، أي على مدى نصف عمري فعلاً، وهذا الرجل يغريني بالحب. وكلما أحببت اكتشفت أن الحب لا يصان إلا بمزيد من الحب، كأنه العلم أو الإيمان، وأنا رجل ضعيف، حريص على ضعفي حتى لا أتورط في شجاعات وبالها أكبر من نفعها. لقد عداني المطران خضر، زاد من فعاليات جينات المحبة في حبري ودمي. ومن هنا أحببته وأحبه، وأحب من يحبه هو، وأحب الذين يحبونه،

ولا أحصيهم عداً، ويحبني ويحب من أحبه ومن يحبني. ونقدم هذا الحب الكوني دليلاً على أن الطرائق إلى الخالق تتعدّد بتعدّد أنفاس الخلق. فليمضِ عنا أهل الفرقة الناجية! كفاهم غروراً وجهلاً يجرهم إلى شراكة الله تعالى في شأنه الحصري... ونقدم هذا الحب نصاً حياً على أنه أعمى البصر والبصيرة من لا يرى الكثرة في عين الوحدة، ولا يرى الوحدة في عين الكثرة... ونتأله... نصل، ثم نقلع في فضاء الحب، حتى لا يتأسن القلب... ويتأنس الدين فنلقي أعيننا في صدورنا، نغض الطرف عن شواردها، وننام ملء العين والعقل. ومن هنا تتسع الرؤية وتضيق العبارة، من هنا أتطلع إلى رفقة المطران خضر، إلى وطن يبدع الحوار ويبدعه الحوار، إلى إيمان إحدى وأهم وسائله الدين، إلى دين يؤثر الإيمان على أشكاله، يؤثر البيت على الطريق إلى البيت ولا يتلف زرع الناس في طريقه إلى البيت... والى عبادة تفضي إلى المعرفة، ومعرفة تزهر عبادة، حتى لا تصبح المعرفة جحوداً، ولا تصبح العبادة تصحيراً للإيمان والتفافاً من العابد على المعبود.

قدمني المطران خضر مرة بقوله: صديقنا العظيم، وأنا أوافق على العظمة التي يراها فيّ المطران خضر، لأنها عظمة مختلفة تماماً عن عظمة العظماء الآخرين. وقررت أن أغالبه لعلي أغلبه، وغلبته إذ قلت: أيقونتنا الحية... وصفق الجميع بالأيدي والعيون والقلوب، مسلمين ومسيحيين، تأميناً على ما قلت...

أيها المطران الجميل، كيف لي أن أبقى شاباً في شيخوختي؟ دلني من أين أتيت، وكيف سلكت، ومن أي نبع شربت والى أين أنت؟ وإذا آن الأين وحان الحين فهل تهدأ، هل تستريح... "أنّى لنا الراحة أو الموت"... يا عزيزي ويا صديقي أين المفر؟

"والطريق يضيق

يدحرج أهواله ويضيق

والطريق مرايا، كتب ومرايا" (أدونيس)

أيها القلب... أيها الأخضر الممعن في البهاء، أيها الأبيض كمنديل أمي، أيها المرآة:

ما أجمل وجهي في وجهك!!!

العلاّمة والعمامة
العلامة خاتمي وانسجام المظهر والجوهر

عمامة خاتمي السوداء الملفوفة بعناية وبساطة، المعتدلة حجماً، الأنيقة شكلاً ولوناً، الثابتة على قلق حضاري، يحتشد داخلها بالأسئلة والأشواق والذكريات. أكثر حداثة من كل الشعور المصبوغة صبغاً بالأبيض والأسود والمسرّحة بعناية مبالغ فيها باهظة الثمن بأيدي المشاهير من المزينين الذي يقصدون في صالوناتهم الفارهة أو يستدعون إلى غرف النوم الوثيرة وهي بالطبع أجمل من كل (الباريهات) المصنوعة من قماش يشبه الحرير شكلاً ومضموناً إذا ما كان المواطن العادي هو الطرف الآخر، وتصبح أنعم من مناديل العذارى إذا ما كان الطرف لآخر عدواً معتدياً. وتحضرني هنا الباريهات التي لم تفارق رؤوس حاكم العراق وظلاله ومروجي ضلاله علوج الأمة، الذين استبدلوا الكوفيات بالباريهات غطاء لعارهم بالعروبة المبرأة إلا من صغائرهم واختبأوا ليستسلموا من بعد. ومن العمة إلى الوجه المزين

بلحية لوحة أو اللحية المزينة بوجه مشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء. إلى ياقة القميص المتماهية شكلاً مع العنق مع طرح رفيق للفائض منها والاقتصار على أجمل الجميل حذراً من الاضطرار إلى ربطة العنق المميزة (سينيه) إيهاماً بحداثة مراوغة تفرغ الكوز من الماء وتشرب الهواء في عز الهجير... إلى الجبة التي تغازل التراب وتجاذبه الكلام والحب من دون أن تنعفه ليمسي غباراً على الحواشي يلوثها وتقتضي النظافة والأناقة والجمال أن ينفض عنها نفضاً أو يغسل غسلاً بالماء والصابون أو المزيلات الأقوى إذا ما تشبعت به الأذيال... أليس ذلك من قبيل الحرص على أن يبقى التراب بما هو تراب الوطن وتراب للقمح والورد والصلاة قيمة قريبة من دون أن يجافيها اللابس والملبوس ومن دون أن يلعب أو يعبث بها؟ إلى العباءة التي لشدة اطمئنانها إلى الكتفين تبدو وكأنها ملتصقة أو ملصوقة بهما، يطيرها الزحام أو الهواء فتنشر أطرافها خيمة لجسد السيد، للجسد السيد وللسيد الجسد، ومدى لروحه الأليفة الرحبة تلامس أطراف الأحبة بأطرافها فيزدهر الحب. أما الألوان فالقاتم على بدن السيد فاتح والفاتح مترع بالوقار... «أرى الإزار على لبنى فأحسده إن الإزار على ما ضم محسود».

وفي ألوان السيد الجميلة المنسجمة إذا اتفقت والمتفجرة

دلالات وظلالاً إذا اختلفت يتجلى جدل الوحدة والتعدد، جدل التوحيد والوحدة، جدل الوطن بحدوده وآفاقه، جدل الإنسان، جدل الدين والدنيا، جدل الثقافة والسياسة، جدل الذات والآخر، جدل الفلسفة والفقه والأدب، جدل الشرق والغرب، جدل الأخلاق والقيادة، جدل الإصلاح والمحافظة، جدل التجديد والتقليد، جدل الأصالة والمعاصرة، جدل الحداثة والسيادة، جدل اللغة والحياة، جدل الذاكرة والحلم، جدل الحرية والضرورة، ويا للهول! لقد انطلت علينا ثنائيات أخذنا متأخرين نكتشف المساحة أو المسافة المتحركة بينها! وشرعنا متأخرين بتدوير الزوايا على موجب الاعتدال أي العدل أي التوسط، أي التسوية أي التوازن أي الحق حتى لا نذهب ثانية ضحايا للإطلاق والتعميم الذي كان ديناً غير الدين مرة وعلماً غير العلم، مرة أخرى.

كانت العمة عنواناً وهي على رأس خاتمي معنون هو عنوانها، كانت قيداً لحاملها على رأسه أو على قلبه فأصبحت على رأس خاتمي خزاناً للحريات، كانت جواباً قاطعاً لا يعتريه القلق في شيء، فأصبحت سؤالاً لا يلبث أن يجد جوابه حتى يستل منه سؤالاً آخر. وكاد الرأس الحاسر أن يختزل المدينة، والمدنية والمدني... إلى أن تفجرت البداوة بين الخصل الممسدة بالعطور الباريسية والسوالف المرسومة بدقة الأوشام واحتدم السؤال من هو المدني في هذا الحشد الهائل؟ أهوذاك البدوي المنشى أم ذلك المعمم المرتب

بتلقائية كتلقائية العطر في الورد والعسل في النحل والإيقاع في غناء البلابل؟ وقال المعمم كلاماً... فما كان من الأفندي إلا أن فغرفاه، وتعرق جبينه، وبدا الذهول في عينيه... من أين وكيف وأنى لهذا الماضي أن يكون راهناً هكذا وأن يكون هكذا يعالج أقفال الغد بمفاتيح من ذهب؟ ومن هو المدني إذن؟ هذا الشكل المصمت أم هذه الوحدة العضوية بين شكل خاتمي ومضمونه؟ المفارقة أن المدنيين اللبنانيين كانوا جميعاً خارج الحشد... كان في الحشد مدني... هو السيد محمد خاتمي. الذي درس في الجامع والجامعة وقضى سنوات في الغرب فرأى... حدق بحيث يرى، ولم يطل التحديق ليعشى... وعاد إلى شرقه مشرقاً واختار الحوار سبيلاً إلى المعرفة الأوفى... وعندما حوصرت ثقافته في وزارة الإرشاد غادرها إلى المكتبة الوطنية... وأتى من المكتبة الوطنية إلى قصر الرئاسة، وسوف يعود من قصر الرئاسة إلى كتبه ودفاتره... ليكتب ما رأى، «وما كذب الفؤاد ما رأى... أفتمارونه على ما يرى؟»... «نون والقلم وما يسطرون... ما أنت بنعمة ربك بمجنون»... لا تعليق... هذه فسحة للكاريكاتير الذي لا أتقنه...

عمامة خاتمي التي افتتحنا بها الكلام لأنها العلامة الأولى التي كانت حمّالة التباسات وأزال خاتمي كثيراً من التباساتها، هي في حجمها أصغر قليلاً من حجمها قبل أن يصل خاتمي إلى سدة الرئاسة، ومعلوم لدى المراقبين عن

كثب لحياة رجال الدين أن لف العمامة أمر لا يتقنه الجميع منهم، وذلك يشكل هماًثقيلاً لعدد منهم خاصة أولئك الذين تبدو في تكوينهم مسحة فنية أو أدبية تجعل قدرتهم على الصبر قليلة، ولكن الإيرانيين اخترعوا طريقة للف العمامة أبسط، وأحياناً تبدو معها العمة أجمل ومن دون تعقيد... وخلال دقائق معدودة وأثناء حديثه مع الآخرين يضع بعض الإيرانيين قطعة القماش على رأسه ويلفها ببساطة لا يدركها إلا العارفون ببواطن الأمور... وهيهات للعربي أن يعرف ببواطن الأمور الإيرانية، وهيهات للإيراني أن يستوعب هذه العفوية المفرطة من العربي، أما الكارثة فهي أن يحاول العربي أن يقلد الإيراني في الفصل أي الوصل بين الظاهر والباطن... ولا أدري حقاً ما إذا كان ذلك فصلاً أو وصلاً، ولكنه خصيصة غير قابلة للنقل والانتقال... فلا بد من الانتباه...

أما عن الأوان والسلوك فالمعروف عن الإمام الخميني أنه لم يكن يقابل أحداً قبل النظر إلى وجهه وهندامه في المرآة... وأنه مع إصراره على عدم وضع قدميه في الجورب داخل المنزل فما من أحد ادعى أنه رأى قدميه عاريتين... وعلى شدة عنايته بالأوراد والتسبيح لم يدع أحد أنه سبّح جهراً أو إخفاتاً أثناء جلوسه مع الآخرين وأنه كان شديد العناية باختيار ألوان ملابسه وشديد الحرص على زهوها ولو بعد عشرين عاماً من ارتدائها. أما بساطة طعامه فهي مضرب المثل، نوع واحد دائماً مع حرص على قلة

الدسم وقليل من البقول الخضراء (الريحان) خاصة وحبات من الفستق الحلبي، وقيل بأن مؤونته اليومية مع عقيلته لم تزد قبل الثورة وبعدها عن دولار واحد وبصرف النظر عن سعر الصرف المتبدل... أما والد السيد خاتمي واسمه روح الله خاتمي وكان من أحباب الإمام الخميني فإنه كان ضئيل الجسم رقيقاً حنوناً أليفاً باسماً عالماً ودوداً شفافاً بحيث ترى ما في قلبه. وكان إذا ما وافانا ليترأس جلسات أحد المؤتمرات أشعرنا بوجود آبائنا... إذن فلنبحث دائماً عن خارطة الجينات ولنقرأها بإمعان لنفهم. في النهاية يطرح خاتمي علينا سؤالاً مطروحاً سياسة ثقافة أم ثقافة سياسة؟ أنا أميل إلى الثاني بشرط عدم تبادل المواقع، وسوف تكون كارثة أن ينتقل المثقف إلى موقع السياسي الحرفي ويكون خراب في الاجتماع والعمران والفكر... والكارثة الأعظم أن يستسهل السياسي الثقافة لأنها تصبح تفاهة وإعاقة... ويمكن التوفيق بالاعتدال والإقرار أن هناك حقلين يختلفان في أواليات حراكهما ويتكاملان في النتيجة.

ختاماً لا بد من تذكير اللبنانيين والعرب بأن المسؤولين اللبنانيين والعرب لم يجر على لسان أحد منهم ولا مرة ذكر المجتمع المدني في حين أن رجل الدين محمد خاتمي هو الحامل الأول لمشروع المجتمع المدني في دولة دينية!!!

غسان تويني.. القامة القيمة
أو لبنان الذي يسهر في النهار

أنا على شاطئ غسان تويني أنزع يراعي من قرابه، وأكشف بياض أوراقي للسواد. أتخفف من شؤوني الجزئية، وأستعدّ لمعاقرة المياه الغسانية المتدفقة من دون انقطاع في نهر "النهار" منذ النهار الأول لجبران الأول في صحيفة لبنان الأولى..

لا أبالغ في غسان تويني، وأحاول أن أحبّه أكثر مما أكتب فيه أو عنه، لا أبالغ، إذا ما اخترت له المحيط نعتاً، يشبه المحيط، أو يشبهه المحيط سعة وأعماقاً، تفصل بينها وتصل، تضاريس من المعرفة، بدءاً من الفلسفة التي تعلّمها أو مارسها عملاً، وانتهاءً بالشعر الذي هو فلسفة أخرى جميلة، ولجمالها لا يتعلّمها أحد، بل تأتي من الشاعر كما يأتي المطر من السماء والعطر من الورد والعسل من النحل والقصائد من ناديا تويني.. وتأتي من شاعر آخر، يتقن قراءة الشاعر والشعر، ويتحوّل إلى مربٍ للشعر والشاعر، إلى راعٍ لخراف الشعر الضالة الوديعة تسرح وتمرح في بيت النهار

لتضيء النهار بالنهار.. إذاً.. فغسان تويني قال الشعر في قول ناديا تويني لأنه أتاحه، أي انه لم تغره سلطة ذكورية غاصبة، بمحو ناديا الشاعرة لأنها زوجة، بل ربما كان أحد شياطين شعرها، كما لم تغره السلطة السلطة، نائباً ووزيراً، بالبسمة الصفراء للشعر والشاعر مع التفكير العميق أو السطحي بضرورة تهميشه وقتله بكلماته.. ولعله كان يشرع أبواب قلبه وعقله ومنزله لشياطين الشعر، يقدم لهم بيده كؤوس الشاي وفناجين القهوة وغيرها، فيسهرون حتى الفجر يدرّبون ناديا على قول القصيدة، التي تولد مع نسمة الفجر الأولى. وتنتظره ناديا ريثما يعود بعيد الفجر، وقد صدرت "النهار"، وقرأ افتتاحيته فيها للمرة العاشرة، وكأنه لم يكتبها، ولم يقرأها من قبل! تماماً كما تحدق الأم الرؤوم بعيني رضيعها في كل رضعة مراراً وكأنها قد ولدته لتوها. مع فارق أن رضيع غسان تويني، افتتاحيته، تولد دائماً وأسنانها مكتملة ولا ترضع.. بل تأكل الشر كما تأكل النار الهشيم. ويدخن لفافته بنهم إضافي، يفطر عليها في أول النهار الذي يساوي عدداً جديداً من "النهار"، حتى لبإمكانك أن تسأل غسان تويني كم نهاراً عشت؟ أي كم "نهاراً" أصدرت أو قرأت؟.

غسان تويني يدخن اللفافة الأولى حتى لا يدخن الثانية على الريق، ويشتغل على العدد الأخير من "النهار"، وكأنه يشتغل على العدد الأول. كل عدد من أعداد "النهار" هو العدد الأول عند غسان..

قلت: إنه محيط، أليست هذه التناقضات الجميلة، أو

الحالات التي تشبه التناقض في ظاهرها، وهي محكومة بنسيج داخلي يطابق بين مكوناتها، أليست علامات على السعة والعمق والتعدّد في الواحد؟ وإلا فمن أين لغسان تويني أن لا يشيخ؟ يشيب ولا يشيخ، لا هو يشيخ بذاته ولا يشيخ فينا، وكلما تقدّم به العمر وتقدّم عمرنا فيه وتقدّم بنا وفينا، كان عليه أن يصبح أكثر وقاراً ونسياناً وصمتاً وكسلاً ونوماً، ونصبح أكثر حكمة في التعامل معه، أي نوقره أكثر ونجامله أكثر، ونبكّل أزرار قميصه كلما أتى إلى حفلة لتكريمه ناسياً أن يبكلها، لأنه مشغول بفكرة جديدة وجملة جديدة، وأيقونة قديمة.

ولكنه كأي فتى فتي ينشد الوقار في الحوار وفي التحرر من فواصل الأجيال، ويضحك قبل النكتة والمفارقة كأنه يستعدّ لهما، ويعدهما.. ويحب ذكر مساخر الحكام، لأنه ليس مفتوناً بالسلطة، وعندما يقاربها تفارقه كأنها تعرفه، بل لقد عرفته على حقيقته وأنه يدخل فيها ليحكمها، فإن كابرت طلقها، وآثر الثورة الدستورية عليها، وعندما ارتاب من أعراض السلطة في الحزب خاف من الشيخوخة المبكرة، فآثر القومية السورية على حزبها، إلى عروبة غير متورمة، صافية من دون أوهام ألمانية، تستمد من (غسان) نسغها، وتضرب في أرض أذرعات جذورها، ولا تتصحر أو تتحجّر في عقيدة عقدة.. وعلى لبنانية تأتي من التعدد إلى الوحدة، ومن الوحدة إلى التعدد، ومن الذاكرة إلى الرؤية ومن الرؤية إلى الحلم، تشتهي الحرية وتحلم بالديموقراطية. وتشرب

قهوة الصباح على شرفة النهار، على تباشير الشروق اللبناني في الشرق العربي، باحثاً عن طريق إلى الحداثة، تمرّ بالأرض ومحمولاتها، لتعبر المحيط ملتبساً بيوحنا الدمشقي، يقول للدنيا كلاماً توحيدياً عن ضرورة المشاركة الحضارية والثقافية والتنموية، التي لا ينسى أن لها شروطاً ذاتية، من دون تحقيقها يبقى العرب أرقاء لا يتحررون، وإن حرّرهم مالكو حكامهم وثرواتهم ورقابهم، شأن العم توم الأسود الأميركي بعد مفصل العظيم لنكولن في التحرير. ويبقون - العرب - أسرى الماضي الذي يأسرونه لأنهم يستقبلونه بدل أن يعصروه بينما يمضي المستقبل في غير وجهتهم لأنهم يستدبرونه ولا يبادرونه أو يباشرونه، إلا بالسذاجات والعنتريات وهو الحاشد بالأسئلة الصعبة والتحديات.

وأعود إلى غسان تويني، الذي ترك الحزب وتركه الحزب كما قال.. فهل هذه شهادة له على الحزب أو للحزب؟ أو شهادة للحزب له أو عليه؟ نترك الجواب للأحزاب التي تكاد تكون في سيرتها دليلاً عملياً على بطلان نظرية داروين في النشوء والارتقاء وبقاء الأصلح، مع محبتي لكل الحزبيين والقوميين السوريين، فرداً فرداً، إلا الأفراد الحزبيين الذين لا يحبونهم.. هم..

وأراه مستقيلاً من الوزارة لأنه مستقل، ولأن الحرية هي العقار الذي ورثه وأحسن زراعته وسقايته، وهي العقار الذي داوى به صداعه وأدواءه وجدّد شبابه، واقترحه لنا وللبنان علاجاً ووقاية ومنشطاً لكل المواهب وغرائز الخير والعمران.

واكتشف أساساً أنه مورث موفور في الجينات اللبنانية لولا أن أطباء السوء الذين يحنثون بقسم أبقراط، واليمين الدستورية، يخففون من فعاليته، ويحدون من انتقاله من المجتمع إلى الدولة، بالكورتيزون والأفيون، ويعالجه المستبدون الصغار بأدوات منع الحمل خوفاً من إخصابه لأن أولاده الأحرار إذا ما تكاثروا فإنهم سوف يتحوّلون إلى وباء من الحرية.. ولذلك يدبرون للبنان حرباً بعد حرب، يقيمون نظاماً للخدمات الداخلية، بأدوات وقرارات خارجية، ويحوّلون سلم لبنان إلى حرب حتى لا يلد، حتى لا يكتشف أسباب العقم، حتى لا يكتب رسالته إلى العالم. رسالة المختلف المؤتلف.

لمثلي أن يقترف النقلة من المياه الضحلة، من البرك، أو من محاذاة الشواطئ إلى وسط الموج أو أعاليه، في أعالي البحر المتوسط، شرفة الحضارة التفاعلية، التي كانت والتي لا بد أن تأتي... وعليه أو عليّ أن أحاذر، وأن استعدّ للطفو أو للعوم طوف نجاة، أو أن لا أنفرد سابحاً حتى يتاح لصحبي من مكرّمي غسان تويني، وفي مقدمتهم السيدة سعاد الصباح، صبيحة الوجه واللسان والقلب، أن يخلصوني من غرق محتمل وأكيد، لدى هياج البحر.. لدى غضب غسان وتدفّقه كلاماً كلاماً، كلاماً حقاً في حضرة حكام أو مثقفين أو زعماء أو شعراء أو فنانين أو صحافيين باطلين مبطلين.. أما أن أقترف القول في غسان تويني، فهي ذات المخاطرة وعين المغامرة، لأن غسان تويني هائج من أول الماء إلى آخر الماء وفي كل المواسم والفصول، لأنه لا يرى إلا

تراجعاً وهبوطاً، وكأن مثاله قد مضى. كأنه يحدث نفسه بإدانة شراكته في الثورة الدستورية، احتجاجاً على فساد العهد الذي لا يُقاس عليه فساد العهود التالية.. ولا يغرينك هدوؤه الخدّاع، فغسان تويني دهري وباطني جداً، ومن هنا إعجابه وحبّه لكمال جنبلاط على خلافه أو اختلافه عنه. إنه يعمد إلى الصمت أحياناً فيكون أبلغ وأشدّ إيلاماً.. والأصوات الجهيرة كثيراً ما تتبدّد على مشارف الآذان المسدودة بالأصابع.. ولا يصعّر الحكيم خدّه للناس، ولا يمشي في الأرض مرحاً، لأنه يعرف أنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً.. والمتواضع، المنكر لذاته كأنه لا يعرفها، المترفع، غير الوضيع، الرفيع ذو الرفعة، لا المستكبر كالدخان ولا المستعلي كالغبار، هو الذي يسامت الجبال علواً، أو تنزل اليه الجبال لينالها من سموّه في ذاته سموّ.. فإذا ما كانت جبالاً جبالاً، أعلاماً أوتاداً، سمت وتسامت، أما إذا كانت أخيلة أو أشباحاً أو أوهاماً، أو كان أحد قد دفعها خلسة، دفعاً إلى أعلى، إلى مقام سلطاني، في الدولة أو الجريدة، عيَّنها، فإن ذراها لا بد أن تبقى ناكسة منكوسة وصاغرة أمام من دفعها ولم يرفعها. هكذا أقدّم اعتذاري عن عدم دراسة غسان تويني ببرودة أكاديمية، لأني لا أملك أن أقول عنه وفيه إلا بأعصابي، ولأنه عصب من أعصابنا. ولأني عندما قرأته مجموعاً أو مجتمعاً بعدما قرأته متفرقاً، في مشاهد متكررة، منذ بداية وعيي، كان كل سطر من سطوره ينسيني الذي قبله. وكوني مكلفاً أو متكلفاً بتحضير ماعون من

قمحه خبزاً، ومن أوراقه كلاماً، جعلني أعيش أسابيع في كنف بيدر حاشد بالحنطة السمراء اللماعة كذهب عتيق، تأخذ بالعين وتستدر اللعاب وتعقد على الجائع الذواق مسألة اختيار الصنف الذي يتناوله.

لم يكن بإمكاني أن أهمل سراً من أسرار المهنة وغيرها، لأنها كلها تضج بالإغراء.. إذاً، اكتبه كله، وهو مكتوب!!

إذاً، أكتبه في غير ما كتب، أكتبه فيّ، في داخلي ومن داخلي، في عنايته بما أقول ودهشته التي تدهشني بما أقول.. حنوه وعنايته بي أغرياني بالشعور بالامتلاء، كاد أن يورطني في الغرور، ولكنه ورّطني بالمسؤولية عما أفكر وأكتب وأعمل. هذا المدني الذي ولدت فيه المدينة عندما ولد فيها، هذا المؤمن الذي يشاغب على المعبود والعباد والعبيد.. ويقارع الأديان بمقدار ما يحبها ويلتزم بروحها قبل كلام رجالها، يمسح الفارق بين إسلامي ومسيحيته، بين شيعيتي وأرثوذكسيته، بين عمره وعمري، بين ريفيّتي وبورجوازيته، بين قريتي ومدينته، بين صحيفته اليومية وكتبي التراثية، بين جبّتي وبذلته الباريسية، بين عمامتي ورأسه الحاسر الذي تظلله من الشمس والكفر طابية المطران جورج خضر، ليبدو لك وكأنه نيتشه لبنان في "هكذا تكلم زرادشت"، إيماناً ملتبساً بالكفر، وكفراً ملتبساً بالإيمان، وإبداعاً في الحالين، وإن كان في إيمانه مؤمناً.. ونقطة على السطر.. أما في كفره فهو أقرب إلى الإيمان، الذي يأتيه من باب آخر.. من ثقب الجدار الخلفي في الكنيسة، حيث يعبر المذبح ورتبة دفن

المسيح، إلى صخرة المعراج في بيت المقدس.. فإذا يسوع الملك هو المشترك البهيّ، الذي يدلّه على الرسول العربي، فيمضي إلى حيث تشير اصبع المسيح ولا يقف بعينه وقلبه على الاصبع التي يقف المحدودون نظرهم عليها، فلا يرون إلا قليلاً. يمضي غسان من المسيح بن مريم إلى محمد بن عبد الله، عربياً طافحاً بالمعنى، يقول التوحيد والوحدة على طريقته، يقبّل يد رجل دين مسلم جهاراً في الكنيسة، فينفض الديك الأزرق في رائعة النهار ريشه، ويصفق جناحيه، ويشرئب عنقه وعرفه ويصيح، تحية لغسان الواحد المتكثر والكثير المتوحد، كأنه لغز.. هو لغز ولكن من يحل اللغز؟ من يحزره؟ يحزره البسطاء الذين يريدون وطناً ودولة ويحبون الحرية وتحبهم الديموقراطية. يحبه المبدعون في السياسة والفن والصحافة والدبلوماسية والعناد في الحق حتى الشهادة. ألم يستشهد غسان تويني في جبران تويني مرتين!! أوليست "النهار" شهادة يومية للحق والحقيقة ولبنان الآتي الذي لم يأتِ!!!

ورث جبران الأول ولم يبذره، شأن الراشدين لا شأن السفهاء. أضاف إليه ولم يعش عليه، وقرر أن لا يورث جبرانه إلا وجع الحرف وحساسية الحرية، والقول بالحق وإن قلّ أنصاره. حرمه من الوراثة السياسية، ولم يمنعه من الاستحقاق، لأن السياسة والسلطة، نيابة ووزارة، لم تملك غسان تويني، وهو لم يعتبرها مرة من ممتلكاته. كان يرى نفسه أجيراً للناس، للوطن والمواطن. كان ولا يزال ضدها،

أو الموازي الجميل المكمل لها أو الناقض، وكانت مشاعاً له، لم يسجلها على اسمه في الدوائر العقارية أو بيت المذهب، وهو إن دخل فيها، ازداد قهره منها وقهره لها، كأنها ضرّته التي لا فكاك لها منه ولا فكاك له منها، كأنها نقيضه الذي لا يكون إلا به!!!

جبران الابن الصحافي الشهيد، انتقل من وراثة الحبر الأسود الذي يشعّ بياضاً إلى اجتراح النيابة في لحظة شائكة وواعدة. ذهب الوعد الخاص مع الجسد، وصار جبران شهيداً، وعداً للبنان، لأن دم الشهيد كالنار الهادئة لا تخبو، هكذا يقول التاريخ. من أول الشهداء إلى آخرهم، ولا بد للشهادة أن تصبح شهوداً، قد يتأخر في موعده ولكنه يأتي.. والزبد يذهب جفاء، وما ينفع الناس يمكث في الأرض.. لقد انتهينا مع آل تويني إلى مفارقة غريبة، هي واحدة من مفارقاتهم الكثيرة، فغسان الوالد يرث جبران الابن، الشاهد يرث الشهيد.. ولطالما قال اللبنانيون عن كثير من النواب، نواب الأنابيب، بأن المقعد أكبر منهم، أما غسان فالمقعد أصغر منه بكثير.. وأصغر من "النهار"، برلمان غسان تويني الذي يقوم على نسبية الإبداع في الإدارة والصحافة.

لقد كان بهياً غسان تويني وتقياً عندما توشح وجهه بحزن الثكل المتكرر في يوم جبران تويني، مزيناً بورد الصبر وعسل الكلام، حتى كاد الحزن أن يكون فرحاً، لولا مكان جبران في القلوب..

"يا كوكباً ما كان أقصر عمره وكذا تكون كواكب الأسحار"

(من قصيدة لأبي الحسن التهامي في رثاء ولده)

والمفارقة من مفارقات غسان تويني، انه دخل على حشد المعزين وهم يحشدون دموعهم في مآقيهم في انتظار دمعته الأولى التي لم يذرفها، وذرف بدلها بسمته الأولى، لتهطل البسمات من شفتيه فتصيب الجميع بالرضا الذي لم يكن بإمكانه أن يجتث الحزن من العيون التي غرغرت بالدمع غرغرة أبعد وقعاً وأشدّ لذعاً.. ومن لم تعقد لسانه مفاجأة غسان تويني الجميع بالصمت البليغ، أدار وجهه عنه وأسبل دمعه.. في حين كان غسان يتعالى ويعلو على الجرح.. ويقف سمحاً رحباً عميقاً كالبحر.. ولا أقول المحيط، لأنه مظنة الضياع والتيه، أما البحر فهو مكان متعين لرواده. وقرب الضفاف بعضها من بعض، ولو نسبياً، يبعث على الاطمئنان النسبي، ويوسع مدى الرؤية من دون أن يتركها سائبة لا ترسو على حال.. ويعدك البحر بالآخر في الضفة الأخرى اكتمالاً لذاتك بالآخر والآخر بذاتك.

بوركت يا بحرنا المتوسط، الوسطي بما هو الوسط مضارع للحق، فإذا ما عدا على الحق عاد، نبتت مخالب الحق في يراعتك.. بورك ماؤك المالح محلى بحبرك العذب. بوركت أعماقك التي يكتشف الواحد منا، في آخر موسم السباحة والغوص، أنها أكثر أماناً من المستنقعات الضحلة.. بورك موجك المتجدد، يحمينا من الركود والتكرار والطمأنينة

الكسلى، ويمدّنا بقلق السؤال ولغة الاعتراض. بوركت طحالبك التي تضارع السرو استقامة والأرز ثباتاً والورد ضوعاً.. بوركت أسماكك التي تخلقت بأخلاقك فلا يأكل كبيرها صغيرها.. ولا مكان فيها لسمك القرش والحيتان وأهل الكروش والرقاب الغليظة. بورك شطّك منتزهاً للأحبة، ومطلاً للشعراء والفنانين، وملتقى لصيادي اللؤلؤ، ومدى للمشي والتخفف من الدهون في شرايين الوطن والتحديق في الأفق انتظاراً للآتي.. لبنان الآتي، الذي دوماً يأتي، ولا يراه إلا أهل البصيرة، وإن غاب فلا يغيب إلا قسراً، يوماً أو يومين، ثم يأتي وإن لم يأتِ ذهبنا اليه، لنخلصه من شدق التنين. فإن أكلنا التنين كان لنا من جبران مثال وأمثولة ومن الديك الأزرق الصائح كل صباح بصوت جبران الذي يعلم العناد في الحق والمداومة على الحقيقة..

يا غسان.. يا ريّس، لا تصلح قلوعك، قلوعك كان صالحاً منذ اختار جبران الأول الحرية لنهاره ميثاقاً.. وأشرع أشرعته لرياح اللغة التي تحيي وتميت، تحيي الورد وتقتل الشوك الوغد.

لقد قرأت قديم غسان تويني فلم أجده أقل جدة من جديده، وقرأت جديده فلم أجده أقل عراقة من قديمه.. كأنه حبر مقطّر.. أو كلام مثلث أي مقطر ثلاثاً، قليله يسكر وكثيره حلال.. وبين السكرة والصحوة يدهمك غسان تويني بظرف وخفة دم لا تشيخ.. هي لسعة نحل أشد إيلاماً من لسبة عقرب، أو لسبة عقرب أشهى من ثغر الحبيب والعسل الملكي.

غسان تويني.. هذا الشمروخ المصقول كرخامة خضراء على باب كنيسة بيزنطية. هذا الطقس الغريغوري المموسق من دون صنوج. هذا الكهل في إهاب دهري. هذا الختيار الفرحان بكتاب القراءة العربية في الصف التمهيدي (درج عرج). هذا القومي بما تعني القيامة. هذا المولع بالسواد على البياض. هذا المولود بلبنان المهموم بالعرب.. هذا الحنظل المجبول بالشمس في مضارب الغساسنة. هذه السجادة الشيرازية المحبوكة بأيدي العذارى والمعلقة في صدر "عالي قابو" في أصفهان.. هذه اللوحة المرسومة على إيقاع كنسيات باخ، ومقامات زرياب، وبفحم من سنديانات جبران خليل جبران.. هذا الفصل من الفلسفة اللبنانية، يمشي على أرض لبنان ويرسم جمهورية جبران وغسان وجبران وسمير قصير وموسى الصدر وعبد الله العلايلي وشكيب أرسلان وميشال شيحا وغريغوريوس الحجار. هذه اللغة العربية التي تشرب من نبع الأنجيل وتتوضأ بماء القرآن وتسقي ورد "النهار" من نهج البلاغة وتعطر مكاتبها بشعر المتنبي.. هذا الشاهد الذي يمسي في الجلجلة ويصبح في كربلاء.. يتدثر بآلام السيد المسيح ويتوسد شهادة الحسين. ويبحث عن لبنان طالعاً من الشهادة إلى الشهود.. ومن الفرادة إلى العروبة، مصدراً من مصادر النكهة في طعمها والبهاء في لونها والحيوية في حركتها والإنسانية في غايتها.

هذا الذي نكتبه لأنه يكتبنا.. ماذا يقول؟ ماذا نختار من قوله؟ وفي أمثالنا الشعبية، أن كثرة القمح تعمي قلب

الدجاج.. قلت هذا الكلام مرة في كمال جنبلاط.. وأقوله الآن في غسان تويني، مختاراً بعضاً من قمحه دليلاً على دعواي فيه..

إذا صحّ القول بأن الكلمة تكون مقاتلة أو مخاتلة، فإن المهارة والعمق والشجاعة هي ضمانة توجيه الحبر والكلمة إلى كبد الحقيقة، أي إلى الباطل.

هذه الصفات كان يملكها غسان تويني وبذلك فهو لا يستعيرها الآن بحكم ميل الشيخوخة إلى المصارحة لأن الخوف يكون قد تراجع بعد طول العمر.. وهذه علامات على ذلك:

"وكانت (الكواكب) قد نشرت وقتها - كانون الأول، ديسمبر ١٩٤٧، يوم وفاة والده جبران تويني ودفنه - بتوقيت لا أزال أحسّ بمرارته، حديثاً لأنطون سعاده يردّ به على انسحابي من الحزب، مع فريق من الرفاق المفكرين، بالإعلان عن أن طردي كان قد سبق انسحابي، ولأسباب غير سياسية ولا فكرية!".. من الذي خسر بالطرد، الحزب السوري القومي الاجتماعي أم غسان تويني؟ لو أن أحزابنا العربية كلها لم تضق ذرعاً بمفكريها وتعالج الفكر بالطرد أو المصادرة أو التهميش، هل كانت وصلت إلى هذه الدرجة من التراجع والفشل والفراغ (ص ٢٠).

ويتحدث في صفحة ٢٢ من "أسرار المهنة" عن اغتيال ولدي خليل درويش أحد أهم موزعي الصحف والذي لم

يعترف هو وأولاده بتقسيم بيروت من بداية الحرب عام ٧٥ وظلّ يحمّل أولاده صحف بيروت إلى المنطقة التي سمّوها شرقية. يقول غسان: "ذنبه في زمن القتل على الهوية، أنه كان شيعياً ظنّ أنه رغم ذلك في وسعه الاستمرار في توزيع الصحف وبيعها في منطقة المتن". ويضيف: "كل ذلك و"النهار" هي الاستثناء، وقل الشواذ، تستمر تعاند في مقاومة التقسيم في أشكاله وتصدر صحيفة للتوزيع في كل لبنان".

وعندما يتحدث عن رفاقه في "النهار" وكأنهم أولاده، يصل الوالد الثاكل إلى القول: "سامح الله الحرب، يقولون، لا.. الله لا يسامح" (ص ٢٥).

عن "النهار" والصحافة مع أول رقابة مفروضة يقول:

"في كانون الأول - ديسمبر ١٩٧٦، بعيد تأليف حكومة الرئيس سركيس الأولى، توقفت "النهار" بسبب انتشار العناصر السورية في المكاتب والمطابع، واستمر الأمر هكذا حتى توجه نائب رئيس الحكومة الأستاذ فؤاد بطرس إلى دمشق، وعاد منها بالمرسوم الاشتراعي رقم واحد الذي أقام الرقابة على الصحف" (ص ٢٨).

وعن هوية "النهار" النهارية يقول عنها: "مأساة "النهار" في كونها الصحيفة الوحيدة غير المنتسبة إلى أي فريق محارب في لبنان، ليس في آرائها فحسب، بل أيضاً في أرضيتها (لا هي شرقية ولا غربية) وخصوصاً في تكوينها

المعني، فهي عاجزة عن الاستمرار إذا انقسم لبنان" (ص ٣٠).

مع الأخطاء الاستراتيجية يعود إلى مبادئه الأصلية يقول معلقاً على دعوة الرئيس كميل شمعون عام ١٩٥٨ الأسطول السادس الأميركي إلى لبنان: ".. ولا نخال كميل شمعون يمكن أن يجهل أن الجيوش، حتى تلك التي تأتي محررة، تتحول مع الوقت إلى جيوش احتلال، فكيف بالجيوش التي يدعوها الحكام لغرض لا يؤمن به الشعب؟" (ص ٤٣).

ومن كلامه القديم الجديد وعن لبنان عام ١٩٥٨ : "إن أحداث العالم العربي الأخيرة وأحداث لبنان، فضلاً عن تصرفات بعض الزعماء المسلمين، وبعض رجالهم، قد سهّلت للنظرة "الصليبية" مهمتها، وإن ما لا بد منه - هو أن واجب المسيحيين تجاه الحفاظ على الكيان اللبناني، كياناً مسلماً مسيحياً، أعظم من واجب المسلمين، لأن مصلحتهم به أكبر من مصلحة المسلمين" (ص ٤٣).

كيف يفهم غسان تويني الدستور؟ يفهمه كمواطن وكمثقف يرى القانون أو الدستور صياغة متواضعاً عليها لمعطيات في الواقع المعيش، أي أنه بنيان حقوقي وليس أساساً، أي أنه يكشف بعدما يكتشف ولا يبتدع، لا يخلق، لذلك فهو بحاجة إلى فهم وإنجاز دائم من خلال تنزيله على الواقع لا تنزيل الواقع عليه. يقول في ص ٤٣٥ : "أوليس الدستور حياة؟ ومتى كان الدستور حرفاً ميتاً وعظاماً بلا لحم وشرايين، بلا دم؟ الدستور هو الحكم الدستوري والممارسة

الديموقراطية والتعامل الحرّ المسؤول، وشرط استقامته حوار الرئيس والشعب حوار الحاكم مع من يمثل..".

مبكراً وعام ١٩٨٣، هذه السنة الصعبة، وصف غسان للبنانيين دواء ناجعاً، لم يلبثوا أن عادوا اليه بعدما تراكمت الخسائر وما زالوا مترددين. يقول عن المصالحة التي دعا اليها: "ليست لقاءً بين الزعماء والزعامات، أو الأحزاب والفاعليات والميليشيات، ولا هي الدعوة التقليدية إلى وحدة صفوف واهية "وراء الحكم".. إنما هي مصالحة الحكم مع المواطنين، كل المواطنين، في سبيل بناء الدولة الوطنية الجديدة. أما لماذا يتصالح اللبنانيون، بعضهم مع البعض ومع الدولة، فقصة طويلة لعل أولها وآخرها أنهم بالفعل لا يتقاتلون، ولم يتقاتلوا، إلا حيث كان الحكم غير لبناني، أو حيث هو الحكم اليوم لغير لبنان» (ص ٤٤٦). ويضيف بأن الشرط هو "دولة منيعة ضد الخارج، في الخارج والداخل، ومنيعة ضد الداخل إذا خرج عليها".

ويصرخ بملء فمنا: "لا تحرر ولا تحرير من دون ميثاق وطني". والى أحد الرؤساء يقول في ٨/ ٢/ ١٩٩٠: "ماذا تفعل؟ تلعنهم جميعاً.. وتحاول أن تخرج من النار حتى تنقذ لوطنك بقية من أرض وحياة، وحتى لا تكفر بالحرية والسيادة من فرط حاجتك إلى الخبز والماء.. محك الحكم في الحرب، كما في كل سياسة، هو القدرة على منع الحريق" (ص ٤٥٣).

في ص ٤٥٥ يقول عن معشوقته الحرية: "وحده لبنان، قبل حروبه، كان لا يخاف الحرية بل يعشقها، ويجب أن نعلم أن للحرية كذلك تاريخها المقبل، وتاريخها حساب عسير..".

وعن ثقافة الديموقراطية أو الديموقراطية الثقافية.. ناظراً بعيداً وعميقاً وبعيداً عن الاختزالات الارسطية للمفاهيم الكبيرة والرحبة. يقول بعد أن وصف مباراة المرشحين للرئاسة الفرنسية في المجالات الفكرية، كتابة ومعرفة بالكتاب والكتب ونقاشاً في محتوياتها: "أوتلك ثقافة فقط؟ لا.. تلك هي الديموقراطية التي لا استقامة لها خارج الإطار الثقافي والخلق الفكري، الذي هو منظار المستقبل للذين ينظرون دائماً إلى المستقبل" (ص ٤٥٦).

في حديثه عن لقائه لأول مرة برئيس عربي (حسني الزعيم) عام ١٩٤٩ يقول: "عزائي أنني لم أكن فريداً بين الذين ظنوا أن العسكر هم الجواب على التحدي (يقصد تحدّي النكسة عام ١٩٤٨) والدواء الشافي للديموقراطية التي كانت قد اهترأت قبل أن تنضج!" يقصد تلك الجرعات الخفيفة من الديموقراطية العربية قبل الانقلابات.

ولماذا هذه الشدة في المعارضة، لماذا هذا المرض في الاعتراض والذي هو أشد عافية من العافية؟ يجيب غسان تويني "مشكلة "النهار" المزمنة مع الأنظمة العربية أنها كانت قد صارت معارضة بالسليقة" (ص ٤٦٣).

عن الرئيس حافظ الأسد يقول الكبير كلاماً كبيراً من دون أن يكون تابعاً صغيراً ولا كبيراً إذا كان في التابعين كبار علماً أن العلّة هي في التابع أيضاً وأولاً لا المتبوع وحده. يقول غسان تويني: "يصعب كثيراً على صحافي أن يكوّن موقفاً صحافياً محصناً من شخصية في قوة شخصية الرئيس الأسد وحضوره السياسي". وكان قد ذكر أن الرئيس الأسد كان يكرّر معه الحديث والسؤال عن الحزب السوري القومي فيقول غسان معقباً: "كأنني لا أزال في الحزب وقد تركته وتركني.. أو كأن له بالحزب شغفاً منسياً" لم يرد غسان أن يقول بأن الرئيس الأسد كان مهتماً بالحزب السوري القومي الذي انتشر أكثر من غيره في الجبل وفي القرداحة خصوصاً وكان من قيادته الكبرى في سوريا رجال من آل خير بك العائلة الأهم في القرداحة (ص ٤٦٥).

مع عبد الناصر وهل عرفه شخصياً؟ "نعم ولكن ليس بالمقدار الذي كنت أتمنى، غصة في قلبي، مع أني أحترمه ولا أحبه، وقد بدأت بحبه وانتهيت باحترامه مع ما يشبه الغضب".

ويذكر أنه كان فخوراً به كعربي في باندونغ على معارضته له "لأنه كان الأكثر حضوراً.. على معارضتي له كلبناني". ويذكر أنه كان حريصاً على قراءة "النهار" حتى عندما أصبحت ضده.. ويذكر أنه في باندونغ سأل الصحافيين المرافقين للرئيس ناصر: مصطفى وعلي أمين وهيكل كيف يغطون الحدث، فقال أحدهم: إحنا يا أخي جابنا معاه كده،

للزينة كاللعبة، للتغطية؟ أهي ماشية وحديها!" وعن شهامته العربية في التعامل مع المفاصل وعبد الناصر يقول: "وقد بكينا جميعاً في قاعة التحرير في "النهار" ونحن نشاهده يستقيل على شاشة التلفزيون.. ولا شماتة". ويعقب بسؤال مطلوب من كل منا الجواب عليه: "هل نحن بعد الحكم الاستعماري أفضل أم أسوأ مما كنا، قبل الثورات والانقلابات، ومما كان يمكن أن نكون عليه لو لم تحدث الانقلابات والثورات؟". (ص ٤٦٩-٤٧٠).

مصرّاً على الدقّة والصدقية وكأنه عالم من علماء الحديث والدراية، أو كأنه فقيه محقق يقول معرضاً بمن يروون عن الأموات الكبار وكأنهم كانوا شركاءهم في اتخاذ القرار من دون أن يكون هناك من يرد الرواية.. وهم لا يكتبون تاريخهم الذاتي إلا بعد موت من يشاركهم أو يشركهم في الرأي يقول غسان "المؤسف في العالم العربي وفي الصحافة العربية بنوع أخص، أن لا مؤرخين عندنا ولا موضوعية. كل ما نكتبه إما أن يكون مع أو كله ضد، ولا نحقق ولا ندقق ولا نوازن بين الأمور، وإذا جلينا، فنكتب قصصاً وحكايات معظمها غير قابل للإسناد. ثم إذا كتب واحدنا مذكرات تجده صار حجر الرحى وقطب المرتجى في ما يروي، أي محور الأحداث، ما وقع منها وما لم يقع" (ص ٤٧١).. وفي نفس الصفحة يقول بجرأة "كل ما أعرفه أن أحداً لم يسترجع أرضاً من إسرائيل غير السادات". وكان قد ذكر عن السادات الذي ظلّ سنة كاملة يتعرّض للتشكيك

في نيّته في قتال إسرائيل وقد التقاه في لاهور عام ١٩٧٤ أنه سأله أمام عدد من الرؤساء والزعماء قائلاً "فين أصحابك يا غسان؟ أهو حاربنا.. هما كانوا عاوزيني أعلن من البلكون. غاظهم الضباب.. هو اللي عاوز يحارب لازم يقول للعدو يستنّاه" (ص ٤٧٠).

عن الملك حسين بن طلال يقول: "كان الأصرح والأكثر علماً بأمور العالم ولبنان بنوع أخص.. ويظلّ ملك التحفظ والصراحة في آن واحد.. كان أكبر دوراً من أنور السادات.. ليس فرعوناً" ويذكر قوله في الأمم المتحدة بعد الهزيمة "لقد انهزمنا ولكننا نعدكم بأننا سنتعلم كيف ننتصر" (ص ٤٧٣).

سأتوقف هنا، وإلا اقتبست الكتاب كله. كتاب غسان تويني يُقرأ كله ويُقتبس كله، لأن غسان فيه وكلنا في غسان عندما يكتب لأنه يكتبنا ولذلك نستطيع أن نكتب عنه لا أن نكتبه.

شكراً للسيدة السيدة، الأميرة الشاعرة، من دون منّ من أحد عليها، شكراً للدكتورة سعاد الصباح، على ما أتاحت لي من فرصة القول في غسان تويني قولاً مخزوناً مكنوناً منذ عقود من الزمن.. وأمنيتي أن يكثر الأمراء والأميرات من اللائي والذين يحتفين بمن يكون الاحتفاء بهم احتفاء بالمحتفي أيضاً.

ديالكتيك عباس بيضون

قدموه لي من بعيد.. أيام ازدهار منظمة العمل الشيوعي، على أنه كائن خاص، يلتبس فيه الثقافي بالخرافي، كل من هذين يذهب في عباس أو يذهب فيه عباس إلى آخره فإذا بعباس في آخر اللقاء أو الندوة أو المقالة أو القصيدة، وكأنه كتاب حاشد بالأسئلة. وكلما اكتمل لديه السؤال انفتح على سؤال آخر. في نهاية الحوار تجد أن عباس لم يعطك شيئاً، لأنه أعطاك كل شيء، أعطاك هذا الحماس الشديد والمرهق لكي تذهب إلى مكتبتك وتدقق في ما ينقصها من الكتب، لأنك قررت بفعل الفايروس العباسي أن تقرأ ألف كتاب. في حين يؤكد لك عباس أنه لم يقرأ إلا قليلاً من الكتب، لأن شروطه المعرفية، شروط إنتاج المعرفة في داخله مبرمجة على النوع لا على الكم. ومن هنا يصبح عباس مكتبة أو بديلاً من مكتبة، ذلك الذي يقرأ كثيراً ولا يبدع إلا قليلاً بالنسبة لما يقرأ أو يختزن وكثيراً بالنسبة لمن يقرأون قليلاً ويفكرون قليلاً ويكتبون كثيراً فلا يبدعون إلا قليلاً أو لا يبدعون. وهنا يفضي الثقافي إلى الخرافي،

ويجتذبك عباس الذي تختلف معه كثيراً جداً، وتحتاج اليه ثقافياً ومعرفياً ووجدانياً كثيراً جداً.

عباس يرقى في عيون عارفيه إلى مستوى المختلف الذي يضارع الضرورة أو الوجوب.. من دون عباس، ولو مرة في الشهر أو في السنة، تشعر أن مصدراً من مصادر حيويتك وأسئلتك قد غاب عنك أو غبت عنه ولم تفلح.

هناك شعراء عظماء ابتلاهم الله بمستوى فكري متنوع الأعماق والتجليات إلى حد أن فكرهم يعتدي على قصائدهم لتغيب أو تتراجع لحظة الشعر مرات في القصيدة لصالح فكرة جميلة، ولكنها آتية من وعي مفارق هو غير الوعي الفني الذي يتخلق داخل العملية الفنية لا خارجها.. وهناك شعراء كان بإمكانهم أن يكونوا عظماء لولا أن قلة بضاعتهم الفكرية قد أفقرت رؤيتهم أو ملكتهم الإبداعية.. كأنهم كانوا يحتاجون إلى المدينة فآثروا أن لا يغادروا أريافهم فتريفوا في المدينة.. والشعر الشعر عندما يولد في الريف يشتعل ويحقق فرادته وتركيبه في المدينة. أصله ريفي وفصله مدني.

عباس.. عندما يكتب قصيدته يحضر فيه الفنان ويغيب المثقف أو المفكر أو السياسي يذهب في إجازة غير مدفوعة الأجر. ريثما ينجب الشاعر قصيدته ولكنه يفاجئك في آخر القصيدة مستمعاً بأدب وتواضع شديد للنقد. وعندما يشتغل المثقف في عباس، أو يشتغل عباس في المثقف أو المفكر أو القارئ النوعي، يحضر الشاعر، الفنان يحضر الشعر، من حيث هو حساسية لغة وإيقاع ولون.. ويتميز عباس إلى حد

يجبرك على التسامح معه في ما تختلفان فيه، لا تتسامح ولكنه عباس يأخذك بعيداً عن ذاتك، عن منظومتك الفكرية الخاصة.. كرجل دين مثلاً. يأخذك إلى فضاء معرفي تتسع فيه المساحات التي تحتاج إلى تحريرها من العصبيات القاتلة للمعرفة والمعطلة للشراكة في انتاجها.. يغريك بتوسيع المشترك مع الحفاظ على جمالية الاختلاف.

أول ما التقيته في حوار مع المرحوم الشيخ علي الزين حول مسائل شديدة الحساسية.. أدخلني في الحوار رغماً عني، فاضطررت إلى مناكفته من دون قناعة كاملة بضرورة مخالفته.. وبعد عقود من الزمن كاشفته بالموافقة.. كان هو قد أصبح أشد هدوءاً وأنا أصبحت أشد قلقاً.

سمعته بعد اعتقاله أثناء الاحتلال عام ١٩٨٢ من راديو العدو، قال كلاماً قليلاً، كأن عباس ليس عباس... تذكر ولده زكي الذي كان مفروضاً أن يكون ذلك اليوم ذكرى ميلاده الأولى ذكر ذلك وأوى إلى صمت بليغ.. هذا عباس يذهب إلى الصمت عندما يحتدم الكلام في داخله أو داخلنا وإلى العادي عندما يصبح الحدث فوق العادة. عباس يواطئني على شيء من التزمت في سلوكي الديني الشرعي ويزيد احترامه لي على ذاك.

أما إذا تناقشنا فإنه يكشف فيه قاطعية غير عادية مع موجبات ذلك السلوك...

هكذا يوجد عباس بين أخلاقية المثقف المتعالي غير

المستعلي وأمانة المفكر لفكره وعاطفة المواطن والصديق مع حب للمختلف لا مجرد تسامح تنازلي. . يساعدك عباس على أن تحب المختلفين معك لأنه يقنعك بأن المختلف شرطك (يقول عباس الآخر مزرعة الذات) وما عليك إلا أن تبحث عن شروطك وتغري شروطك بالبحث عنك.

في النهاية. . تكتشف أن أهم ما في تكوين عباس هو أنه سلبي عقائدي، أي ليس عقائدياً لا في الفكر ولا في السياسة، من هنا كان عباس في المنظمة من دون أن يكون فيها. ولذلك فهو الأقل فجيعة بمآلها، وعندما اقترب عباس من الحزب الشيوعي كان مطلبياً محضاً، ولم تفجعه النهاية الفاجعة. . كأن اليسار عموماً كان بالنسبة إلى عباس فضاء فسيحاً لا بيتاً عائلياً. ولا زنزانة. . ولذلك فإنه عندما تداعت العمارة خرج عباس سليماً يرفل عافية وفكراً ونقداً يستبق الحدث ولا يقتل أحداً. شجاعة عباس أمام اجهزة الأمن أيام اليسار هي عين شجاعته أمام السائد الطائفي الذي ينقده وكأنه ينقضه بقوة ولكن بمحبة أيضاً.

انا رجل دين قد تكون صحبتي لعباس شهادة لي أو علي ولا أتبرأ من رغبتي فيها. . ولكنها شهادة لعباس أيضاً أو أولاً أو عليه. . شهادة تضاف إلى مئات الشهادات الخالية من النفاق والمعلقة على حائط عباس الذي لا حائط له إلا في شارع الثقافة. . حائطه مكتبه وفراشه دفتر وقهوته حبر وإرثه أوراق. .

نعم أشكو من عباس. . أشكو منه أموراً لو تخلص منها

لفقد علامة من علامات فرادته.. النسيان.. (نيال عباس على النسيان).. ويا ويلي إذا ما أرسلت إليه مقالي من دون تصويره، لأن الاحتمال الأرجح هو أنه سوف يضيع.. كما ضاع ديوان عباس المخطوط وهاتفه وحمالة مفاتيحه وكنزته الصوف و.. و..

أحياناً يوقع بي عباس ويفتح ذاكرتي وشوقي على ممارسات شعبية تجاه رجل الدين، لم أذق طعمها لأني جئت إلى ثوبي من غير مكان ديني أو أسري، من دون موروث، فمانعت أن تقبل يدي مثلاً.. كنت لأخجل.. وعندما يعلو صوت عباس عليّ في النقاش، ألجأ إلى جبتي وأعنفه لأنه يقسو على موقعي الديني.. فلا يعتم عباس أن يتقدم مني حاني الرأس ويهم بتقبيل يدي.. فأصدقه ولكنه لا يلبث أن يخيب ظني ليعزز حسن الظن به وبي.

أقبله في نهاية الأمر ويقبلني كما يقبل النقيض نقيضه أو تقبل الوردة شوكها. هكذا هكذا يمكن تحول الديالكتيك المادي أو الهيغلي إلى جدل إنساني.. أو جدل الحب.. أو جدل الحب والفن. هكذا تؤنسن المعرفة بتحريرها من القيود والعقد الشائعة لتصنع قيودها وعَقدها وأساورها وأقراطها وعطورها من كيسها وقماشتها وحبرها على حسابها ولحسابها.

الفهرس

المقدمة: هاني فحص الذاكرة العذبة وسيرة الناس والأماكن ٥
مقدمة المؤلف إنها أسمائي أيضاً ١٣

القسم الأول

أبو عمار.. الختيار.. ملك التفاصيل ٢١
أبو عمار في طهران من سيرتي في سيرته "درود برخميني سلام برعرفات" (تحية للخميني سلام لعرفات) ٣٥
الاستثناء كمال جنبلاط ٦١
كمال جنبلاط: الوسطي في السياسات ٦٧
كمال ووليد جنبلاط جدل الاستمرار والتغيير ٧٥
ترجّل فارس فنهض وطن ٨٣
جيش اليتامى ٨٧
خليل الوزير خليل الجليل ٩١
أبو جهاد خليل الوزير / الشهيد ١٠١
السيد فضل الله لحظة فراق.. لحظة إنصاف ١٠٩
السيد محمد حسين فضل الله وماراثون المرجعية ١١٣
نخلتنا السيد فضل الله... أو الصبر لحماً ودماً ١٢١

جورج حاوي قتل عقاباً له على المستقبل لا الماضي ١٣١
جورج حاوي الذي لا يُستغنى عنه ولا عن الخلاف معه ١٣٧
"جورج حاوي" المقتول بسبب "لبنان" ١٤٥

القسم الثاني

إقتباسات إمامية من الإمام موسى الصدر ١٥٧
عادل عسيران في رعيله بين الانطباع المنقوص
والمعرفة المنصفة ١٦٥
الإمام الخميني العادي.. فوق العادة ١٧٥
الشيخ حسين علي منتظري الرجل القيمة أو القيمة رجلاً ١٨١
فلسطين التي جمعتنا محجوب عمر ـ حكاية ورسالة ١٨٩
جعفر شرف الدين ٢١٣
شكيب أرسلان إشكالية تتعدى صاحبها ٢٢٣
إعتذار وشكوى معرفية الى أنطون سعاده ٢٤٣
حسين مروة أسئلة وأجوبة ٢٥٣
مصطفى عزّ الدين يومك بوابة على العمر ٢٦١
أيقونتنا الحية... ما أجمل وجهي في وجهك! ٢٧٣
العلاّمة والعمامة العلامة خاتمي وانسجام المظهر والجوهر ٢٨١
غسان تويني.. القامة القيمة أو لبنان الذي يسهر في النهار ٢٨٧
ديالكتيك عباس بيضون ٣٠٧

هذا الكتاب الأليف واللطيف والممتع جولة بين الناس وعن الناس، وفيه لا نقرأ الوقائع أو الحكايات وحدها، بل نقرأ حياة غنية ومتشعبة لبضع عشرة شخصية من الذين غيّروا أفكارنا، أو أثّروا فينا بهذا المقدار أو ذاك، وأثْروا حياتنا ببعض البهاء أمثال شكيب أرسلان وأنطون سعادة وكمال جنبلاط والمطران جورج خضر والسيد محمد حسين فضل الله وحسين مروة وياسر عرفات وخليل الوزير ومحجوب عمر وغسان تويني والإمام موسى الصدر وجورج حاوي وآخرين.

ISBN 2-84306-126-x

